كتاب

الإسلام والدول الإسلامية في الهند

تأليف

محمد عبد المجيد العبد

عضو مجلس الشيوخ

الطبعة الأولى

١٩٣٩

مطبعة الرغائب

الاسلام والدول الاسلامية

فى الهند

بينما كان سيدنا محمد رسول الله جالسا فوق ربوة وسلمان الفارسى مع بعض العرب يحفرون خندقا فى الأرض اذ اعترضتهم صخرة حاروا فى أمرها لشدة صلابتها فأخبروا النبى بذلك فقام وفى يده قضيب من حديد وضرب به الصخرة فتفتت وتطاير منها الشرر ولمع فى الأفق برق شديد فنظر الرسول الى يمينه وقال لأعوانه « إنى رأيت على ضوء البرق قصور الحيرة ومدائن كسرى » وعاد ثانية وضرب الصخرة فتطاير الشرر ولمع البرق فقال لأعوانه « إنى رأيت على ضوئه قصور بنى الأحمر فى الشام » . وعاد وضرب الصخرة مرة ثالثة فتطاير منها الشرر ولمع البرق فى السماء فقال « إنى رأيت على ضوئه قصور صنعاء » وبشر المسلمين بأن الله سيورثهم ملك كسرى وقيصر وقد تحقق ما قاله رسول المسلمين الى مدى ما كان يجوز فى أحلام حالم . وغزت جيوش العرب شرقا وغربا وجنوبا فاستولت على جزيرة العرب بأجمعها وصارت راية الاسلام تخفق على ربوع أفريقيا الشمالية وتركيا وفارس .

وفى سنة ٧١١ ميلادية أى بعد انقضاء ثمانية وسبعين عاما على وفاة صاحب الرسالة وفى عهد الوليد الأول الأموى كان الحجاج بن يوسف الثقفى واليا على العراق يلتهب غيرة و يشتعل حماساً لنشر الدعوة الاسلامية . فأشار على الخليفة أن يسمح بايفاد جيش لغزو بلاد السند وهى أحد أقاليم الهند تجاور بلاد العجم فصدر له الأمر بذلك فاختار فريقا من المسلمين (يبلغ عددهم ستة آلاف)

اسند قيادتهم الى محمد بن القاسم . ولما وصل هذا الجيش الى سواحل السند وابتدأ يتغلغل داخل البلاد وقف فى طريقه « ذاهر » — ملك السند — ولـكنه لم يستطع الوقوف فى وجه هؤلاء المجاهدين فانهزم وقتل هو وعدد كبير من جيشه وقد قال العربى الذى قتله :

الخيل تشهد يوم ذاهر والقنا ومحمد بن القـاسم بن محمد
أنى فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهندى
فتركته تحت العجاج مجندلا متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل ذاهر غلب محمد على بلاد السند وفتح مدينة « راور » عنوة وكان بها امرأة لذاهر فخافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها ولما اشتدت هزيمة الهنود طلبو الأمان من المسلمين فاجابهم ابن القاسم اليه وأصاب العرب مغانم كثيرة ومقداراً عظيما من الذهب والجواهر قدرت يومئذ بمئة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم فقال الحجاج صرفنا فى النفقة على هذا الغزو ستين ألف ألف فربحنا مثلها وأدركنا ثأرنا ورأس ذاهر .

ولقد خلد محمد بن القاسم على حداثة سنه الذى لم يتجاوز سبعة عشر عاما . لنفسه فى بطون التاريخ اسما مجيداً حيث أحرز أول انتصار لجيوش العرب فى الهند . غير أنه مما يثير الأسف والحزن فى نفس كل قارىء أن يعلم أن هذا القائد الشاب أتهم ظلما بأنه قارب إحدى بنات ذاهر فيما له علاقة بعفتها فلما أرسلها الى الخليفة شكت اليه فأثار ذلك غضبه عليه فقتله شر قتلة . ولما شفت بنت ذاهر غل نفسها منه حيث كان قد قتل والدها أخبرت الخليفة بحقيقة الأمر وفخرت بأنها انتقمت لأبيها من أبن القاسم باختلاقها ما نسب اليه فأذاقها الخليفة وبال فعلها وأعدمها وأسف على ظلمه لابن القاسم ولـكن بعد أن أصبح الأسف لا يفيد ولا يرد البعيد .

ولقد كانت غزوة العرب للسند فى ذلك العهد أقل الغزوات شأنا وأثراً فاننا اذا استثنينا بعض المصادمات التى كانت تقع بين جيوش المجاهدين الغزاة وبين قبائل الراجبوت المجاورة فى أوقات متقطعة فانه لم يحدث بعد ذلك شىء جدير بالذكر خصوصاً اذا عرفنا أن المنطقة التى أقام فيها العرب كانت تحف بها صحراء ذات طبيعة قاسية حالت دون توسع الغزاة علاوة على أن جيوش الخلافة كانت مشتبكة فى أقطار أخرى متعددة مما حال دون امداد العرب بقوات أخرى فوقفت حركتهم هناك عند هذا الحد و بقيت خامدة جامدة الى أن قدر لمسلمين آخرين بالعمل الأكبر الذى كان ولا يزال عظيم الذكر بعيد الأثر فى شؤون العالم عامة والاسلام خاصة وذلك فى سنة ٩٦٢ حيث استطاع « سبكتاجين » المملوك التركى المشهور « بعز الدين » أن يحتل مدينة غزنة عاصمة الأفغان وهو والد السلطان محمود غزنوى الشهير وكان هذا المملوك المجازف أول مسلم غير عربى هاجم الهنود المتاخمين لحدود بلاده وبذلك مهد الفكرة وأفسح الطريق لابنه السلطان محمود غزنوى حيث نفذ الى الهند من حدها الشمالى الغربى وقاتل الراجا «جيبال» ومن بعده قاتل ابنه « أنا ندابال » حيث ثار عليه وألب معه قبائل الهندوس وراجواتهم (أمرائهم) فهاجموا مدينة بيشاور ولكن النصر فى النهاية أحرزته جيوش المسلمين ويرجع الفضل فى ذلك الى بسالة الخيالة الأتراك ومن وقتئذ صارت ولاية البنجاب ملكا تابعا للمسلمين (إلا فى فترة قصيرة كانت انتزعتها منهم السيك « أوالسيخ » وقت تفوقهم) .

وفى سنة ١٠٢٥ وسنة ١٠٢٦ وقعت أهم غزوات السلطان محمود فى الهند بولاية جوجيرات حيث أراد الاستحواذ على معبد سيفا وحينما بدأ تنفيذ خطته حيث سلك طريق أجمير ليتجنب صحراء السند وجد الهندوس متجمعين فى مدينة « سومناه » للدفاع عن معبدهم وبدأ القتال واستمر يومين كاملين دون انقطاع

وهربت على أثر ذلك عساكر الراجبوت الباسلة ولجأ كهنة البراهمة الى معبدهم المقدس ولما اقتفى السلطان أثرهم الى داخل الهيكل توسلوا اليه أن لا يعتدى على أصنامهم مقابل قيامهم بأداء أى فدية يفرضها عليهم ولكنه أبى الا تحطيم أصنامهم إذ أنه لم يخرج طلبا لمال يغنمه بل مدفوعا بحماسه الدينى يريد محاربة الوثنية واعلاء كلمة الله ولما باشر تحطيم الأصنام تناثرت من أجوافها الجواهر الثمينة وقطع الذهب كما لو كانت مياها تتدفق بسرعة من النوافير ويالها من غزوة جمعت بين الدين والدنيا !

ولقد حاز السلطان محمود شهرة كبيرة فى بلاد الشرق بين الأمم الاسلامية ولما اتسعت فتوحاته وثقلت أعباؤه ابتدأت تهرع اليه وفود المسلمين المتطوعين من كافة البلاد الاسلامية وخصوصا من أقليم « ما وراء النهر » . أى بخارى وخيوى — طمعا فى القتال معه وحبا فى الشهادة لما كان لحروبه من الصبغة الدينية وقدم له كثير من أمراء الهندوس فروض الطاعة وسلمت له مدينة « كونوج » عاصمة « راجاتومار » وقد كانت أشهر مدينة وقتئذ فى هندستان . ولم يزل محمود سائراً فى غزوه موفقا فى مجهوده تسلم له القلاع وتفر منه الأبطال وتحطم فى طريقه الأصنام وتمحى أمامه أثار الكفر حيث سار الى أن وصل سواحل المحيط الهندى وقد اجتاح محمود بجيوشه شمال الهند من نهر الاندوس الى نهر الجانجيز «الكنك» ولما طالت غربته هو وجيوشه عن غزنة عاد بسبب الحنين الى وطنه الأصلى أى الافغان ومعه من المغانم والأسلاب ما لا يدخل تحت حصر وقد امتلأت خزائنه بالذهب والفضة علاوة على الجواهر الثمينة ومن مزاياه أن مقره كان ملجأ يقصده رجال الفنون والآداب لتشجيعه لهم مما عاد على شعبه بجزيل الفائدة وصارت غزنة فى عهده كعبة لمشاهير الشرق من رجال السياسة والفلسفة والشعر والعلوم الفلكية واللغات الشرقية (ومنها السنسكريت) وقد قصده الفارابى والعتبى

والبيهقى المؤرخ والفردوسى وهو الشاعر الفارسى المشهور صاحب الشاهنامة التى اثبتت تاريخ أبطال الفرس شعرا .

وقد صرف السلطان محمود حيـاته فى جهاد وتجديد وتشييد ولم يطل عمره كثيراً بعد هـذه الفتوحات بل مات على أثرها ودفن فى مدينة غزنة عاصمة ملـكه فى قبر يحف به جامع عظيم أحتفظ فيه ببعض أثاره ومنهـا القضيب الذى حطم به أصنام الهند ، وأبواب مدينة سومناه ولم تزل هـــذه الأثار باقية فى أفغانستان حتي سـنة ١٨٣٢ و بعدها فقد القضيب ونقلت الأبواب الأثرية إلى الهند حينما غزا الانجليز الأفغان سنة ١٨٣٩

لم تبقى أسرة هذا الغازى فى الحكم طويلا ولم يعقبه من نسله أ كثر من أربعة عشر أميراً لم يصف لهم فيها الزمان بل ناوئهم أمراء جبال الغور وفى سنة ١١٥٥ انتهى حكم بهرام الغزنوى وتولى بعده علاء الدين الغورى الذى أباح مدينة غزنة الغنية ـ بما تركه مؤسس عائلة الغزنوى ـ وقد صارت خراباً ، وعندئذ هرب الامير خسرو بن بهرام الغزنوى ولجأ الى الهند ودخل مدينة لاهور وباقامته بها بدأت إقامة أول أسرة اسـلامية فى الهند . غير أن الزمان لم يسالم خسرو طويلا وانقرض حكم هذه العائلة الغزنوية فى عهد ابنه المسمى أيضاً بخسرو حيث أسره محمد غورى سنة ١١٨٦ وبذلك بدأ حكم عائلة الغورى الأفغانية ودالت دولة الترك الغزنوية وكان مؤسس عائلة الغورى الأمير عز الدين والد علاء الدين الذى دمر مدنية عزنه وكان لعلاء الدين ابنا عم أحدهما يسمى غياث الدين والثانى يدعى معز الدين (وهو المشهور لدى مؤرخى المسلمين بشهاب الدين محمد غورى) ، وهو ثانى غزاة الهند المسلمين وفى سنة ١١٧٥ غزا مقاطعة ملتان وفى سنة ١١٧٦ سقطت لاهور فى قبضته و بذلك تخلص محمد غورى من مناظريه من الملوك المسلمين فى الهند . فلما تحقق له ذلك بأسره السلطان خسرو وايداعه

سجيناً فى قلعة فيروز كوه شرع فى محاربة الهندوس . ولقد كان من عادة عائلة الغزنوى السابقة أن تستخدم جنوداً وطنيين هندوس ولـكنه أبطل هذه العادة وجعل كل اعتماده على جيوش من الأفغـانيين والأتراك والفرس الذين كانو يشتعلون غيرة على الدين فجهز منهم قوة كبيرة ونازل راجا برتوى وكان خصما شديد المراس لايفضل جيشه أى جيش فى العالم حيث كانت وحداته مكونة من قبائل الراجبوت التى يخيل أنها ما خلقت إلا للقتال الى الموت وحتى أنه لم يتيسر لحاكم مسلم اخضاعهم الا بالاسم فقط ومما كان يجعل لهم قيمة عسكرية ممتازة وجود تنظيمات سليمة ومتقنة للرماية واتخاذهم مهنة الجندية من قرون عديدة كحرفة ويزيدهم حماساً فى القتال أغانيهم الحربية فقد كانت تلهبهم شجاعة و بلغ من نبل أخلاقهم أنهم كانوا يتقيدون بصفات شريفة فى معاملة خصومهم فكان من العار عندهم الخروج على هذه الصفات وكانت أول واقعة بينهم و بين محمد غورى جعلته يتصور من خطورتها أنها ستـكون آخر محاولة له معهم إذ أن القتال الذى جرى ، عند مدينة « نارين » القريبة من « كارنال » كان شديد الخطورة عليه إذ كثيرا ما هاجمت خيالته جنود الخصوم ولـكن شجاعة هؤلاء الخيالة واندفاعهم كان يفتر ويتلاشى أمام الراجبوت فـكانت مهارة الراجبوت تفسد كل خطة وأخيراً ولأنقاذ الموقف هاجم محمد غزنوى شقيق الراجا وقتـله ولـكنه استهدف هو أيضـاً للموت وكاد يسقط من جراحه لولا بسالة مملوك معه اسمه « القلجى » الذى انتشله كجثة وجرى به بعيداً و بذلك أنقذه من الموت ولـكن جيش المسلمين تضعضع ولم يسبق لجيش قبله أن هزم هذه الهزيمة الساحقة حتى أنه فى تقهقره لم يقف فى مدينة لاهور بل عبر نهر الاندوس متراجعا الي بلاد الأفغان ولم يستطع السلطان أن ينسى ذكرى خذلانه بل لازمه الفـكر ليلا والحزن نهاراً وفى خلال عام تجهز بجيش يقدر بمئة وعشرين الف مقاتل بينهما أربعين الف خيال وكلهم

أفغان وأتراك وفرس ، ولما عاود الكرة على خصمه السابق وجده فى انتظاره بنفس المكان القديم ولما كان السلطان قد استفاد خبرة ودروسا من غلطاته الماضية فقد أرسل قسما كبيرا من جيشه لمهاجمة الهندوس فوجدهم ما زالو محافظين على بأسهم وقوتهم القديمة فأعطى تعليمات لقواده بتصنع الهزيمة والتقهقر فنفذوا تعليماته فتعقبهم الخصوم مندفعين وراءهم كالسيل فباغتهم بهجوم عنيف باحتياطى جيشه فقتل كثيرا من جنودهم ورؤسائهم وأدخل عليهم الفزع والرعب فتداعت صفوفهم وأصابها الخلل والارتباك ففروا لا يلوون على شىء طلبا للنجاة وعلى رأسهم الراجا برتوى ولكنه لم يتمكن من الفرار وفى النهاية وقع أسيرا وقتل .
وكانت النتيجة أن ضم المسلمون الى أملاكهم ولايات اجمير وهانسى وسيرسوتى واستمر تعقب الهندوس والتقتيل فيهم وهدم معابدهم وتحطيم أصنامهم وشيدت فى أماكنها مساجد يتلى فيها اسم الله وتركت ولاية أجمير لابن واليها السابق برتوى لينوب عن السلطان محمد فى حكمها كما وأن المملوك قطب الدين ايبك عين واليا لدلهى ولما انقضى أجل السلطان محمد انتهز قطب الدين الفرصة ونادى بنفسه ملكا على دلهى وبينما كان منهمكا فى اخضاع المدن العاصية فى غرب الهند اذا بقائد آخر إسمه محمد بختيار يهاجم شرقا فى مدن البنغال حتى احتل مدينة لكنتاو وكانت العاصمة وقتئذ لهذه الولاية و بذلك تم اخضاع هندستان من الغرب الى الشرق تحت حكم المسلمين (معنى ذلك كل هندستان الشمالية ولم يتبقى إلا شبه الجزيرة فى الجنوب وأهمها ولاياته الديكان) واسم قطب الدين مازال منقوشا على المنارة المنسوبة له والتى لا زالت قائمة بين أطلال مدينة دلهى القديمة ولقد استمر الحكم يتعاقب فى نسل هذا المملوك الملك الى سنة ١٢٨٨م

ولقد تم استيلاء علاء الدين القالجى سنة ١٢٩٤ على عرش عائلة المماليك وذلك بقتله غيلة السلطان فيروز الذى حل محل المماليك و يعتبر علاء الدين القالجى

ثالث غزاة المسلمين الذين غزوا الهند وأقاموا بها : ولقد خاض حروبا طويلة فى الولايات الجنوبية التى لم تكن وقتئذ قد خضعت لحكم المسلمين وهو الذى احتل معبد بهلسا وديوجيرى (دولة أباد) فى ولاية الديكان وقد بعث عدة قواد على رأس جيوش متعددة فاجتاحوا بها أواسط وجنوب الهند ومن بينهم مالك كافور الهندوسى الذى ارتد عن دينه واجتاح باسم المسلمين ولايات الجنوب والمشهور عنه أنه اعتدى على كل المعابد الهندوسيه وجردها من كل شىء ثمين بها كما أنه لم يرحم السكان اذا صادرهم فى كل ما يملكون من ذهب وفضة .

وجاء فى تاريخ البارانى أن علاء الدين حكم عشرين عاما فى الهند اتسعت فيها حدود ملكه لدرجة لم تتفق لملك قبله وتوطدت الأمور وسار كل شىء طبق رغائبه وامتلأت خزائنه بالذهب والفضة والجواهر وكان كثير البذل سفاكا للدماء أميا لا يعرف مبادىء القراءة ولا الكتابة الا أنه كان موفقا فى كل مقاصده خبيرا فى قيادة الجيوش وإدارة الأحكام وحينما اغتصب الملك من الشاه فيروز صار ينثر الذهب فى طريقه على أعوان الملك السابق استجلابا لهم وكسبا لولائهم فلما تم له ذلك قلب لهم ظهر المجن وقبض عليهم جميعا فقتل البعض منهم وسمل عيون الآخرين وصادر أموالهم واستصفى أملاكهم ولم يستثنى الا ثلاثة تنزهت نفوسهم عن قبول الرشوة وارتكاب الخيانة لسيدهم السابق فأعطى بذلك درساً عظيما للذين لا وفاء لهم ولا عهد . والذين يلبسون ثوب زيد لعمرو طبقا للظروف وتمشيا مع الهوى ولقد بالغ علاء الدين فى احترام القواد الثلاثة الذين حافظوا على ولائهم لفيروز فأفاد بذلك الجيل المعاصر له درسا أخلاقيا متينا وجاءت سنة ١٢٩٧ فأجتاز المغول مضايق الشمال ووصلوا نهر الأندوس قاصدين مدينة دلهى ولم تكن فى حالة تصلح للدفاع فلما صاروا على مقربة منها بجيش يبلغ مئتى الف مقاتل جزع أعوان علاء الدين ونصحوا لهم بمسالمتهم فأبى

الاصغاء الى أقوالهم ودفع بظفرخان قائد الجناح الأيمن لجيشه الى ملاقاتهم فنجح فى مأموريته وسحق الجناح الأيسر للمغول وحصده حصداً غير أن الجناح الأيسر لجيش علاء الدين تحت قيادة ولده أيلك خان تباطأ فى حركته فأفسد نجاح جيش أبيه الحاسم . الا أن الرعب دخل على قلوب المغول ففى ظلام الليل فتفرقوا شذر مذر واعتنق فيما بعد كثير منهم الدين الاسلامى غير أنهم لم يبتعدوا عن الدسائس وقويت عصبيتهم فحسب علاء الدين حسابا لذلك واستأصل شأفتهم حينما علم أنهم يدبرون له المؤامرات وقتل منهم نحو أربعين ألفا ولقد تمرد عليه الهندوس فى مدينة سومناه فأوقع بهم ونقل صنمهم المعبود الى دلهى حيث ديس بالأقدام تأديبا لهم وتحقيرا وقد توالت انتصاراته وفتوحاته وعظمت شوكته فداخله الغرور وابتدأ يفكر فى خلق دين جديد يضع فيه نفسه موضع التقديس كما خطر على باله أن يقلد الاسكندر الأكبر (المقدونى) فيغزو العالم ولكن من حسن حظه أن استشار من حوله من العلماء فنصحوا له أن يدع أمور الدين فهى من شؤون الأنبياء وأما غزو العالم فلم يقروه عليه واستصوبوا له أن يتم غزو باقى بلاد الهند التى لا زالت مستقلة والتى كانت تناوئه مثل ولاية « راتمبور » و « شيتور » و « ملتان » و « ملوا » .

انصافا لهذا السلطان أثبت كثير من المؤرخين أنه استمع للنصيحة وعمل بها وعدل عن خطته الأولى وعاد الى صوابه . ولقد دبر ابن عم له مؤامرة اعتدى عليه فى أثنائها ولم يتركه المتآمرون إلا بعد أن ظنوا خطأ أنه قتل فتوجه ابن عمه الى سرايه واقتحمها فاعترضه « الطواشى ما لك دينار » ووقف فى وجهه أمام باب الحرم وأقسم أنه لن يسمح له طائعا بالدخول إلا اذا أظهر رأس السلطان غير أنه لم تمض برهة يسيرة حتى استجمع السلطان علاء الدين قواه ودخل على ابن عمه

الثائر فأدخل عليه الارتباك والخوف وقبض عليه ومعه بعض المتآمرين وقتلهم بعد أن مثل بهم .

وتتابعت بعد ذلك المؤامرات على حياته من أفراد عائلته وبعض مماليكه فاستشار فى أمرهم حاشيته ووزرائه فقالوا لهم أن كثرة اليسار والنعمة أبطرت الناس وأن توالى اختلاطهم بسبب الحفلات التى يقيمونها جعلتهم يفكرون فى أمور ليست من شأنهم وصارت وفرة الأموال تطغيهم حتى على شخصك العظيم فما كان منه إلا أن فرض ضرائب فادحة وصادر ذوى النعمة وسلب كثيرا من أموالهم وأملاكهم وتبدل اليسر عسرا والسعة فى الرزق ضيقا وسار الكثيرون فى كرب شديد وحيرة جعلتهم لا يفكرون إلا فى الحصول على الضرورى من القوت وأقام نظاما واسع النطاق دقيق الوضع فى الجاسوسية والرقابة وحرم على الكبراء والعظماء أن يصاهروا بعضهم الا باذنه أو أن يجتمعوا الا بأمره حتى بلغ بهم الفزع الى درجة صاروا فيها لا يتزاورون الا خلسة ولا يتكلمون الا همسا أو اشارة وصار كل الهنود يرتعدون من بطشه خوفا وزاد فى التضييق عليهم فمنع بتاتا بيع الخمر وشربه وحرم جميع الملاهى والعقاقير المخدرة وأمر بتحطيم كل أدوات الخمور و بدأ بنفسه فكسر كل الأوانى من زجاجات وأقداح وأفرغ على الأرض ما كان مخزونا لديه من الخمور . ومما كان موضع اهتمام هذا السلطان الغريب تنظيم أسعار المواد الغذائية فقد جعل لها ثمنا لاتعدوه فكان سعر الغلال مثلا .

كل ثمانية وعشرين رطلا ما يوازى خمسة عشر مليما

« « « من الشعير ما يوازى سبعة مليمات ونصف

« « « من الأرز « عشرة مليمات

« « « من العدس « خمسة مليمات

وكان من ضمن وسائله فى مكافحة الغلاء أنه كان يصدر الأمر للجباة بتحصيل جانب من الضرائب بالنوع فكان بذلك يملأ كثيرا من مخازنه العامة بالمدن حبوبا فاذا قل الوارد ومالت الأسعار الى الصعود أخرج جانبا من المخزون فيحصل بذلك رد الفعل المطلوب .

ومما عرف عنه أنه كان شديد القسوة على رعاياه الهندوس اذ فرض عليهم ضرائب فادحة لم تترك لهم من حاصلاتهم الا القليل الذى لا يكفيهم الا بمشقة حتى أنهم اضطروا فى بعض الأحوال لقطع السنابل الخضر من مزارعهم قبل نضوجها وذلك لتلافى الجوع .

والذى يعتبر تاريخ عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ناقصا اذا لم يذكر فيه الحجاج بن يوسف الثقفى كذلك يجد تاريخ السلطان علاء الدين اذا لم تذكر معه سيرة قائده الهندوسى كافور فانه بما أوتى من بطش وسطوة استطاع أن يضم جنوب الهند الى حكم المسلمين وهو الذى ملأ خزائن علاء الدين بالجواهر والأصنام والنقود الذهبية التى بلغت زنتها الفا ومئتى طنا كما أنه أرسل معها عشرين ألف حصان وستمئة واثنا عشر فيلا . وفى سنة ١٣١١ وصل علاء الدين الى قمة مجده وبلغ كافور منزلة رفيعة لديه فأثارت الحقد والضغينة فى قلوب الكثيرين لا سيما وأن كافورا استطاع بما له من النفوذ أن يسند وظائف الحكم فى بعض الولايات الى غير الأكفاء من أعوانه فكان ذلك سببا فى احداث رد فعل شديد عقب وفاة علاء الدين ولقد أخذ كافور مقاليد الأحكام فى يده وأجلس على العرش شهاب الدين عمر وهو طفل لايتجاوز ست سنوات وسمل عيون أخوين له أكبر منه سنا وعاملهما معاملة غاية فى القسوة كما أنه طرد أمهما الملكة واغتصب أملاكها ولقد أمعن كافور فى وسائل حكمه الدموى حتى أنه فكر فى تدبير مؤامرة واسعة النطاق يبيد بها معظم عائلات الاشراف

ولكن من حسن حظ هؤلاء أن بعض الجند فكروا فى اغتياله ونفذوا مكيدتهم فيه إذ اقتحموا حجرة نومه وقتلوه فيها فحالوا دون انفاذ نواياه الخبيثة ولم يكن قد مضى على وكالته للعرش أكثر من خمسة أسابيع فانتهز ابن كبير من أبناء علاء الدين فرصة الاضطراب الذى حدث بموت كافور وسمل عينى أخيه الصغير وجلس بعده على العرش وسمى نفسه « قطب الدين مبارك شاه » ولقد كانت أخلاقه متباينة ومختلفة كل الاختلاف عن أخلاق والده فقد عرف عنه لين الخلق وسهولة الطبع وكان سنه وقت اعتلائه العرش سبعة عشر عاما وكان عبداً لشهواته فلجأ الى اللهو والراحة و بدأ حكمه بفتح أبواب السجون وأطلق منها سبعة عشر ألف سجين وأعطى للجيش مرتب ستة أشهر وأكثر من أعطاء المنح والهبات وألغي كثيراً من الأحكام وأبطل كل الضرائب التى أحدثها والده وهكذا ذهب الخوف الذى كان مستحوذا على الناس من صولة الملك و بعض جباة الأموال واندثر العهد السابق المملوء بالأوامر والنواهى الشاذة فصار الهنود لايسمعون :

اعمل هذا — ولاتعمل ذاك .

قل هذا — ولا تقل ذاك .

أخف هذا — ولا تخف ذاك .

كل هذا — ولا تأكل ذاك .

وألف الناس العهد الجديد واندفعوا فى حظوظهم وعاد صنع الخمر و بيعه وشربه وارتفعت الأسعار وتجوهلت التسعيرات السابقة ونسى التجار الأمانة فى المعاملات وارتفعت أجور العمال نحو ٢٥٪ وفشت الرشوة وبدأ الهندوس يستردون ثروتهم المفقودة و يتمتعون بالسعة فى الملبس والمأكل وتغيرت الحياة كثيرا بما رفع من القيود السابقة التى صدرت فى عهد علاء الدين ولقد ضرب قطب الدين مبارك شاه مثلا سيئا لرعاياه بانغماسه فى الشهوات واحتقاره لأصول اللياقة وقد

ارتفع ثمن الجوارى والقيان من جنيهين الى مئتى جنيه وذلك لاندفاع الناس كملكهم فى حظوظهم وشهواتهم

اذا كان رب البيت بالدف مولعا

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ومما زاد الحال سوءاً أن السلطان قطب الدين وقع تحت تأثير أحد وزرائه من طائفة المنبوذين وكان اسمه خسروخان فهيأ له كل وسائل الشهوات الحقيرة دون مبالاة أو تقيد بحياء . ثم انه هجر الصلاة ولم يعد يذهب الى المسجد كما ترك صوم رمضان وجاهر بالافطار و بذلك كان قطب الدين على تمام النقيض من أبيه فى أخلاقه الا فيما يتعلق فى القسوة فى العقوبة إذ حينما ثار عليه « هار بلاديقا » فى ولاية « ديفاجيرى » أسره السلطان ثم سلخه حيا ثم قتله ، ولما اتهم ابن عم له إسمه أسد الدين بالتآمر عليه بسبب استيائه من فوضى الأمور كانت عقوبته أسره ومعه تسع وعشرون من أخوته وأطفالهم وذبحهم ذبح النعاج واخراج نسائهم من البيوت الى الشوارع . كما أن أخوته لم يكونوا أحسن حظا اذ وضع ثلاثة منهم فى قلعة وسمل عيونهم ثم أعدمهم . ولقد أتى بحاكم جوجيرات وحكم باعدامه لوشايات لم تثبت صحتها . ولما ثار عليه الراجا الهندوسى الجديد لولاية ديفاجيرى قطع أنفه وأذنيه وكثيرا ما نكل قطب الدين المبارك بالاشراف الذين كانوا مقربين من والده وذلك بايعاز من المنبوذ خسرو .

وفى سنة ١٣٢١ فى احدى الليالى تجرأ خسروخان ودخل على سيده وقتله ورمى بجثته من احدى نوافذ قصره وخيرا فعل اذ أراح الناس من شروره

واغتصب خسرو عرش « قطب الدين » فى عهد امتلأ بالرعب والخوف ولقب نفسه « بناصر الدين » وبدأ عهده بسفك الدماء والقسوة التى لم تعهد الهند مثلها ولقد تهجم على نساء قطب الدين وانتهك حرماتهن ووزع بعضهن كما وزع

بناته على بعض أعوانه ولم يقف عند هذا الحد بل اعتدى على كثير من بنات الأشراف ووزعهن على من يحيط به من الطبقات المنبوذة فكان ارتكابه لهذه الأعمال الحقيرة المثيرة واهراقه لدماء الأبرياء مما احمرت له السماء غضبا ولقد أساء الى القرآن ووضع الأصنام فى مساجد المسلمين وكان حكمه ممقوتا على السواء من الهندوس وغيرهم ولو أن أميراً من الهندوس جمع شتات طوائفه وحاول الاستحواذ على العرش لكان من الممكن نجاحه .

أما فيما يتعلق بالمسلمين فقد راعهم ما كابدوه من ظلمه ولجأوا الى « محمد بن تقلق » (الغازى) ذلك الرجل الذى كان رعبا للهندوس والذى وقف حارسا للبطائح والمستنقعات المتاخمة للحدود حينما حاول المغول اجتياح الهند فى عصر السلطان علاء الدين فحقق أملهم وأجاب نداءهم وجمع شتات القوى المتفرقة وقصد مدينة دلهى لتخليصها من يد هذا الطاغية خسرو الذى حينما علم بزحف ابن تقلق صار يجود بما تحت يديه من الثروات المتجمعة ويوزع الأموال بسخاء ليجمع بها جيشا يستعين به على رد الغازى الجديد الذى قصده لانقاذ الحكم الاسلامى والشريعة الاسلامية ولقد تكلل مسعى ابن تقلق بالنجاح وقطعت رأس خسرو خان حيث وجد مختبئا فى احدى حدائق دلهى وذلك فى سنة ١٣٢١ بعد انقضاء أربعة شهور كانت على الهند جحيما واقترح « ابن تقلق » اختيار أمير من نسل الأسرة المالكة ولكن الجموع والجماهير بدلهى أصرت على المناداة به شخصيا ملكا عليهم وقالوا له أنه أحق من يحكمهم اذ كان سببا فى خلاصهم من طغيان خسرو المرتد وأنه حقيق بولاء الجميع لما أسداه لهم من خدمات جليلة وانقاذهم من هول ما كانوا فيه .

محمد بن تغلق

رجل الافكار

ابتدأ حكمه سنة ١٣٢١ ولم يخب فيه أمل المؤملين وهو الذى أنقذ الهند من شر المغول وحمى الحدود الشمالية من عبور العدو ولما ابتدأ عهده كملك استعمل الحزم فى كل أموره فأعاد الأمن الى نصابه وخفض الضرائب عن الأراضى الزراعية الى العشر والى $\frac{١}{١١}$ قسما من الحاصلات ثم أنه واسى الكثير من ضحايا خسروا وخصوصا السيدات اللائى انتهكت حرمتهن فى سراى قطب الدين وحاول أن ينسيهن ما أصابهن بما قدمه لهن من أنواع المساعدة واظهار عطفه الشخصى ولم يغال كثيراً كغيره فى التشديد على الهندوس ولم تكن الضرائب التى فرضها عليهم فوق احتمالهم .

ولقد عاد الرخاء مع الأمن وقت حكمه. ومن أعماله العسكرية أنه أرسل جيشا الى ولايات الديكان الثائرة وأناب عنه فى قيادتها ابنه « إيلك خان » فأخضعها ثم إنه قاد بنفسه جيشا آخر الى البنغال حيث ظهرت فيها الاضطرابات فاختار حاكمها « بغراخان » أسلم الوسائل وذلك بتقديمه فروض الطاعة والعبودية ولكنه أسر أخاه « بهادر شاه » الذى كان حاكما على ولاية البنغال الشرقية وقاده ذليلا الى سجون دلهى ومات ابن تغلق سنة ١٣٢٥ حين عودته من الغزو اذ سقط عليه سقف بيت أثناء سيره ويقال أن ذلك كانت نتيجة لمؤامرة قام بها ابنه الأكبر وهو الذى ولى الحكم بعده وكان اسمه محمد بن تغلق ولقد كان من ملوك الهند الذين حازوا شهرة فى الحكم فى عهد القرون الوسطى ولقد كان المثل الأعلى فى إنسانيته بالنسبة لمعاصريه وكان على جانب عظيم من الثقافة والالمام بكثير من العلوم الفلسفية والرياضية والمنطق وكثير من اللغات الشرقية ومنها

العربية وكان كثير التفكير فى تنظيم الحكم على قواعد جديدة ومما طرأ على باله ايجاد عاصمة تتركز فيها سلطة الحكم كله وهى من الأساليب الحسنة إلا أن الأقدام عليها كان محفوفا بالخطر ويحتاج الى كثير من الحذر ولما شرع فى تطبيق نظامه الجديد لم يعمل حسابا كافيا لما جبلت عليه الشعوب وقتئذ وما ألفته من الأنظمة وقد كان من نقط الضعف فيه العجلة فى التنفيذ مما أثار عليه كثيرا من المتاعب والانقلابات وانه لشدة وثوقه بخططه وتفكيره كان لا يطيق أن يخالفه أحد أو يراجعه فى نظامه فكان ينزل بمخالفيه العقوبات القاسية مما أدى الى الثورات والقلاقل .

وقال ابن بطوطة فى تاريخ رحلته أن من أعظم ما كان ينقم على السلطان اجلاؤه لأهل دلهى عنها . وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويختمون ويكتبون عليها « وحق رأس خوند عالم (سلطان العالم) » ما يقرأها غيره ويرمونها بالمشور فاذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دلهى واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها الى دولت أباد فأبوا فنادى مناديه أن لا يبقى بها أحد بعد ، فانتقل معظمهم واختفى بعضهم فى الدور فأمر بالبحث عن من بقى بها فخرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وامتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثنى من أثق به قال « صعد السلطان ليلة الى سطح قصره ونظر الى دلهى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال ، الآن طاب قلبى وتهدن خاطرى ثم عاد وكتب الى أهل البلاد أن ينتقلوا الى دلهى ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دلهى لاتساعها وضخامتها وهى من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخلنا اليها خالية ليس بها إلا قليل عمارة .

هذه هى عبارة ابن خلدون ، والواقع أن السبب الذى دفعه الى بناء مدينة

أخرى هو أنه كان دائم التفكير فى الاصلاحات من جميع وجوهها وكان من بينها استبدال العاصمة دلهى بغيرها لتكون أكثر مناسبة بالنسبة لمركزها وكان من سوء الحظ أنه مع صواب فكره لم يفكر كثيرا فى سكان دلهى والضرر المالى الكبير الذى يلحقهم بسبب حملهم على الانتقال الى مدينة أخرى والمشاق العظيمة الجثمانيه التى سيكابدونها لبعد المسافة بين العاصمة القديمة والعاصمة الجديدة مما أدى الى مرض الكثيرين وموت عدد لا يستهان به من السكان أثناء الانتقال ثم فشل المشروع نهائيا واضطر للعدول عنها .

ومما زاد فى متاعب هذا السلطان على الرغم من حسن نواياه وطيب سجاياه أنه كان كثير البذل الى درجة التبذير حتى أن سمعته فى العطاء والكرم انتشرت فى كل الأقطار فهرعت اليه الوفود والشعراء وطلاب الاحسان من جميع البلدان وكانت يده لا تنقبض عن البذل حتى أنه كثيرا ما خصص الى أفراد ايراد مدينة بل مركز بأجمعه فينقلهم فجأة من العسر الى اليسر الزائد ودام الحال على هذا المنوال حتى أصبحت الخزائن العامة خاوية الوفاض بادية الانفاض وقضى بذلك على الكنوز والثروات العظيمة التى كانت متجمعة لديه وألف عيشة البذخ والاسراف الذى تجاوز كل حد فأصابه العسر والارتباك فصار كرمه مهلكا لأنه وان كان أغنى بعض الأفراد الا أنه أفقر فى جانبهم الملايين الكثيرة من السكان حيث اضطر الى رفع الضرائب على المزارعين ونظر الى تغذية شهواته الخاصة بالمال دون أن ينظر الى الأثر الذى يحدثه مثل هذا التصرف فكانت النتيجة أن السكان وقعوا تحت أعباء ضرائب فوق طاقتهم فصاروا يهجرون المزارع ويهيمون فى الغابات والاحواش بين الوحوش والحشرات وأجدبت الضياع النضرة وأصبحت الخضراء يابسة وضاقت سبل الرزق واختل نصاب الأمور وابتدأت بواعث الشر تبدو فى كثير من أنحاء هذه الامبراطورية الواسعة

وفشت المجاعات فى بعض الجهات بحال مخيف جعله يثوب الى رشده ويحسب للعواقب حسابا فبدأ بتوزيع الاعانات للمحتاجين والجائعين فى دلهى وغيرها واستمر على ذلك عدة شهور و بدأ يعالج حال الفلاحين بأن اختار لهم أحسن النظم للتسليف مما كان سيعود عليهم بأعظم الفائدة لو لم يتجرد المنفذون من الذمة والأمانة وأدخل نظاما جديدا من العملة ليستعين به على تفريج الأزمة ويبدو أنه اقتبس هذه الفكرة من بلاد فارس أو من كوبلاى خان امبراطور الصين غير أنه لم يجعل العملة ورقا بل طبعها نحاسا يشبه العملة الفضية ذات القيمة الكبيرة المسماة « تانكا » واصطلح على أن تكون بنفس قيمة الفضية ولذا سمى (بأمير النقود) .

ولقد أعطى نظام المعاملات كل اهتمامه من وسائل الاصلاح . وكان فى مقدمة القوانين التى أصدرها اعادة ضرب العملة على قواعد تجعل كل قطعة من نوع واحد متساوية الحجم كما أنه راعى نسبة قيمة العملة للقيمة المعدنية التى فيها وراعى الدقة فى نسبة الذهب الى الفضة وبالجملة فانه كان أكبر خصيص فى زمانه فيما يتعلق بمسائل العملة ونظام سكها .

غير أن هذا المشروع أيضا بما كان له من جليل الفائدة لم يؤد الى الغرض المقصود منه لأن نظام الضرب لم يكن وصل للدقة التى عليها فى وقتنا هذا وللأسف أن بعض الجشعين قلد كثيراً من هذه العملة مما زاد فى ارتباكه لأن بيوت الكثيرين من الهندوس تحولت سراً الى « ضرب خانات » وبذلك استطاعوا دفع ضرائبهم والقيام بتعهداتهم بالعملة المزيفة فزادت ثروتهم وانتهى الأمر بأن صارت خزينة الحكومة فى موضع يقرب من الافلاس وانتشر الذعر فى الأسواق واختل نظام المعاملات وقد كثر انتشار عملة التانكا النحاسية التى اصطلح على اعتبارها كالفضة وتكدست لدى السلطان حتى كانت من كثرتها

تبدو كالتلال وشوهدت مكدسة على هذا الشكل بعد مرور مئة عام فى عهد مبارك شاه الثانى وعلى العموم فان كثيراً من مشروعات هذا السلطان المثقف كان نصيبها الفشل مما جعله غير محبوب لدى رعاياه وكانت فى الأزمان السابقة عرى التضامن لدى الولاة وثيقة حيثوا كانوا تقريبا كلهم من جنس واحد (أتراك) أما فى عهد محمد بن تقلق فقد انقلبت الحالة وصار الولاة خليطا من المجازفين الأجانب كالأفغان والفرس والخرسانيين والمغول الذين كان يغدق عليهم السلطان الكثير من هداياه الثمينة وكان الولاة فى هذا العهد ينقصهم الولاء الذى كان يتحلى به من حكموا قبلهم ولم يتملصوا للسلطان بل تمردوا عليه وكانوا سببا فى تحطيم امبراطوريته الواسعة فانه ما كان ينتهى من اخضاع فتنة فى ولاية إلا وتشب فتن فى ولايات أخرى واستمر فى آخر أيامه يخضع الثورات المتعددة حتى أصيب بالحمى وهو على نهر الاندوس ومات على أثرها فى سنة ١٣٥١ ولم يترك ولدا يرثه ولكن رؤساء جيشه اختاروا فيروز شاه ابن عمه للعرش .

فيروز شاه

تولى الحكم وعمره خمسة وأربعون سنة وكانت أمه هندوسية وتولى عمه العظيم تربيته ومما يؤثر عنه أنه حين ولى الحكم استدعى من أساء اليهم عمه وعوضهم واسترضاهم عما وقع عليهم من الاساءات والمظالم واستكتبهم اقرارا بأنهم تجاوزوا عن ما وقع عليهم ونسوا وغفروا له ما أوقع عليهم من الأذى ولما تم توقيعهم على شهادة الاستغفار لمحمد بن تقلق فتح قبره ووضع هذه الصكوك عند جثته تقربا الى الله فى أن يغفر له ذنوبه وكان هذا العمل الجميل يدل على النفى والنبل والوفاء لعمه وكان فيروز على جانب عظيم من رقة الطبع ولين القلب ورحمته مما جعل جميع الهنود يتعلقون به وصارت أعوام حكمه عهد سعادة وسلام

وكان كسميه فيروز الخلجى يكره سفك الدماء والتعذيب وذلك من هول ما رآه فى الحكم السابق وجاء فى مذكراته عن نفسه أن الله الرحمن الرحيم علمه وأمره أن يتجنب أذى الناس وقتلهم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين وقد كان من صفاته بغض الحروب ولم يكن قائداً ولذلك رضى بأن تستقل ولاية الديكان تحت رئاسة حسن جنجو مؤسس الأسرة البهمانية التى استمرت فى الحكم مئة وثمانين عاما وتغيب فيروز عن عاصمة ملكه عامين ونصف حينما حاول استرداد البنغال وبعد أن قتل منه مئة وثمانين ألف نفس عصاه قلبه الطيب أن يهاجم حصون إكدالا التى التجأ اليها ملك البنغال وكان سبب عدوله عن المهاجمة بعد أن سنحت له الفرصة فى النجاح محض الرغبة فى حقن دماء المسلمين وفى غزوة أخرى توجه جيشه الى الهند ونفقت كل خيوله وقاسى أهوالا كثيرة وانقطعت أخباره مدة طويلة عن دلهى اذ أنه ضل الطريق ولكنه تجلد واحتمل كثيراً من الصعاب وتمكن من تجهيز جيش جدبد وعبر نهر الاندوس ونجح فى غزو السند وحاصر الجام (الأمير) حتى اضطر أن يسلم من الجوع فأسره وتوجه به الى دلهى وأحاطه بكل احترام ورعاية ثم أسند الملك لولده وكانت هذه أهم غزواته التى انتصر فيها وغاب عن عاصمة ملكه ثلاثين شهراً وكان يقوم بأعباء الحكم رجل هندوسى من أسرة عريقة فى مكانتها اعتنق الدين الاسلامى وسمى نفسه (مقبول خان) وكان فيروز يحبه كثيرا ويخاطبه بلقب (خان جيهان) أى سيد العالم وكان يعطى لكل ولد يولد له ألف جنيه سنويا كما أنه كان يهب لبناته وقت زواجهن هبات كبيرة ويمكنك أن تدرك مقدار البذل لقبول هذا اذا علمت أنه كان يقتنى ألفى جارية فى سرايه من بينهن الرومية والصينية والفارسية ولكن الوزير كان يستحق كل اكرام لأنه أحسن القيام بأعباء الحكم فى الأوقات المضطربة العصيبة خصوصا التى تغيب فيها فيروز شاه وانه وان كانت

حدود امبراطوريته انكمشت الا أنها صارت أكثر صلاحية من حيث الحكم ونتائجه ومما مهد لذلك ما اتبعه الشاه ووزيره من الرأفة فى معاملة الفلاحين حتى أن الديون التى سبق أن أقرضها محمد بن تغلق لرعيته أثناء عسرهم المالى أحضرت مستنداتها وصكوكها وأحرقت أمام الجماهير اعلانا للجميع بأن الفلاح قد حرر مما عليه من ديون للحكومة . ثم ان مقبول خان نصح لسيده بتخفيض الضرائب حتى صارت لا تتجاوز تعاليم الشريعة الاسلامية وكل محاولة دون ذلك كانت تقابل بأشد العقاب فدخلت الطمأنينة على قلوب الفلاحين وازدادوا يسرا وامتلأت بيوتهم بكل أنواع الأرزاق من حبوب وخيول ومفروشات وكثر لديهم الذهب والفضة وكانت كل امرأة لديها حلى ومصاغات حتى خيل أن حكومة دلهى ورعاياها خضت ببركة الله .

ومن صفات فيروز حبه للمبانى العظيمة وكثيراً ما شيد منها واتفق أن ولد له ولد سماه (فتح خان) فوضع أساس بلد بمناسبة ميلاده سماها (فتح أباد) (أى بلد الفتح) . ثم أنه حفر ترعا عديدة أوصل بها نهر الجمنا بنهر ستلج ولا زال منها القنال يغذى مدينة دلهى بالماء باقيا الى وقتنا هذا ومما رواه بعض المؤرخين أنه قام بأعمال عظيمة نافعة من أهمها الخزانات والقناطر والحمامات العامة والقلاع والمساجد والكليات والملاجىء والخانات لراحة المسافرين والحجاج ولقد كان من أثر القنالات والترع التى شقها أن استطاع كثير من سكان الهند الحصول على محصولين فى عام بدل من محصول واحد سابقا . وبلغ من عنايته بالشؤون العامة أنه أناط بطائفة من المهندسين مباشرة جسور الأنهار وتقويتها دفعا لخطرها فى مواسم الأمطار وهو الذى شجع غرس الحدائق فى الهند وغرس منها ألف ومئتين حديقة .

ومن حسناته أنه أوقف مساحات واسعة من الأراضى كانت غلتها تقدر

بثلث مليون من الجنيهات سنويا وخصصها للعلماء وللتعليم الديني كما أنه أوقف أرضا أخرى يبلغ ايرادها مليون جنيها سنويا وكانت تنفق على العجزة والفقراء ومن أقعدتهم الشيخوخة ، كما أنه أوقف مساحة واسعة عل طائفة من النبلاء مقابل قيامهم بحماية حدود الامبراطورية والقيام بادارة شؤون الحكم داخل ولاياتهم . وكانت من التقاليد المتبعة أن يزوره زعماء المقاطعات سنويا ويقدمون له الهدايا من ذهب وفضة وخيول وفيلة وجمال وسلاح وغير ذلك . وكان على كل واحد منهم أن يقدم من عشرة الى مئة من الرقيق وكان هؤلاء الأرقاء يتلقون التعليم على نفقة السلطان فتمرن بعضهم على وظائف الديوان والفريق الأكبر يتلقى التعليم والنظام العسكرى وبعض الفنون والحرف والصناعات وكان أربعون ألفا يؤدون وظيفة الحرس وكان عدد الأرقاء أو المماليك الذين يستخدمهم الملك لا يقل عادة عن مئة وثمانين ألفا ، ومما يروى عن فيروز أنه جلس على أيوان له يشرب الخمر وكان فى حالة لا تتفق مع مركزه ودخل عليه فجأة « تترخان » أحد قواده فبهت حين وجد سيده على هذه الحال وأنكر عليه فعله وكان ذا دالة على السلطان وأقسم له أنه لن يذوق الخمر ما دام فى الجيش ومع « تترخان » ، فحمد القائد ربه وذهب الى حال سبيله . وكثيرا ما كان السلطان فيروز يصغى الى نصائح رجال الدين وارشاداتهم ولذا لم يندفع وراء شهواته بالشكل الذى يخل بالكرامة أو الواجب وأجمع المؤرخون على أنه كان محبوبا من جميع رعاياه لأنه كثيرا ما عالج مساوىء الحكم ومنع السلب من طريق الجباية وخفف الضرائب وأدخل التحسين على وسائل الرى ووسع الأسواق وقام بأعمال كثيرة أفسحت فرص العمل للعمال . وكان يسلك مسلك الوالد لرعيته فيعين المحتاجين ويساعد العاطلين ويصرح لمن وصل الى سن الشيخوخة أن يترك عمله مع استمراره فى الانفاق عليه وأنشأ مستشفيات لمداواة

جميع المرضى من كل الطبقات والطوائف بما فيهم الأجانب ولم يكن قاسيا على الهندوس بل عاملهم بالرفق غير أنه منع عبادة الأصنام والصور علنا وفرض ضريبة على البراهمة وكان يحافظ على فرائض الدين الاسلامى ويحافظ على الصوم والصلاة ويقوم بالاحتفالات العامة فى الأعياد الدينية وزار كثيرا من المزارات كمسجد سلار مسعود وفى آخر أيام حياته ثارت عليه المتاعب الشديدة وذلك لفقده وزيره المحبوب وازداد حزنا حين فقد ولده فتح خان وهزه هذا المصاب هزة عنيفة وأسند الوزارة الى ابن وزيره السابق وسماه « خان جهان الثانى » أى سيد العالم الثانى فلما وقع الوزير الجديد تحت تأثير الوزير محمد ولى العهد رأى الملك أن يتنحى له عن العرش غير أن هذا الأمير لم يسلك مسلكا حسنا واندفع وراء الشهوات فأثار ذلك ثائرة المماليك فى دلهى فتقدم فيروز لاهباط الثورة واحباطها فلما وقع نظر الثوار عليه هدأ كل شىء وهرب ولى العهد فعين السلطان حفيده « تغلق شاه الثانى » ابن « فتح خان » وزادت بفيروز الشيخوخة والضعف فمات سنة ١٣٨٨ عن تسعين سنة ولم يحكم الهنود ملك تمتع بمحبتهم كفيروز فانه لم يسلك ملك مسلكه فى عدله وشفقته برعاياه وتقيده بفضائل الدين علاوة على ما أبداه من همة فى التجديد وتشييد فى الأعمال النافعة وقد جاء فى مذكراته القصيرة التى تركها وصفا للوسائل التى اتخذها فى مقاومة المروق عن الدين وكافة الأعمال الشريرة أنه بفضل الله تحاشى فعل الأذى واراقة الدماء وارتكاب المظالم وبعونه استطاع أن يبدى صفحته الطيبة من رفق ولين وعدل فى الأحكام .

عهد الانحلال

العائلات الاقليمية

كان حكم فيروز شاه الطويل السعيد من شأنه تهدئة الثورات التى كانت

عادة عند الهنود فى العهود السابقة وسبب هذا الهدوء فى عهده ما كسبه من حب رعاياه واحترامهم له فلما مات نشأ جيل جديد لم يكن يعرف الأحكام القاسية والمعاملات الخشنة الشديدة التى وقعت فى الأيام السابقة فى عهد علاء الدين ومحمد تقلق . ولم يعتادوا أيضا الخوف ولا الهيبة منهم . ومن الوسائل التى اتبعها فيروز أثناء حكمه السابق وجعل جل اعتماده عليها فى إعداد الجيوش اختيارهم من طائفة المماليك وكانت الأغلبية من الهندوس الذى غير كثير منهم دينهم ظاهراً ولكنهم كانوا يدينون بالولاء لفيروز لحسن معاملته لهم ، لكنهم لم يشعروا بنفس هذا الشعور لخلفه وهو حفيده « تقلق الثانى » إذ كان طائشا منهمكا فى الشهوات والخمور فتألب عليه الأمراء والمماليك وقتلوه قبل أن يتم خمسة شهور فى الحكم وتليه فى الحكم حفيد آخر اسمه أبو بكر ولكن نازعه فى العرش عمه محمد الذى سبق أن فر من ثورة المماليك فى حياة والده فاكتفى وقتها بحكم مقاطعة فى البنجاب وبعد عدة محاولات فشل فى بعضها عاد فنجح فى دخول دلهى سنة ١٣٩٠ وحكم لمدة أربعة أعوام كانت كلها اضطرابات حيث ثار ضده الهندوس ومات وخلفه فى الحكم ابنه همايون الذى لقب نفسه بالأسكندر ومات بعد أن حكم ستة أسابيع وجلس بعده على العرش أخوه محمود من سنة ١٣٩٤ الى سنة ١٤١٢ الا أن عرشه لم يكن ثابتا فكان يقيم أحيانا فى دلهى وأحيانا يضطر الى الفرار الى « كانوج » وكان ابن عمه نصرت شاه ابن فتح خان يناوئه وكان كلا الملكين ألعوبة فى أيدى الأمراء ذوى المطامع السياسية وهكذا وصلت مدينة دلهى الى حالة مضطربة ثم باغتها تيمور خان باثنين وعشرين (أورطة) كل (أورطة) منها تحوى ألف خيال وكان هذا الغازى ذائع الصيت فى كل أنحاء العالم للأعمال الحربية العظيمة التى قام بها حيث غزت جيوشه أواسط آسيا والعراق والعجم والأفغان وآسيا الصغرى وقبل أن يدخل الهند

عرض فكرته على مجلسه الحربى فوجد الكثير من أعضائه يحاول اقناعه بالعدول عن هذا المشروع لما يعترضه من الصعاب والأخطار اذ كان المفروض على جيش يقوم بهذه المأمورية الشاقة أن يعبر خمسة أنهر عظيمة ويخترق غابات كثيفة ويصادم محار بين ذوى مراس وجلد خصوصا فى الغابات وكذلك ملاقاة الأفيال المجهزة بأسلحة مسمومة ولكن الفريق الآخر أشار عليه بعدم التردد واستشهدوا بما سبق أن فعله محمود غرنوى (محطم الأصنام) بقوة تقل عن جيشه بكثير وأيدهم فى هذا الرأى أولاد تيمور ورجال الدين فاعتمد الفكرة الأخيرة وقد جاء فى مذكرات تيمور أن الباعث على غزو الهند هو (محض الرغبة فى محاربة الكفار ونشر الدين الحق طبقا لما جاءت به تعاليم محمد صلاة الله وسلامه عليه وعلى آله ولتطهير البلاد من رجس الكافرين ولتحطيم أصنامهم وهدم معابدهم ولكى نصير غزاة ومجاهدين وقادة لجيوش المؤمنين) .

وعلى ذلك تقدمت طلائع جيشه تحت قيادة حفيده بير محمد الذى اخترق كابل وقصد نهر الاندوس فى نهاية سنة ١٣٩٧ وحاصر مدينة ملتان . وفى أوائل سنة ١٣٩٨ سبقه تيمور واخترق الجبال ذات الثلوج المتراكمة والصخور الشديدة الانحدار وظل فى سيره بعد أن قطع غورا ووديانا وعبر نهر شيناب بعد أن وضع عليه الكبارى العائمة وأدرك حفيده بعد ما تم احتلال ملتان ثم سار شرقا وانتشر عن جيشه السير المخيفة اذ كان يسلب ويقتل كل من قابله من الأهالى ولذلك فر سكان (ديلابور) ولجأوا الى قلعة بهات نير فى راجبوت ليحتموا فيها فطوقها تيمور وذبح بها عشرة آلاف هندوسى فى ساعة واحده وكان كلما سار وقصد بلدا وجدها خاوية لفرار سكانها فانه قصد سيرسوتى وفتح أباد فلم يجد بها أحدا وهام الناس فى الاحراش والغابات . وفى أواخر سنة ١٣٩٨ وصل الى سهل بانيبات على بعد أربعين ميلا من دلهى ولكن لم يقف فى وجهه

رجل واحد فبعد أسبوع وقف أمام حصون دلهى وفى سبعة عشر ديسمبر سنة ١٣٩٨ عبر نهر الجمنا ووزع شعابا من الحديد على عسكره ليدافعوا بها الأفيال وكان تحت أسره مئة ألف هندوسى فرأى أنه ليس من الحزم تركهم أحياء وقت حدوث الموقعة فأمر بذبحهم جميعا . ثم هاجم مدينة دلهى فقابله للدفاع عنها السلطان محمود وقائده إقبال خان ومعهما عشرة آلاف خيال وأربعون ألف جندى (بيادة) ومئة وخمسة وعشرون فيلا وقد بذل الهنود شجاعة فائقة ولكنها لم تنفع أمام تيمور لمهارته فى القيادة وضخامة جيشه فى العدد . فلما رأى السلطان وقائده أن الدائرة دارت عليهم فروا بأفيالهم الى داخل المدينة ثم هربوا بعدها الى الجبال واعتصموا فيها فدخل تيمور المدينة وصلى ركعتين لله حمدا بجانب قبر فيروز فجاء اليه قادة الجيش المتهور وقدموا خضوعهم له واحتراما لرجاء العلماء قبل الفدية عن السكان وعافاهم من المذبحة والسلب كعادته ولكن للأسف لم تتحقق هذه الطريقة السلمية لنزاع وقع بين الذين يحصلون الفدية وبين دافعيها علاوة على أنه كان من الصعب كبح جماح جيش من التتار اعتاد فى كل وقائعه الاستحواذ على الغنائم والاسلاب ولذا وقعت المدينة تحت فوضى السلب والنهب واسترقاق السكان لمدة ثلاثة أيام وكان مما أعجب تيمور ضخامة البناء وحسن بهائه فأرسل كثيرا من الصناع وأرباب الحرف والفنون من سكان دلهى ليذهبوا الى سمرقند لينتفع بمواهبهم هناك وكان مما استحوذ عليه تيمور كل ما فى البلد من أحجار ثمينة وذهب وفضة وحرائر ولم يعف من سكان دلهى الا القسم الذى كانت تقيم به عائلات الأشراف (أقارب النبى) والعلماء ، ومما قال تيمور أنه قال أن لا تمس دلهى بسوء ولكن ارادة الله قضت أن يقع الشقاء على البلد وبعد اقامة تيمور فى دلهى نصف شهر خرج ليتم الغزو الذى كان يعتبره فى سبيل الله وهاجم عدة مدن منها ميراث وفيروز أباد وأساء معاملة أهلها وذبح كثيرا من

الرجال والنساء والأطفال وكان مما خفف ويلات الهند من غزوته أن نفسه تاقت للرجوع الى سمرقند ولو لم يكن ذلك لاحتياج الهند بأكملها وتضاعف ضرر غزوه وعلى العموم فان وادى الأندوس والجنجيز واقليم البنجاب وهى المناطق التى حارب فيها وقعت فيها المجاعات الشديدة والخراب التام . ولم يبرحها الا بعد أن قتل الآلاف من (الكفار) واستحوذ على كل ثمين فيها وبذلك رأى أنه أدى الفرض الدينى والفرض الدينوى من الغزوة ولما ترك غضب الله (كما كان يسمى تيمور) بلاد الهند ابتدأ الهنود يظهرون من مخابئهم كما لو كانوا أرانبا أمنوا من الصياد

والذى يتبع سيرة تيمورخان وسيرة ما كان يذكره من الغيرة على الدين الاسلامى والبغض للكافرين تتملكه الحيرة والدهشة إذ أن الملمين بتاريخه يعرفون أن أكثر البلاد التى أثار عليها حربا وسعى فيها فسادا وتخريبا بلاد معظمها اسلامية أو تحت حكم المسلمين فآسيا الصغرى والشام والعراق والعجم والأفغان وبعض الولايات الهندية كانت اسلامية دينا وحكما ولم تنكب هذه البلاد نكبة فظيعة كادت تقضى على كل ما هو اسلامى الا فى عهد تيمور المتبجح بالغيرة على الاسلام وليس بعجيب أن يظن الكثير أن تيمور كان كافرا فان ما ارتكبه ضد الانسانية يخرجه عن كل دين

نعود الى الهند فنجد أن اقبال خان فرض حكمه على دلهى ومنع السلطان محمود أن يعود اليها فأقام له حكومة فى كانوج . ولما مات اقبال خان فى موقعة بينه وبين خضر خان الوالى لملتان من قبل السلطان محمود عاد السلطان الى عاصمة ملكه وقد ضاقت مساحته كثيرا عن ذى قبل بسبب قيام ثورات من الهندوس انفصل بسببها بعض الأقاليم ومات السلطان التعس فى سنة ١٤١٢ بعد نضال مستمر مع أتباعه السابقين وفى خلال سنتين استطاع نائبه خضر خان (أى فى

سنة ١٤١٤) أن يحكم فى دلهى كوكيل لتيمور فانه أراد بذلك أن يأمن جانب الأمراء الذين كان يحتمل أن ينازعوه . وبذلك استطاع أن يؤسس عائلة الاشراف (السيد) . وقد تربع منهم فى الحكم أربعة كانت مدتهم لا ينقطع فيها القتال أو الثورات وكان نفوذهم ضئيلا لم يعد منطقة ضيقة المساحة حول دلهي . ولم يكن فى مقدورهم جباية الضرائب لضعف سلطتهم فكانوا يلجأون الى الحيلة وتفككت الامبراطورية العظيمة وصارت أجزاء البعض يحكم فيه الهندوس والبعض يحكم فيه المسلمون وكلهم يعملون ضد بعضهم مما جعل هذا العهد من الحكم كقطع الليل الأسود اذ كان يسود فيه النزاع والخصام والدسائس وتفرقت الكلمة وتضعضع نفوذ المسلمين وعلت سلطة الهندوس حتى خيف على الحكم الاسلامى أن يستهدف للزوال واختفى ما كان للغزاة السابقين من سطوة وهيبة فى قلوب الهندوسى وانتقل الحكم من عائلة الأشراف بعد أن قتل مبارك شاه بواسطة وزيره مما مهد السبيل الى عائلة « لودى الافغانية » وعلى رأسها السلطان بهلول الذى غزا دلهى سنة ١٤٥١ وقد أعاد حكم هذه العائلة شيئا من رونق الحكم السابق وسطوته ورد لدلهى شيئا من رونقها وعظمتها وكانت وقتها باقى بلاد الهند منقسمة لولايات صغيرة لم يكن لها تاريخ جدير بالذكر اللهم الا فى شدة انحطاطها فى ذلك الحين .

وقبل أن يصير بهلول ملكا كان تاجر خيل واتفق أن باع عددا كبيرا منها الى أحد ملوك دلهى السابقين فأعطاه التزاما (جاجيرا) (مساحة من الارض تحوى قرى) ليستوفى من ضرائبها ثمن الخيل فكان سببا فى اتساع ثروته واتفق له أن مر على أحد الدراويش (طائفة من فقراء وصلحاء المسلمين يعتقد بعض الناس فيهم) صحبة صديقين له فابتدرهم الدرويش من منكم يشترى منى عرش دلهى بألفى تانكا (عملة فضية) فما كان من مالك بهلول الا أن أخرج

الف وثلثمائة تانـكا وهى كل ما كان معه ووضعها أمام الدرويش وقال له « هذا كل ما أملك » فقبل الدرويش العطاء وقال له « أرجو أن تسعد أمبراطورية دلهى فى عهد حكمك » فسخر من ذلك صديقاه ورمياه بالتخريف فقال لهما بهلول « لئن تحقق وعد الدرويش فانى أكون قد ربحت صفقة طيبة واذا لم يتحقق فانما يكون المبلغ الذى دفعته صدقة لا أحرم أجرها عند الله »

وكانت مكانة بهلول ترتفع شيئا فشيئا الى أن بدأ يطمح فى الملك وكان يخشى من حامد خان منافسه . وفى يوم من الأيام دعا حامد كثيرا من الأشراف الى وليمة ومن بينهم بهلول (لم يكن ملـكا وقتها) وكان من عادته أن يستصحب معه حاشيته من الأفغان لحراسته كلما انتقل ففـكر أن يباغت حامدا بهم ولـكى لا يثير شكوكه ومخاوفه أفهمهم أن يتصنعوا فى مظهرهم ما يدل على البلاهة والبساطة فعلق بعضهم أحذيتهم فى رقابهم وظهروا بمظاهر غير العقلاء فدهش حامد لذلك وحينما أدخل الشرفاء الى المحل المعد للوليمة دخل الافغان صاخبين محتجين على منعهم وسألوا حامدا لماذا يمنعون ويدخل سيدهم مع أن حامدا سيد الجميع فابتسم حامد وخدع بظاهر بساطتهم وأمر أن لا يتعرض لهم أحد ولما دخلوا الحجرة وجدوا أبسطة ذات ألوان حمراء فرجوا حامد أن يقسمها بينهم ليستعملوها بطاطين وليرسلوا قطعا منها لمواطنيهم كتذكار فازداد بهم سرورا وقال « انى سأعطيكم هدايا أحسن منها بكثير » واستمروا فى خدائعهم الى أن ارتاح اليهم كل الارتياح . وفى الوقت الذى خرج فيه المدعوون من الوليمة يصحبهم الكثير من رجال حامد خان تخلف الأفغان اتماما لمكيدتهم فقام « قطب لودى » أحد أفراد عائلة بهلول وكان معهم وأخرج سلسلة من المعدن ووضعها فى رقبة حامد وقال له : « خير لك أن تتنحى عن الخدمة العامة وبما أننى أكلت معك ملحا فلن أتعرض لك بأذى وقبض عليه وسلمه الى حاشية بهلول فصارت الفرصة سانحة لتسلم العرش فانتهزها بهلول لودى .

بهلول لودى خان

١٤٥١ — ١٤٨٨

كان حكمه موفقا سعيداً ، وأجمع المؤرخون على امتداح خصاله حيث راعى العدل فى أحكامه وعامل حاشيته كما لو كانوا من زملائه لا من رعاياه ، وكان يتجنب الجلوس على كرسى العرش لتواضعه وكان يكن التظاهر بالعظمة ويحب مجالسة العلماء ويكثر من منحهم الهبات والعطايا . وجعل اعتماده فى الحروب على جيش من المغول يبلغ عدده عشرين ألف وكانوا موضع عنايته وحبه ، ومما يؤثر عنه شدة رعايته لادارة الأحكام وصرف أيام حكمه فى حروب كثيرة مع مملكة « جاونبور » أى المملكة الشرقية وكان الحد الفاصل تقريباً بين مملكة دلهى وجانبور هو نهر الجانجيز .

وكان من صفات بهلول العناية بالشئون الدينية والشجاعة والكرم وشدة الاهتمام بتنفيذ القوانين ، واعتاد أن يصرف وقته مع الرجال العقلاء ورؤساء الدين مع كثرة الاستفهام عن الفقراء والمحتاجين ليمدهم باعاناته ومساعداته،وكان لايرد سائلا ، ويصلى دائما مع الجماهير ،وصرف كل ما آل اليه من مال على الجند والفقراء واعتاد أن لا يدخر شيئاً ، وكان يجلس مع رعاياه كأحدهم ولوحظ فى مكاتباته شدة احترامه لمن يكاتب من الأشراف وكان يوجه لهم الاصطلاح المعروف (مسند على) (وهى عبارة احترام بالفارسية) واذا عرف أن أحد أعوانه انحرف عنه ذهب اليه وأظهر أقصى درجات التواضع من جانبه حتى يعيد القلوب النافرة منه الى محبته . وكان يواسى الكثير من المرضى ولم يهزم طول حياته فى موقعة من مواقعه الحربية ولما مات تولى بعده ابنه .

السلطان اسكندر لودى

وكان اسمه سابقا نظام خان وقد جاء فى تاريخ الداودى أن السلطان أسكندر فكر فى ذبح الهندوس الذين يكثر تجمع الآلاف الكثيرة منهم فى مولد تانيسوار فنصح له أحد حاشيته قبل الاقدام على ذلك أن يشاور العلماء فلما اخذ رأيهم نهوه عن ذلك فانتهى وجاء أيضا أنه كان متعلماً وذا أخلاق هادئة ميالا للاحسان والسخاء ويكره التجبر والكبرياء وينفر من تقريب كل واحد منه لم يشتهر بحسن السيرة ولم يكن يجالس إلا العلماء والفضلاء ويخشى الله كثيراً وكان كبير الاهتمام بتطبيق العدالة ويعمل كل ما يعود على رعيته بالسعادة والخير ويقطع طول الليل فى إدارة شؤون ملكه وينام فى منتصف النهار قليلا . وشيد عدة جوامع ومنع إقامة الموالد منعاً باتا لما كان ينتشر من الفساد باقامتها وكذلك حرم على النساء زيارة المقابر والاقامة حولها . وقبل أن يموت اسكندر نجح فى إعادة الولايات التى كانت قد فقدتها حكومة دلهى وأعاد اليها مجدها القديم ولكن مما يلاحظ أن عائلة لودى عهدت فى حكم الولايات الكثيرة الى ضباط من الأفغان والى بعض الأمراء من عائلة لودى والعنصر الأفغانى يتوق دائما الى الحرية الفردية والاستقلال ومن صفاته أنه يخضع للقوة أكثر من القانون ولذلك أدى الأمر الى أن يسود فى هذه الامبراطورية حكم الأفراد أكثر من حكم القانون العام ، بل كاد كل فرد من الولاة أن يكون مستقلا بولاياته وكانت شدة تواضع اسكندر هى السبب الأساسى الذى أبقى على رابطة هؤلاء الولاة وانقيادهم الى ملكهم ، إلا أنه مات سنة ١٥١٧

ابراهيم لودي

ولى الحكم سنة ١٥١٧ وكانت أخلاقه مغايرة لأخلاق أبيه بالمرة وقد جاء في تاريخ الداوودى أن حاجات المعيشة فى أيامه كانت رخيصة ووافرة وكانت الغلال والثياب وأشياء اخرى متنوعة قد بلغت مستوى رخيصا لم يحصل أن بلغته فى عهد من العهود قبل حكمه إلا اذا استثنى عهد السلطان «علاء الدين الخلجى» ومع ذلك ففى عهد علاء الدين كان السعر مخفضا لا بطبيعته بل بسلطة القانون والادارة أما سبب رخص الأشياء فى عهد ابراهيم فيرجع الى أسباب طبيعية فان الأمطار فى الهند تصادف أن انتظم نزولها بالمقادير التى يصلح بها الزرع كثيرا فكان عهداً مباركا للفلاحين غير أن هذه البركة فى الأرزاق لم تقترن معها أحكام مباركة ، بل كانت أيام ابراهيم مصحوبة بالقلاقل المستمرة وصدور الاحكام القاسية وكان سوء ظن ابراهيم لودى فى كثير من ولاته وحاشيته سببا فى هلاك كثير منهم فقد قتل عددا لا يستهان به خصوصا من أقاربه وكان للملك أخ اسمه جلال خان يحكم فى ولاية اسمها جادينور ووقع بينهما الخصام واستفحل أمر جلال حتى احتل مدينة أجرا (عليكرة) — ولكن حاكمها مالك أدم خان أصلح بينه وبين أخيه وأقنعه بالرجوع عن خطته ووعده بأن يضيف اليه مقاطعة صغيرة بجانبه ولكن الملك رفض شروط الصلح وحرض عليه قبيلة الجوند فأوقعته فى شراكها وسلمته للسلطان ابراهيم فأعدمه فى الحال وكان الملك قد حنق أيضا على وزيره ميان بهوا فاتفق على أن يدبر له مؤامرة فظيعة فأمر باعداد بناء جديد واوجد تحته سردابا فى الأرض وملأه بأكياس من البارود ثم لما أتم كل هذا أظهر رضاءه عن ميان ودعاه اليه وأحاطه بكل أنواع الاحترام والتكريم ثم أوعز اليه أن يصطحب معه فريقا من الاشراف (ممن يضمر لهم الملك الكراهية) وأن يتوجهوا الى البناء الجديد وينفردوا بالنظر

فى أمر اسلام خان وهو أحد قواده الذين شقوا عليه عصا الطاعة وقال لهم أن يعالجوا مسئلة اسلام خان العاصى بما يتراءى لهم و بعد أن يجمعوا على رأى يتقدموا به لينفذه ونظرا لما أظهره نحوهم من الاحترام توجهوا جميعا دون أن يتطرق اليهم الشك وجلسوا فى البناء الجديد للتداول فيما أنيط بهم وأشعل البارود عقب دخولهم وانفجر البناء وأطار المكان ومن فيه فى الهواء ولم يسلم أحد منهم بل طارت أجسامهم قطعاً وأشلاء وكان أكبر مستشار مؤتمن لابراهيم شاه وزيره أعظم همايون ولكنه قتل بمجرد الشك فيه اذ وضع فى السجن وأسقوه كأس سم فقضى عليه ولا زال السلطان ابراهيم يشك فى حاشيته حتى استأصل شأفة معظمهم ثم تحول الى الولاة فبدأ يعيدهم واحداً واحداً وكان من أكبر ولاته دولت لودى خان حاكم البنجاب فاستدعاه الملك فتخلف وأرسل ولده ديلاور خان بدلا عنه فلما سئل عن تخلف والده قال أن ذلك يرجع لانهماكه فى إعداد هدايا عظيمة عزم على التشرف بتقديمها فأمر الملك بأخذ دلاور الى حجر السجون فوجد بعض الأعيان وقد علقت أجسامهم حيث كانت أرجلهم من الأعلى ورؤوسهم نحو الأرض فاستولى عليه الرعب وتحايل حتى هرب وذهب لوالده وحذره من الملك وقال له أنه اذا لم يتخذ الحيطة فسيكون مآله الهلاك فما كان من أبيه الا أن أوفده الى بابر شاه حاكم أفغان وما وراء النهر ليحضر للهند و ينقذها من المذابح و يتولى حكمها .

حكم المغول

بالشاه بابر يبدأ حكم المغول المشهور فى الهند ولكن قبل التعرض لذكره يحسن أن نشير الى حال الولايات الجنوبية كالديكان ففى عهد الملك فيروز الذى



الملك بابر وهمايون وأكبر وجهانجير

كان يبغض سفك الدماء وخصوصا دماء المسلمين رأى أحد المجازفين حسن جنجو يطمع فى الاستئثار بحكم الديكان وكان ذلك سنة ١٣٥٣ فتغاضى الملك وبذلك بدأ حكم العائلة البهمانية فى الديكان واستمر يتداوله أفراد منها لمدة مائة وثمانين سنة ويبدو أن حكمهم كان قويا الى درجة جعلت جيرانهم يهابونهم هيبة كبيرة. ولقد حاول ملوك دلهى أن يتوسعوا فى الجنوب حول الديكان فلم يصيبوا نجاحا يذكر وكانت مملكة الكارنتك الهندوسية تقف فى وجه دلهى ولا تمكنها من غرضها، فلما حكم ملوك البهمانية المسلمون تغير الحال واضطروا هذه المملكة الهندوسية الى دفع الجزية لهم بل والرضوخ الى أحكامهم ولكن فى سنة ١٣٦٦ خرج الراجا الهندوسى يقود ثلاثين الف خيال ومائة الف جندى من المشاة وثلاثه آلاف فيل وقصد قلعة مكدال لاغتصابها من المسلمين فنجح فى خطته وذبح كل مسلم بها وكان حسن جنجو يعسكر على نهر هنك، فلما علم أقسم أنه لن يأكل أو يذوق النوم حتى ينتقم للمسلمين من الراجا فاقتفى أثره فهرب تاركا وراءه سبعين الفا فقتلهم محمد بن حسن جنجو ولم يكن لدى أمراء البهمانية مستودع رحمة فكثيرا ما كانوا يفتكون بالمجاورين لهم من الهندوس وكان من عادة البهمانية أنه كلما بلغ عدد القتلى من الكفار عشرين الفا أقاموا لذلك عيدا واحتفلوا بهذه المناسبة ومما قام به محمد بن حسن البهمانى أنه قصد الى عاصمة الكارنتك وقتل نحو نصف مليون من الأنفس ومن الوقائع التى أثارها البهمانية موقعة قصد فيها الملك مجاهد ابن محمد سنة ١٣٧٨ لامتلاك «بنكابور» فاضطر الراجا الى الفرار من مكان الى مكان وعاد مجاهد بأسرى يبلغ عددهم ستين ألفا ولكن أثناء رجوعه تربص له عمه داود وقتله طمعا فى العرش ولكن هذه الحادثة لم تؤثر على مركز مسلمى الجنوب لاعتيادهم التضامن أمام الهندوس ويكونون كتلة واحدة، وكان شر مالقيته الهندوس فى عهد الملك فيروز بن داود وذلك حينما عاود الهندوس الكرة لامتلاك مكدال

ففيها قام أحد القضاة مع بعض أصدقائه ومثل شكل البنات اللائى يرقصن فى معسكر العدو واندس بينهم ومعه بعض أعوانه واستعمل الحيلة الى أن جاء أمام ابن الملك ورقص رقصة السيف المألوفة لديهم ثم أخرج ومن معه خلسة خناجرهم وغمسوها فى صدره فاضطرب المعسكر الهندوسى وظن أن كمينا يحيط به فأدت هذه الحادثة الى هروب الراجا وجيشه وانهزموا بذلك هزيمة فظيعة ولم يعتمد فيروز بن داود بالصلح معهم إلا بعد أن تعهدوا بدفع جزية قدرها أربعمائة الف من الجنيهات سنويا ولكن فى سنة ١٤٠٦ امتنعوا عن دفع الجزية السنوية فغزا فيروز مملكة الكارنتك وكان من بين الأسباب التى عجلت بهذه الغزوة أن الراجا افتتن بفتاة فى مكدال فقصدها للاستحواذ عليها فعلم أنها فرت وعلم أيضا أن جيش المسلمين يقتفى أثره وأن فيروز احتل بنكاپور التى عجز أسلافه عن احتلالها ولم يعد الى بلاده قبل أن يكبد الراجا خسارة بلغت ستين ألف نفس وأرغم الراجا أيضا أن يسلم احدى بناته لتصبح ضمن حرم فيروز وكانت هذه معاملة نهاية فى الهوان لملك هندوسى كبير ولا زالت تقع الحروب بين الهندوس وأسرة البهمانية ففي سنة ١٤١٩ وسنة ١٤٢٣ وسنة ١٤٣٥ وسنة ١٤٤٣ وقعت عدة حروب ما زال النصر فيها للبهمانية وكانت كلها مقرونة بالمذابح وهدم معابد البراهمة ومبانيهم الشهيرة وكانت تنتهى بتقديم فروض الطاعة من الهندوس لخصومهم واستمر النصر فى جانب البهمانية الى أن انقسموا على بعضهم وتجزأت مملكتهم الى أربعة ممالك صغيرة فأذهب ذلك من هيبتهم ومن بأسهم فكأنهم كانوا على ميعاد مع المسلمين فى الشمال اذ ظهر التضعضع والتقهقر فى هندوستان والهند الجنوبية وبهذا تمهد السبيل الى حكم المغول غير أنه لا بد قبل التعرض له من اثبات حادثة تشير الى وجود ارتباط بين الهنود ومصر وان ذكرها يعود بالفائدة اذ يعرف

المصريون والعرب قاطبة مزايا تضامن الشعوب الاسلامية أولا ، وثانيا يقفون على آية من آيات الهمم لمملوك مصرى استطاع أن يوجد لمصر قوة بحرية ذات صولة كان يحسب لهـا حساب كبير عند الأمم الأوربية ففى أواخر القرن الخامس عشر كانت تجارة مصر واسـعة النطاق مع الهند وكانت مصر منفذا للبضائع التى يصدرها الهنود الى أوربا . ومن أجل ذلك حرصت مصر على أن يكون لها أسطول تجارى وآخر حربى لصيانة التجارة من القرصـان والخصوم المنافسين كالبرتغال ، وكانت هذه الدولة البحرية قد ابتدأت هى وغيرها كجمهورية البندقية بالاعتـداء على المراكب المصرية فشـكا قنصوه الغورى حاكم مصر وقتئذ الى البابا ثم أحتج اليه فلم تفد الشكوى ولم ينفع الاحتجاج وكانت حكومة جوجيرات الهندية بدأت تشكو من سوء معاملة البرتغال واعتدائهم على سواحلها ومتاجرها فرأى قنصوه الغورى أن الحال تدعو لتأديب البرتغال فأعلم بهادر خان باستعداده لمساعدته ضد الخصم الأوربى وأوفد أسطولا حربيا تحت قيادة الأميرال حسين فوصل سواحل الهند وانضم الى الأسطول الهندى رغم ما حاوله البرتغال من الحيلولة دون ذلك والتحمت المراكب المصرية مع أسطول البرتغال تحت قيادة لورنسو الميدا وحوصرت مركب القيادة البرتغالية وقتل قائدها وغرقت بمن فيها وتشتت أسطول العدو بعد ما لحقته خسائر شديدة وكان ذلك فى سنة ١٥٠٨

وهذه الذكرى تجعل كل من يعرفها يدرك أن ما يتمشدق به الجيل الحاضر من ذكر النهضة والنهوض لهو حصة واهية مما يجب أن يقوم به أبناء الوطن فى سبيل رفعته وإن عهد كعهد ابراهيم أو الظاهر بيبرس إذا قيس بهذا العهد الحاضر لبدا لنا أن مصر لم تزل بعيدة عن الطريق الصحيح بل ما زالت سائرة على غير هدى وهيهات أن يتحقق لها . أمل أو يتم لها عمل خصوصاً إذا كان جسيما ما لم تبرزه ارادات الجبابرة الذين يألفون الشدائد ويخوضون غمارها ويملـكون نفوسهم

بضبط شهواتهم والزهد فى الترف حتى تتركز الحياة القومية على أسس صالحة وحتى تقوم طائفة منا تنهض بكل القوى العاملة وأن تكون أعمالنا لأنفسنا دون أعمالنا لوطننا وأن تقدم مصالح الجماعات على مصالح الأفراد وأن يكون العمل خالصا لله وللوطن وأن تتجرد النفوس عن الهوى .

ذكرنا هذه العبارة المختصرة التى جاء ذكرها بسبب ما قام به الأسطول المصرى ولما كان الموضوع الذى نحن بصدده هو تاريخ الهند الاسلامى وجب أن نعود الي ما كنا فيه ونبدأ بشرح تاريخ المغول

تاريخ المغول

قد ينشأ الانسان ضعيفا و يبقى ضعيفا أو ضعيفا ثم يقوى أو قويا ثم يضعف وحالة رجال الحكم فى الهند لا تعدو احدى هذه الحالات فلما جاء الغزو التركى والأفغانى من الشمال ظهر قويا وازداد قوة واتسع نفوذا وكثر أعوانا وازداد مالا ورجالا وانتشرت سطوته وعلت كلمته وكان القائمون بالأمر من طائفة يحرصون على الموت فى سبيل مجدهم و يقدمون عليه فى ظهور عصبتهم فلما وصلوا الى ذروة العلا وكثرت أموالهم جنحوا الى الراحة ثم الى النعيم وانغمسوا فى الشهوات فبعد أن كانوا أفلحوا فى غزو أنفسهم فغزوا العالم عاد شيطان النفس وسلطان الهوى فغزاهم فنال من أخلاقهم وقوتهم وتحللوا وتفرقوا ودب بينهم دبيب النزاع وانقسموا شيعا فانتهت أيام عزهم ونكست رايات مجدهم وظهرت لهم خصوم كانوا فى الخفاء فأبرزتهم الظروف ومهد لهم ضعف القائمين بالأمر أن يرثوا عروشهم و برز نجم جديد فى التاريخ الاسلامى الهندى على يد بابر شاه أول حاكم مغولى أقام بالهند .

حكم بابر شاه

دخل بابر شاه الهند فى سنة ١٥٢٥ وكان ذلك بناء على ترغيب دولت خان أحد ولاة السلطان ابراهيم لودى والذى كان يخشى أن يفتك به السلطان كما فعل بالكثيرين غيره وأرسل بابر شاه جيشا تحت قيادة ابنه همايون ومساعدة قائد من أخلص القواد اسمه خوجه قالان ولكن دولت خان نكث العهد الذى قطعه على نفسه الى بابر شاه وانقلب على عقبيه وعارض جيش همايون وكان دولت عاهد نفسه أن يفوز أو يموت فلما انكشفت حقيقته أسرع بابر فى نجدة ابنه وحضر له على رأس جيش صغير ولكن بمجرد وصوله ذاب جيش الهند وتشتت وحداته فاستمر بابر شاه فى تقدمه الى أن وصل سنة ١٥٢٦ الى سهل بينات الذى فيه كسب ثلاثة أفراد عرش دلهى على أثر مواقع قاموا بها وكان ثالثهم بابر الذى مكث عدة أيام فى تجهيز جيشه وإعداده للمعركة الفاصلة أمام قوات دلهى فخرج السلطان ابراهيم لودى بمئة ألف مقاتل ومئة فيل ولكن كثرة الجنود لا يستغنى بها أحيانا عن حسن القيادة فان بابر استطاع سرا أن يضع قوة فى مؤخرة جيش ابراهيم أزاء جناحى الجيش ولما اندفع جيش الهند فى الهجوم بوغت من الخلف بحركة التفاف وبالمدفعية من الأمام فدخل الفشل صفوفه وتفرق الجند هاربين ومما ساعد بابر على الانتصار أنه استصحب معه قطعا من المدفعية الحديثة وقتئذ وكان يديرها اثنان من مهرة الأتراك وهما أستاذ على مدير المدفعية ومعاونه مصطفى الطبجى وفى منتصف النهار سقط السلطان ابراهيم وسقط من جيشه خمسة عشر ألف جندى قتلى وقطعت رأس السلطان وتقهقر جيشه وجلب كثير من الأسرى والغنائم أمام بابر شاه وكذلك بعض الأفيال ودخلت فصيلتان من الغزاة الى مدينة دلهى ونادوا ببابر شاه امبراطورا على الهند فى ٢٧ ابريل سنة ١٦٢٥ وخطب باسمه فى المساجد ولقب بالمغول العظيم

واستحوذ فى دلهى وأجرا على كنوز الملك السابق وكانت كثيرة فوزع جزءا
كبيراً منها على ضباطه حيث خص الواحد منهم ألف وسبعمئة دينار ومن الطبقة



بابر شاه

العليا ألفين وثمانمئة جنيه علاوة على عشرين ألف أعطاها مكافأة الى ابنه همايون
لما أظهره من الشجاعة النادرة وأعطى كل جنوده بسخاء وبالغ فى ذلك حتى شمل
طبقات العمال والتجار الذين يلازمون الجيش عادة كما أنه أرسل لـكل رجل

ولكل امرأة ولكل عبد ولكل حرة فى كابل قطعة من الفضة هدية من الأمبراطور الجديد الى رعاياه فى كابل كتذكار للمناسبة السارة . ولما جاءه همايون وقدم له الجوهرة المشهورة فى تاج دلهى وهى كوهى النور (جبل النور) فردها له متجاوزا عنها وهى أثمن جواهر العالم وقدر ثمنها أحد الخبراء الفرنسيين بثمانمئة وثمانين ألفا من الجنيهات وقد انتقلت هذه الجوهرة الثمينة من مملكة الى مملكة ومن الشرق الى الغرب ومن تاج ملك الى آخر فكانت فى تاج راجا جواليار ثم توارثها ملوك المغول فى الهند ثم نادر شاه العجم وأخيراً ملك الانجليز وأمبراطور الهند الحالى . انتقلت هذه الجوهرة الى كل هؤلاء ولا يدرى إلا الله ماذا يكون مآلها فى المستقبل . نترك سيرة الجوهرة لنرجع الى بابر شاه الذى أعطى كل من حوله الجزء الأكبر من جواهر الهند التى استولى عليها بعد مواقعه الحربية ولم يكن هذا التصرف عن سخاء فقط بل لأنه يعرف أخلاق الأفغان جيدا وكان يعلم أنهم فرحوا للغزو لينتصروا ثم ليحصلوا على غنائم لأنفسهم ثم يعودون لأوطانهم كما فعل تيمور وجنوده ولأنهم كانوا يفضلون نسيم ربى أفغان نستان العليل عن جو الهند المحترق فى فصل الصيف ولكن هذه العودة الى الوطن الأصلى لم يكن قد جاء وقتها المناسب فانه وإن كانت دلهى سقطت ونودى ببابر أمبراطورا إلا أن هندستان لم تأت تحت لوائه بل بعض أجزاء منها وكان لا زال بعض أفراد عائلة لودى يحكمون عدة أقاليم وراجبوتانا كانت تحت حكم الراجا (سانجا) الهندوسى وكان هو وغيره من الحكام يضمرون للغازى الجديد العداء ويتخذون الحيطة منه فاذا سافر بابر تحت ضغط جيشه كان ذلك يؤدى حتما الى انهيار مشروعاته السياسية فى الهند والقضاء عليها وكان جيشه وصل تقريبا الى درجة التمرد وكاد يقفل راجعا ولكن صفات بابر وشخصيته القوية حالت دون انتشار روح التمرد إذ أنه بمجرد أن لاحظ علامات الخروج عليه

جمع ضباطه وقام بينهم خطيباً وذكرهم بالمتاعب التى تجشموها والفيافى والقفار التى اجتازوها والجبال التى تسلقوها والضحايا التى قدموها والدماء التى اراقوها وذلك كله فى سبيل تحقيق الغرض العظيم وهو احتلال بلاد الهند وقهر الخصم القوى وأبان لهم أن بعد ذلك يكون جنونا وخوراً التفكير فى ترك هذه الثمرة الكبرى بعد الفوز بها ثم ناشد ضباطه قائلا : « الآن وجب على كل من يحبنى ويخلص لى أن لا يذكر هذه الفكرة . فكرة الرجوع الى الأوطان فانما يكون مثلنا كمثل الذى عاد منهزما ولكن اذا وجد بينكم من تسول له نفسه الرجوع فليذهب من الآن فلم يخرج أحد على رأيه بل وصل بحسن تصرفه الى تبديد روح التمرد ورد الجيش الى الطاعة واستطاع أن يقيم بين الهنود الكارهين له وعلى رأس الجيش المتذمر من البقاء وكان نجاحه ثمرة ثباته ورباطة جأشه وحزمه ولم يلبث أن تغير الحال بسبب بقائه فى الهند فقد بدأ خصومه ينضمون اليه وبعد أن انتهى مع الحكام المسلمين بعضهم حربا والبعض سلما أخذ يحول وجهته الى قهر خصمه الأكبر الراجا « سانجا » كبير أمراء راجبوتانا الذى واجه جيش بابر بثمانين ألف مقاتل على رأسهم مئة وعشرون أميرا هندوسيا وخمسمئة فيل ودقت طبول الراجا وقام راحلا الى « بيانا » فأرسل الأمبراطور قوة على وجه السرعة لتعرقل الهندوس من احتلال القلعة الى أن يصل بجيشه الكبير وكان مقبلا على حرب تخالف سابقاتها من كل الوجوه إذ كانت حروبه الأولى مع أمراء من المسلمين ولكن هذه الحرب تعتبر حربا دينية وكل مسلم فيها يعتبر مجاهدا وكل مقتول يصير شهيدا وقد حضر الأمبراطور وعسكر أمام مدينة « سيكرى » التى صارت فيما بعد (فتح بور) وقد انضم اليه قوات قلعة بيانا وكان خصم بابر لا يستهان به بل يحسب له كل حساب لشجاعته وخبرته فى القتال وكانت بوادر الحرب لا تشجع المسلمين اذ أن قسما من جيوش الأمبراطور التحم مع الخصوم ولم

يثبت أمامه بل فر هذا القسم منهزما فتقدم الأمبراطور بكل جيشه ونظمهم على سابق عادته كما فعل أمام دلهى وأحضر معهم نفس المدفيعة التى كان يديرها على ومصطفى واستمر فى تجهيز الجيش وجعله على تمام الاستعداد للقتال وصرف فى ذلك الاستعداد مدة خمسة وعشرين يوما لأنه حفر خنادق للوقاية وقت الخطر وكان يريد من شدة استعداده واحتياطاته الزائدة إعادة الطمأنينة الى الجيش الذى دخل عليه الفزع لما رآه وقع لاخوانه السابقين وكانت من عادة بابر أن يدمن على شرب الخمر ولكنه فى هذه المرة أقسم أن لا يقربها وأهرق منها ما كان عنده على الأرض وكسر كل كؤوسها وحطم كل زجاجاتها ودعا ضباطه وحضهم قائلا إن كل رجل يولد فى هذه الدنيا لا مفر من موته فى يوم من الأيام ولا يبقى حيا لا يموت غير الله ولا بد لكل حى أن يشرب كأس الموت ولا بد لكل موجود أن يبرح هذا الوجود فأما والأمر كما تعلمون فخير لنا أن نموت شرفاء من أن يعيش يحبط بنا العار وان من فضل الله علينا أن من مات منا ذهب شهيدا واذا انتصرنا فان انتصارنا يكون فى سبيل الله فهلموا بنا اذن نقسم باسم الله وبكتاب الله على أن لا نبرح القتال حتى نظفر أو نموت فلما رفعوا المصاحف فى أيديهم وأقسموا عليها عادت اليهم البطولة ودب فيهم الحماس .

ولما تم تجهيز الجيش صار بابر يتنقل بينهم من مكان الى مكان ويبث فيهم الحماسة وأمر الجيش بالتقدم . وبدأت الموقعة بمطاردة عنيفة من الراجبوت على الجناح الأيمن لجيش المسلمين فأمده بجزء من الاحتياطي وبدأت طبجيته فى القلب تطلق مدافعها واستمر هجوم الراجبوت كالسيل المنحدر لا ينقطع . وبلغ شدة بوئسة ، ولكنها كانت تصدم بنار المدفعية . ثم انه أعطي أمرا بالتقدم وفى الوقت ذاته أرسل جزءا من الاحتياطى وقام بحركة تطويق من الخلف وشعر الراجبوت بشدة الضغط عليهم وتحولت المعركة الى مذبحة حيث اختلت

صفوف الهندوس من كرات النار التى كانت تقذفها المدفعية وأخيراً ضعفت روح الراجبوت وفروا متفرقين فى كل الجهات وتمكن سانجا من الهرب جريحا ومات على أثر جروحه ولمدة طويلة لم تقم قائمة لأحد من عقبة وتلا هذه الموقعة هزيمة وزير الراجا فى ملوا وتم بذلك سحق الراجبوت ولم يبق أمام بابر فى الهند قوة يعمل لها حساب غير ولاية بيهار وكانت فى يد الأفغان . وفى سنة ١٥٢٨ تم اخضاعها ثم تفرغ بابر الى شؤون التجديد والتعمير وابتدأ يحفر الآبار والترع وغرس الأشجار والأزهار وجلب الى الهند كثيرا من كروم العنب وغيرها من الفاكهة وابتدأت ولايات متعددة تدفع الضرائب للامبراطور مليونين وستمئة ألف جنيه ولكن هذا المقدار ارتفع فيما بعد فى مدة حفيده أكبر خان الى ثمانية عشر مليون جنيها ولكن المساحة فى وقت الحفيد كانت أكثر اتساعا وفى المدة التى قضاها بابر بعد فراغه من الحروب كتب مذكرة طويلة عن الهند نقتبس منها البعض

قال بابر انه لم يكن يحب الهند وان قراها ومدنها قبيحة الشكل وتكاد كلها تشبه بعضها بعضا وأرضها سهول يمل الانسان رؤياها اذا قاسها بنواحى كابل الجبلية أو جهات فرغانة ذات المناظر الجميلة بحدائقها وليس بالهند خيول جيدة ولا لحوم ولا أعناب ولا بطيخ ولا فاكهة فى الصيف ولا ثلج لتبريد الماء وخبزها ليس من نوع حسن وعلى العموم فان بابر كتب وهو فى حالة صحية سيئة ولم يشهد للهند شهادة طيبة إلا من حيث اتساع مساحتها وكثرة ذهبها وفضتها

ومما امتاز به قوة بنيته حتى أنه كان يستطيع أن يحمل رجلين كل رجل فى ذراع ويمشى بهما مسافة طويلة . وكان يشرب الخمور بكميات كبيرة ولولا قوة بنيته الخارقة للعادة لما احتملها طويلا وكان يعبر الأنهار عائما و يتسلق الجبال العالية ويركب على ظهر حصانه ثمانين ميلا دون تعب ولما انتهى بابر شاه من الحروب

مع راجا سانجا أوفد ولده الأمير همايون ليقيم مؤقتا فى كابل ولكنه عرج على مدينة دلهى وأخذ قسرا منها كنوزا من والده الذى استاء كثيرا حينما علم بذلك وكتب اليه بلهجة تدل على منتهى الرقة والانسانية وكتابته مزيج من نصح أبوى تتخلله عبارات المحبة والاشفاق وقال له فيه « دعنى أعتب عليك لانك فى ثلاث السنين الأخيرة لم ترسل أحدا من قبلك الى كما وانى أرسلت اليك رسولا ولكنه للآن لم يعد بعد انقضاء سنة كاملة وفى كثير من خطاباتك لى كتبت الى تشكو من أنك حرمت من رؤيا الأهل والأصدقاء وأنك تكاد تكون منقطعا بمعزل عن الأوساط التى ترتاح اليها ومن الخطأ أن أميرا مثلك يشكو من حالة مثل هذه فانك مقيد بحكم مركزك وما دام الانسان مقيدا وجب عليه الرضوخ لحكم الظروف أما اذا كان غير مقيد فهذا شىء آخر وله أن يتبع رأيه وميله . ولا يوجد مركز يكون صاحبه فى أسر قدر مركز الملك لشدة ما يتقيد به من الأنظمة والتقاليد فلا يليق بك اذاً أن تشكو اذا تعذر عليك رؤيا بعض من تحب ولا أنكرك أنك نزولا على رغبتى بعثت ردودا على خطاباتى ولكن يبدو لى أنك حينما بعثت الرد لم تكن قرأت ما كتبت لك ولولا ذلك ما كان يكون جوابك لى مثل الذى قرأته ثم إن عباراتك متنافرة فى المعنى ولم تنزهها من أخطاء الهجاء وكما وأنك ملأته ألفاظا لا تعبر عن الآراء التى ترمى اليها فواجب عليك فى المستقبل أن تنتقى أحسن الألفاظ وتختار أرق العبارات دون تكلف أو تصنع وأن تكون عبارتك سهلة اللفظ وفى اتباع هذه الطريقة يكون هذا أسهل للكاتب والقارىء معا واذا أرغبت أن تكون موضع رضى الناس فلا تحجب نفسك بين طائفة من الأخصاء بل يجب أن تمتزج بالجميع ومما يجب ملاحظته أن تجمع اخوتك وأشراف عشيرتك مرتين فى اليوم وأن تتشاور معهم فى كل ما يستحق المشاورة ثم تسير طبقا لما تراه أكثر صوابا .

هذه بعض كتاباته لابنه وهى تدل على رقة الطباع والانسانية و بعد النظر وقد انتهت حياة هذا الامبراطور العظيم والسياسى الكبير والمجدد الشهير اذ اليه يرجع الفضل فى تحسين زراعات الهند . اذ كان كثير الاهتمام بجلب كل الأصناف الغريبة عن الهند والتى تجود بها وقبل الانتقال الى تاريخ ولده همايون الذى تولى الملك بعده لا يستطيع الانسان أن يهمل الاشارة الى شىء من تاريخ حياته مما كتبه عن نفسه ، وهذه الأهمية تأتى من ناحية الصراحة المتناهية وعدم التحيز فيها لشخصة بل كانت بمثابة اعترافات ولم يكن ما كتبه قاصرا على اذاعة حسناته وهى قدرة غريبة قل أن يستطيعها أحد ولقد قال كندى المؤرخ الانجليزى الشهير فى المسائل الشرقية أن مذكرات بابر خان تعد من أعظم الكتب المفيدة التى حفظت عن الشرق والتى لا شك أنها أصيلة ويمكن معرفة ذلك من ثنايا الكتابة وهي فى صدقها وصراحتها تشبه تماما اعترافات روسو وفيها يذكر بابر مهازله وسقطاته ولا يحاول اقتضابها ولا تلطيفها وهو صريح فيها كصراحته حين يذكر لنفسه فعلا مجيدا أو عملا طيبا ومما جاء فى مذكراته أنه قبل أن يجلس على عرش أبيه قتل بيده أحد أشراف بلده لأنه اعتقد أنه تآمر عليه كما ذكر أنه بنى مرة هرما من جماجم مئة شخص قتلهم ولا يبدو منه ما يدل على الأسف أو التحرج من ذكر هذه الأعمال البربرية .

(ولكنه فى فعله هذا كان يسلك مسلك أهل زمنه وطبقا لطباع قومه فهو من سلالة جنكيز وتيمور الذين لم يفكروا أن قتل الأنفس من الأعمال التى تنهى عنها الشرائع وتأباها الانسانية ولكنه اذا قيس بغيره من الملوك المعاصرين له أو بأحد من أبناء جنسه وأهل بيئته مثل الشيبانى الأزبكى أو اسمعيل شاه أو السلطان ابرهيم لودى فانه يكون الرحمة نفسها أو تكون الرحمة مجسمة فيه وهو يذكر عن نفسه أنه لم يعذب أحدا الا مرة وذلك حينما حاولت طباخة بايعاز من

أم السلطان ابرهيم لودى فى دس السم بطعامه وفى هـذه الحالة ترك أم ابرهيم لودى وحبس الخـادمة وقد جاء فى مذكراته مالا تجيزه أصول الكتابة فى عهدنا هذا فنمر عليه . وقال عن الخمر أنه لم يكن يشربها بدء حياته ولـكنه اعتادها حينما زار أقاربه أبناء ملك خراسان فصارت عادة عنده وكان أسعد شىء عنده فى الوجود شرب الخمر وكثيرا ما كان يدعو بعض أصدقائه ويشرب معهم الى درجة السكر وكان يحلو له ذلك فى الغابات أو على جسر نهر ومما قاله ان نفسه كانت تتوق كثيرا الى مجالسة امرأة والشرب معها ولـكنه حين فعل ذلك وجد المرأة كثيرة الصخب جامحة وسره أن يتخلص منها .

(ملحوظة — عادة شرب الخمر فى عهد بابر كانت فاشية شائعة بين الكثيرون حتى من المسلمين « فى أواسط آسيا وفارس والهند » حتى أن اثنين من اخوة بابر ماتا من الأفراط فى شرب الخمر) ومن أكبر غلطاته التى سجلها على نفسه أنه فى نشأته كان كثير الاهتمام بالفلكيين وشديد الوثوق بالطوالع وكثيرا ما كان يهمل الاعتبارات الأخرى فى جانب ذلك وقد اعترف عن سخافاته فى هـذا الاعتقاد وأنه كان مخرفا .

وكان بابر متزوجا عدة زوجات كـكثير من المسلمين فى وقته ولـكنه لم يكن مغرما بهن وذكر أنه حين تزوج الأولى منهن كان شديد الحياء منها ولم يكن يقربها وذهب عنه الميل لها وتجنبها طويلا ولـكنه اضطر الى زيارتها مرة كل شهر أو أربعين يوما تحت ضغط والدته التى كانت تأتى اليه ثائرة صاخبة وتستعمل معه كل شدة وتوبيخ وتقوده الى زوجته كما لو كانت تقوده الى السجن وكان يردد قول السـعدى : (ان الزوجة السوء فى منزل الرجل الطيب تستطيع أن تخلق جحيما فى هذا الوجود وقى الله كل رجل طيب هذا النوع من زيارة المنازل ولعل الله يمحوا هذا النوع من العالم)

وكانت صراحة بابر فى ذكر معاصريه واضحة إذ قال إن احدى زوجات أبى زيد (حاكم سمرقند فى زمنه) كانت تعكف على شرب الخمر وكان زوجها شديد الغرام بها ومن أجلها هجر باقى زوجاته بل ولم يجرأ منها على زيارة احداهن ولكنه أدرك ما يلحقه من عارها فقتلها وكان بابر ينحصر حبه النسائى فى حب الأهل منهن فكان يكتفى بحب أمه وأخواته وعماته وخالاته وجدتيه ، ومما ذكره بابر عن السلطان على مرزا أحد أقاربه الأباعد ما يشير الى شديد احتقاره له لجبنه فانه سلم بهدوء الى الشيبانى وكان ذلك بسبب حرصه على المحافظة على جسمه الفانى فسلك مسلكا لا يسلكه الا النساء فترك لاسمه عارا لا يمحى ومما ذكره عن أم السلطان على مرزا رغما عن أنها كانت امرأة متقدمة فى شبابها أنها أرسلت الى الشيبانى وتعهدت له باقناع ابنها أن يسلم له سمرقند اذا قبل أن يتزوجها فقبل منها الشيبانى وسلمت سمرقند بناء على مساعيها وتزوجها الشيبانى لكنه لم يكن يحبها بل عاملها كاحدى جواريه

ومما ذكر عن نكران الجميل والكفر بالنعمة ما رواه عن خسرو وهو أحد كبار الأغنياء والمعاصرين له فقال كان هذا الرجل كريما وحسنا فى معاملاته واشتهر عنه توخي الأمانة والذمة دائما فى كل ما يعود عليه بالكسب ولكنه من أجل الظهور والعظمة فى هذه الدنيا الكاذبة سمل عينى ولد وقتل ولدا آخر الى من كان سببا فى نعمته وكان يحميه ويعاونه حتى وصل الى مكانه السامى فجلب على نفسه سخط الله ولعنته وبغض الناس وسيبقى غارقا فى العار الى أن يحاسبه الله وقد ارتكب كل هذا من أجل الجاه الكاذب وبعد الصيت وهو فى غنى عنهما بما لديه من أملاك واسعة ونعم متدفقة وخدم وحشم كثيرين يحيطون به .

وكان بابر لا يواظب على الصلاة دائما ولكن وثوقه بالله كان عظيما وكان

كثير الجنوح للاستغفار والتوبة وقد هجر الخمر فى أواخر حياته وكان مغرما بتأليف أشعار الهجو لـكنه هجر ذلك أيضا لما اعتقد من أن ذلك لا يليق بحاكم أو مسلم ولقد يطول بنا الأمر إذا تتبعنا هذه المذكرات فلنختم سيرته بأنه دفن فى مدينة كابل فى مكان نسقت حوله الأشجار والأزهار سنة ١٥٣٠ ، وبنى حول قبره أحد أحفاده مسجدا حفظا لذكراه . فلنرجع الآن الى حكم همايون

حكم همايون

الجزر بعد المد

لم تكن الظروف التى تحيط بالجالس على عرش بابر سهلة بل كانت عسيرة معقدة وقد حكم همايون وسنه ثلاثة وعشرون سنة و كان على شىء من الخبرة فانه قاد الجيوش مع ابنه وحكم بعض الولايات فى حياة والده وكان بابر يحب ابنه همايون كثيراً حتى انه أشار عن هذه العاطفة الأبوية فى بعض كتاباته اذ قال إن وجود همايون أمامي مما يجعل قلبي يتفتح كالوردة الغامضة ومما يجعل عينى تشرقان كالمشاعل. وكان حديثه دائما مما يسر به وذلك لأنه بلغ الكمال فى صفات الرجولة وفى الواقع أن هذا الأمير الشاب كان شجاعا وله جاذبية وذا ذكاء وفطنة وكان يبدو منه نشاط خارق للعادة فى بعض المناسبات غير أنه كان مترددا فى أموره ينتابه الضعف الأخلاقى فى بعض المواقف فكان اذا انتصر فى حرب تتخدر أعصابه بنشوة النصر وتجعله ينغمس فى النعيم النسائى وما يحيط به من أنواع الملاذ الضارة كتعاطى الأفيون وذلك فى الوقت الذى يجرأ فيه خصومه على الاقتراب من بابه مهددين ولما كان الرفق من طباعه فانه كثيرا ما عفا عن المسيئين فى المواقف التى تتحتم فيها العقوبة وكثيراً ما كان يجلس على المائدة فى الوقت الذى كان يجب أن يجلس فيه على سرج حصانه ومثل أخلاق هذا الأمير كانت جذابة حقا ولكنها لم تكن تصلح لأن تحكم أو تسود وفى حياته الخاصة كان رقيق الشمائل حسن المعاشرة ولكنه كملك لم يكن صالحا ومعنى همايون هو السعود ولكن لم يخلق ملك أتعس منه حظا والصفات التى كان يجب أن يستكملها الجالس على عرش مثل عرش الهند كانت توجب عليه الالمام مع السيطرة التامة على المركز الحربى والقدرة على القيام بشؤونه وكانت الحالة تقتضى

نشاطا لا حد له ونبوغا عسكريا وكما شرحنا سابقا فان بابر لم يكن أخضع الهندستان بل أكبر ما كان تحت سلطانه يشمل الآن ما يسمونه البنجاب وولايات الهند الشمالية الغربية . ولم يستطع أن يضم اليه نهائيا البنغال وغيرها وانه وان كان كسر شوكة الراجبوت الا أنه لم يخضعها تماما كما وان كثيرا من الولايات الصغيرة التى كان يحكمها ضباط من الأفغان لم ينسوا أن ابراهيم لودى الذى كان جالسا على عرش دلهى كان افغانيا أيضا مثلهم لذلك لم يكن خضوعهم كلية بالأمر المحتمل لسابق ارتباط بعضهم بعائلة لودى يضاف لهذا عدم اطمئنان همايون لنفس عائلته وبالرغم من أن بابر وكل أمر أبنائه الثلاثة الآخرين الى شفقة أخيهم همايون فان التسامح الذى أظهره لهم لم يكن أضر عليه منه اذ كان اخوته الثلاثة يكيدون له وكان أخوه الذى يليه فى السن واسمه قمران حاكما على كابل فى عهد أبيه فاستبقاها وأضاف اليها الولاية الغربية وتجنب اظهار الخروج على أخيه الأكبر ولم يمانع همايون فى خطة أخيه للشفقة الاخوية التى طبع عليها ولمشاغله الأخرى فى باقى أجزاء الامبراطورية . وكان هذا قصر نظر من الامبراطور الحديث لان موافقته على استقلال أخيه فى هذه الولايات حال بين همايون و بين المورد الأساسى الذى كان يجيش منه الجيوش المغولية لأن بعض الولايات الاسلامية فى الهند وقعت فى يد ولاة من الأفغان استقلوا بها فقصت بذلك أجنحته وأصبح يواجه صعوبة فى تموين نفسه بالجند واضطر أن يحارب باستمرار لاخضاع الثائرين فأوردته هذه الحالة موارد الاضمحلال وكان قمران أكثر الاخوة الثلاثة خيانة وكان غير حقيق بأن يمت الى بابر بصلة البنوة . أما أخواه عسكرى وهندال فكانا فى حالة ضعف وتقلب ونشأ خطرهما من حيث أنهما صارا آلة فى يد خصوم أخيهما وكان للامبراطور أبناء عم وهما محمد سلطان ومحمد زامان وقد حاولا محاولات غير مجدية فى الحصول على عرش دلهى الذى

لم يكن فيهما من يصلح له ، وكان همايون رقيقا مع الخارجين عليه اذ لم يكن يعالج الأمور معهم إلا بأقل ماتقتضية وسائل العلاج وخطته مع مافيها من النبل من الوجهة الانسانية كانت وبالا عليه من الناحية السياسية وعجزت فطنته عن رسم الخطط التى تتناسب مع مقابلة هذه الأخطار ودرئها فبينما كانت بعض الأحوال تقضى بان يتفرغ لخصم ويؤجل خصما آخر إذا به يوزع جيوشه فى كثير من الجهات لذلك لم يتيسر حسن قيادتها ولا اتقان رقابتها وفى بعض الأحيان كان يذهب الى مواجهة خصم بعيد ويترك وراءه خصما قريبا منه يهدده وكانت السحب السياسية قد تجمعت فى جو الهند فى أوائل حكمه وأولها استئثار أخيه بالناحية الشمالية الغربية وفى الشرق قيام الافغانيين عليه فى ولاية بهار تحت قيادة أحد إخوة السلطان ابراهيم لودى ، وفى الجنوب تمرد بهادر شاه ملك جوجيرات وملوا وكان يتقدم مسرعا بجيشه نحو اجرا (عليكرة) وبقى همايون متحيرا فى من يواجهه أولا وبعد ترو دخل ولاية بهار وتخلص من محمود لودى بنصر عظيم فى موقعة تكناو ولو أنه تابع انتصاره وسحق قوى بهار حتى لايبقى بها من يقاوم لكان أحسن صنعا لكنه لم يفعل ذلك بل تعجل الأمور وترك حصار شونار وفيها شيرخان واكتفى منه بخضوع ظاهرى وبذلك ترك أكفاء خصم عنيد له وتوجه الى مقاتلة بهادرشاه وأوقف هجومه ورده ثم التحم معه أمام شيتور وهرب بهادر وترك جيشه فتبعه همايون بنشاط نادر حتى لحقه عند شاطىء المحيط أمام جزيرة (ديو) واستردت ولايتان من أكبر ولايات الهند لهمايون بسهولة غريبة فجعل ذلك مناسبة عظيمة لاقامة الأعياد والاحتفالات المتوالية . وفى هذا الوقت ظهر شيرخان ثانية فى البنغال وصار سيد الموقف وللمرة الثانية تكررت غلطة همايون فبدلا من ترك الأفراح والأعياد لمواجهة خطورة الموقف مكن باهماله وتقاعده عن العمل خصمه شيرخان فى أن يزداد قوة ومنعة علاوة على أنه كان قائدا قديما من ذوى الخبرة التامة وضيع همايون سنة كاملة بين لهوه ومرحه ثم ذهب الى البنغال لقتال

شيرخان إلا أنه أرسل اليه قبل ذلك عهدا بالصفح عنه مع إعطائه مملكة جاونبور إذا خضع له ولكن شيرخان رفض العرض وتجهز فى قلعة زوهتاس التى سبق له أن احتلها بخديعة إذ أدخلها بعض عساكره فى هذه القلعة الهندوسية وذلك بان ألبسهم لبس النساء مدعين أنهن موفدات من شير الى الأمير الهندوسى ليحميهن من مطاردة همايون » فجازت الحيلة على صاحب القلعة وهوجم من الداخل والخارج فاضطر للتسليم وبقى فى الحصن الجديد يتحين الفرص للايقاع بهمايون وتركه الى أن جال فى كل الولايات دون احتياط على مواصلاته فاحتل شيرخان كل منافذ الطرق ونادى بنفسه سلطانا واتفق أن ثار هندال وقمران على أخيهما واتسع الخرق على الراقع وتكاثرت ذئاب الحرب عليه من كل ناحية ولما وجد همايون أن تمردا ظهر فى أجرا وشيرخان ينادى بنفسه ملكا وإخوته يتحينون الفرص للايقاع به فكر فى ترك اخضاعهم و بدأ يعالج وجوه الخلاص من خطرهم ودب فيه اليأس لأن الأمراض فشت وفتكت فى جيشه ولكن همايون لم يجد مخلصا ووقعت الواقعة بين الخصمين فى شونار ولكن جيوش همايون صدمت بواسطة شيرخان ثم جاءت فترة وقف فيها الجيشان أمام بعضهما لا يجرأ واحد على مهاجمة الآخر وشعر الأمبراطور بالخطر الذى صار فيه اذ مات كثير من خيله ودواب حمله وقلت المؤونة لأن أجرا انقطع منها التموين ووصول الأمدات اللازمة ففتح المفاوضات تجنبا للحرب وعقد محالفة من شروطها أن يحتفظ شيرخان بولاية بنغال وجزء من بيهار على شروط أن يعترف علنا ورسميا بسيادة الامبراطور همايون عليه وأوشك أن يتم الصلح وتآخى الجيشان مع بعضهما وشرعا فى تقويض بعض الخيام استعدادا للرحيل ولكن عند بزوغ الفجر باغت أفغان شير الجيش الامبراطورى الذى كان أفراده آمنين فى مراقدهم وأمعنوا فيهم ذبحا وقليل منهم

من نجا ومن بينهم الامبراطور الذى لم يتمكن من الفرار إلا بمساعدة أحد السقائين الذى أعطاه قربة فنفخها واستعان بها همايون على عبور نهر الجانجيز ووصل الامبراطور الى أجرا بعد أن أبيد معظم جيشه وذلك فى سنة ١٥٣٩ وفى خلال سنة بدأ الخصمان يستعدان من جديد الى موقعة فاصلة بينهما وكانت فى سنة ١٥٤٠ أمام مدينة كونوج وفيها انقرضت قوة المغول ودال سلطانهم وتشتت جيش قدره مئة ألف مقاتل بسبب اليأس وكثرة الفارين وذابت هذه القوى بمجرد بدء القتال وهرعوا الى الكبارى طلبا للنجاة وتزاحموا عليها فسقطت بهم ، ومات الكثيرون غرقا ومن هذا اليوم الذى انهزم فيه همايون صار ينتقل من جهة الى جهة ويجوب الصحارى والقفار ومضى عليه ثلاثة سنين فى محاولات فاشلة لتجنيد جيش جديد ومما صادفه أنه وقع فى حب ابنه أحد شيوخ الاشراف الملازمين لأخيه هنـدال وفى خلال هذه المدة ولد له ابنه أكبر خان ثم بعد ذلك هرب لاجئا الى الشاه طهماسب (ملك العجم) طالبا معونته فى المحنة التى يلاقيها فأجاب الشـاه سؤله وأمده بجيش من الفرس فاسترد قندهار من أخيه عسكرى فى سنة ١٥٤٥ كما أنه استرد كابل فى سنة ١٥٤٧ وأصبح مركزه فى الحكم يعادل مركز والده قبل غزوته للهند ثم أنه مضى التسعة السنين التالية بين ارتفاع وانخفاض فى حظوظه الحربية ولم يتمتع بالهدوء وثمرة الحكم فى الأفغان إلا بعد موت أخويه وقد قتل أخوه هندال فى معركة بينما مات عسكرى أثناء تأديته فريضة الحج . أما قمران الجاحد فبعد أن عفا عنه همايون مرارا ولم يفد العفو فى تغيير طباعه اضطر لسمل عينيه وارساله لمكة حيث قضى نحبه هناك ، وقد كان السبب الأساسى لمحنة همايون سلوك قمران الشاذ معه وأغلب ماقاساه من شقاء يرجع الى هذا الأخ وهكذا كانت نهاية اخوة همايون معه

شيرشاه

بعد انهزام همايون استطاع شيرشاه أن يخضع الجزء الأكبر من هندستان لسلطانه وقد قابل الهنود حكمه بالترحيب وان كان أفغانيا لأنه ولد فى الهند ولقدرته الفائقة فى حسن الادارة ونبوغه فى فنون الحرب ورجحان عقله، الذى قوبلت تصرفاته بالرضا خصوصا فى سياسته المالية ، وقد حاول ارضاء كل العناصر المختلفة من السكان وكان يبتعد عما يعتبر اضطهادا لرعاياه الهندوس . وكان على جانب عظيم من النشاط وذا حزم فى فض المنازعات التى كانت تقع بين طبقات السكان المختلفة وقد قسم ادارة ملكه الى مئات الأقسام ووضع فى كل قسم منها ضابطا يمثله ويكون واسطة اتصال بالمركز العام وهو أول من أدخل من حكام الهند الأنظمة الجديدة التى تفيد العالم الهندى بكافة طبقاته لا الطبقة الممتازة (المسلمين) ومما امتاز به شيرشاه أنه وطد الحكم وفرض سلطته على الجميع سواء فلم يستثن الأفغان ولم يمكن أحدا منهم أن يناقضه فيما فرضه عليهم ضمنا وكان شديدا فى تنفيذ ذلك وكان اذا اتفق أن ابنا أو قريبا أو احدا من بنى جنسه أو رئيسا أو وزيرا عارض أمرا من أوامراه كان يأمر باعدامه ولم يكن يحابى فى الحق لأى اعتبار من ناحية القرابة أو العصبية ومن يوم أن توطد حكم شيرشاه لم يستطع أحد أن يرفع راية العصيان أو يبدى معارضة ما ولم يوجد من الجند أو اللصوص من كان ينظر بعينيه الى ملك أو متاع أى انسان آخر . كما أنه لم تقع سرقات فعلا فى عهده ولم يضطر أى تاجر أو عابر سبيل أن يقف فى الطريق خيفة الاعتداء بل رفرف الأمن بجناحيه فى كل مكان . وكان رجال القوافل ينامون فى الليل دون خوف على الأنفس أو الأموال . وذلك لتنظيمه وسائل الحفظ بما يكفل توطيد الأمن

كان شيرشاه ، شديد الوثوق بنفسه ومما رواه مؤلف تاريخه عبـاس خان حكاية سمعها من خاله وكان يثق بصدق روايته ، قال : كنت فى موقعة (شونديرى) صحبة الامبراطور بابر المنصور وكان معنا الشيخ ابراهيم سروانى والشيخ محمد و بعض الأصدقاء ورأينا أن نذهب للجلوس مع شيرخان وكنا نتجاذب أطراف الحديث حينما نـكون على انفراد فقال الشيخ ابرهيم « أظن أن هذه الامبراطورية (المغولية) لن تبيد أبدا ولن تعود ترجع الى يد الافغانيين » فعارضه شيرخان قائلا : « ان الزمن اذا وقف بجانبى وساعدنى الحظ فسيكون من السهل على اخراج المغول من الهندستان فبدا على وجه الشيخ ابراهيم ما يعتبر شكا أو سخرية من هذا الأمل الـكاذب الذى لا يصدر الا عن غرور مغرور أو حلم حالم فلما لاحظ ذلك شيرخان رجع فأكد قوله وقال كن شاهدا ياشيخ محمد أن الحظ والزمن اذا ساعدانى فانى سأطرد المغول من الهند لأنهم لم يبرهنوا فى أى موقعة من المواقع تفوقهم على الأفغانيين وغاية ما فى الأمر أن الامبراطورية أفلتت من أيدى الأفغانيين بسبب الاختلافات التى كانت قائمة بينهم و بما أنى اختلطت بالمغول فقد درست أخلاقهم وكيفية تصرفاتهم وهم ليس لديهم تدبير أو نظام ، وان ملوكهم بسبب علو مركزهم أو نبل مولدهم يترفعون عن مباشرة الأعمال العامة و يكلون أمورهم الى الوزراء و بعض الأعيـان و يثقون بهم ثقة عمياء وهؤلاء الوكلاء عنهم ليس لديهم النزاهة فى تصرفاتهم ولا يؤيدون من المتظلمين أو ذوى الشكايات سواء أكان هؤلاء ولاة أو جنودا أو مزارعين إلا من كان يدفع لهم الرشوة التى ترضيهم وسيان عندهم فى ذلك الموالين للعرش أو غير الموالين ولا يميزون عدوا من صديق فقد أعماهم حب الذهب وسيرى الشيخ قريبا أنى سأستطيع جمع الأفغانيين تحت حكمى ولن أسمح لهم أن يتفرقوا وسأحقق بهم هذه الغاية وقد وصلت هذه الرواية الى مسامع بابر شاه قبل موته وكاد أن يقبض

على شيرخان خصوصا وأنه بدأ يعمل حسابا لشخصيته المتينة ولكن شير علم بنية الامبراطور وهرب فى الفرصة المناسبة فيالها من تنبئوات حققتها الأيام وأيدتها الهمة الجبارة بعد أن كانت أقواله فى هذه المسئلة تجعل سامعيه يعتبرونه يهذى ويحلم وكان مما ساعده به الحظ والظروف لتحقيق أمنيته أنه احتل احدى القلاع القوية بصدفة وتفصيل ذلك أن تاج خان صاحب قلعة شونار كان يقتنى احدى الجوارى فخنق عليه ابن شرعى من ابنائه وقتله وحصل خلاف على القلعة وأملاكه بين هذه السيدة وابناء زوجها الراحل . وكان فى يد السيدة ثروة الخان المتنقلة ورغبت شيرخان أن يتزوجها ثم احتكمت اليه فى فض الخلاف بينها وبين أولاد الخان فحكم لها واستولى على القلعة ولم يطل حكم شيرشاه إذ مات قتيلا أمام حصن كالينجار أثناء محاصرته له ومحاولة اخضاع الراجبوت .

سليم شاه

انقضى بموت شيرشاه عهد الهناء وخلفه على العرش ابنه سليم شاه وكان شديد الصولة والحول كأبيه ولكن ينقص عنه فى الفطنة والحزم وقد بدأ حكمه بمحاولات كان يرمى من ورائها انقاص شأن الرؤساء من الافغانيين ممن يحيطون به وسلك مسلكا يشابه طريقة ابراهيم لودى من ثلاثين سنة مضت وكانت النتيجة فى كلا الحالتين واحدة فانه لما غزته قوة أجنبية لم يستطع الوقوف فى وجهها ولم يكن سليم شاه الابن الأكبر لوالده بل عادل شاه كان أكبر منه سنا وقت موت أبيه و بما أنه كان متغيبا عن الجيش فى احدى الجهات النائية وكان اسناد العرش فى الحال من الضرورات التى تقتضيها المحافظة على النظام وعلى مركز العائلة المالكة وعلى ذلك نادى الجيش فى الحال بسليم حاكما عليهم . وبمجرد جلوسه على العرش كتب لأخيه الأكبر يخبره أنه

قبل هذا التعيين مضطراً تحت اصرار الجيش ولكن حقيقة نواياه متجهة الى التنازل عند حضوره وبعد ذلك كتب له ثانيا يستدعيه الى الحضور الى أجرا ولتخوف عادل اشترط أنه لايحضر إلا بعد أن يضمن سلامته بعض أعيان من البلد ذكر أسماءهم ، ولما حضر اكتفى أخوه بأن أقطعه احدى الولايات دون العرش !الاأن سليم عاد ودخله الشك من ناحيته ولم يكن مضى على تعينه غير شهرين فانتدب غازى المحل وهو أحد مشاهير ضباطه وأعطاه سلسلة من الذهب ليقيد بها أخاه عادلا ويحضره اليه ولكن عادلا استنجد بقواص خان وكان أكبر مماليك والده (ويده اليمنى) وكان فى الوقت ذاته حاكم ولاية ألوار فصار الذى جاء ليأسر عادلا أسيرا فى يد قواص ولهذا السبب قامت الحرب بين سليم شاه من ناحية وعادل يؤيده قواص من ناحية أخرى . فما كان من الآخرين الا أن جمعا جيوشهما على نية مباغتة أجرا وفى طريقهما مرا بسيكرى (فتح بورسيكرى) وقد أقيم بها مولد لأحد كبار المسلمين ، وهنا تأخرا طويلا حيث قاما بتأدية الفروض الدينية ثم شاركا المحتفلين بالمولد ولذلك لم يصلا الى أجرا الا فى ثانى يوم بعد أن صارت الشمس فى رابعة النهار مع انهما حددا موعدا لبعض أعوان الامبراطور للخروج عليه والهروب اليهم ولكن ضاعت منهما الفرصة لتأخرهما وانهزما وتحول سليم على كل من وقع عليه شكه فقتله ومما روى عنه أنه أباد عشيرة من أكبر العشائر وهى عشيرة نيازى ونسف رؤساءهم بالبارود لأن زعيمهم أعظم همايون ثار عليه .
ولقد ثار على الشاه أيضا شوقت خان صاحب ولاية ملوا لاعتقاده أن الشاه حرض عليه أحد الافغان ليغتاله . وفى مرة حاول أحدهم أن يعتدى على حياة الشاه سليم فلما أحضر الجانى لاستجوابه رفض استجوابه وأمر باعدامه فورا وقد قال أنه اراد بذلك أن لايثير الشكوك وأن لايتهم أحدا ظلما ومات سليم سنة ١٥٥٣، وتنازل مجد عائلة شيرشاه ،وتولى بعد سليم ابنه ولم يكن يبلغ عمره غير اثنا عشر سنة

وضربت الفوضى أطنابها فى عهده وقتله خاله مبارز خان وتولى العرش واتخذ لنفسه لقب عادل شاه وكان عاطل الصفات وحشى الطبع فناوأه على العرش اسكندرخان وابراهيم خان وغيرهما وكان عادل يعتمد على وزير له هندوسى اسمه هيمو فى تسيير دفة الأمور وقد نشأ من وسط لا ذكر له وكان صاحب حانوت صغير يبيع فيه بعض الحاجات وقد ارتفع بالتدريج الى أن صار رئيس وزرائه وكان قوى الشكيمة ذا عزم شديد فاستطاع أن يدافع عن عادل ويدفع خصومه ولكن شخصيته الهندوسية أثارت عليه حنق الكثيرين مما أضر بمركز عادل وانتهى الامر بأن اغتصب ابراهيم صور عرش دلهى بينما وضع اسكندر صور يده على ولاية البنجاب وكلا الثائرين كان ابن عم لشيرشاه ثم تحول اسكندر صور على ابراهيم صور وطرده من العرش وأخذ مكانه

عودة همايون الى عرش هندستان

فى عهد ابراهيم واسكندر صور انتشرت الفوضى فى كل مكان ومن يوم أن أخرج همايون عن عرش الهند تغيرت طباعه وصار يطوى الفيافى والقفار ونفض عن نفسه ثوب الخمول والراحة وطلق المرح واللهو وصار يطرق وسيلة بعد أخرى لاسترداد عرش الهند المغصوب فلما جاءت الفرصة بسبب الانقسامات العائلية للذين حكموا دلهى جهز جيشا مكونا من خمسة عشرة ألف فارس وانضم اليه بعض رعاياه السابقين وسار فى طريقه قاصدا دلهى ليملكها عنوة . وابتسم له الزمن ثانيا فى سنة ١٥٥٥ حينما احتل البنجاب وفرق جيش اسكندر صور الذى هرب الى جبال الهملايا ثم دخل عاصمته دلهى وجلس على عرشها ثانية ولكن لم يطل عمره إذ لم يبق غير ستة أشهر . وكان يباشر بعض اصلاحات فى سرايه فزلت قدمه زلة كانت القاضية وبذلك سجل له زلتان — زلة أخلاقية أخرجته من العرش أول مرة ، وأخرى بدنية أخرجته من الوجود .

أمبراطورية هندستان المتحدة

أكبر خان

١٥٥٦ — ١٦٠٥

كل مخلص لحكم المغول فى الهند لم يقابل باطمئنان أو ارتياح الظروف التى كانت تحيط بعرش دلهى عقب وفاة همايون لا سيما وهو لم يكن أتم اخضاع خصومه ، ثم انه ترك جيشا من المأجورين وابنا قاصرا ليدير امبراطورية واسعة النطاق مترامية الأطراف لكن من حسن حظ الابن وهو أكبر خان ومن سوء حظ خصومه أن همايون ترك لابنه وزيرا كان على أكبر جانب من الكفاءة وأصلح من يليق فى المواقف العصيبة فانه قام بتأديب العصاة والخارجين والمشاكل الداخلية ، اسمه « بيرام خان » . ومن حسن سياسة هذا الوزير أنه أخفى خبر وفاة همايون شاه عدة أيام لتغيب أكبر خان وقد نودى به أولا امبراطورا فى البنجاب ولما عاد الى دلهى بعدسبعة عشر يوما من وفاة والده أجلس على العرش وتليت الخطبة باسمه يوم الجمعة ولكن قامت الفتن على أثر ذلك وزحف الوزير هيمو الهندوسى مناصرا لعادل شاه ووقف أمام أبواب دلهى ولم تكن القوى المغولية القائمة بالعاصمة يومئذ تحت قيادة موحدة بل انقسم الرؤساء وقد أشار « تاردى بج » وهو حاكم المدينة السابق باخلاء دلهى حيث لاتجدى المقاومة ولكن فريقا آخر رفض هذا الرأى ووقعت الحرب بين هيمو والمغول جنوب مدينة دلهى ثم انسحب الجيش المغولى منهزما ووصل الى أكبر خان فى البنجاب منهوك القوى ولكن بيرام خان كان خصما عنيدا فأعاد تنظيم الجيش وأعدم تاردى بج ليأمن معارضة غيره له فى خططه . ثم عاد فصادم جيش هيمو

فى بانيبات وذلك بعد أن خطب بين جنده محرضا وقال لهم « ان هيمو هذا الكافر سبق له أن هزم جيوش امبراطوركم وقد عاود الكرة يريد بذلك أن يتحكم فيكم فاذا صدقتم فى القتال وكنتم قلبا واحدا وروحا واحدة فستكون هندستان لكم وأنا أضع ثقتى فى الله واذا قدر وفشلتم فى هذا الموقف مع العلم أن بيوتكم تبعد عنه نحو خمسمئة كيلو فلن تجدوا لأنفسكم بعدئذ ملجأ » . ثم انه أثار حماسهم للقتال ورغبهم فيه بما وعدهم به من حسن الجزاء والمكافأة ، و بالرغم من النصائح والترغيبات التى أبداها بيرام خان لجنده فان هيمو كان متفوقا وقابل جيش المغول راكبا فيلا الا أن سهما طائشا أصاب منه مقتلا فلما حاول الفرار بعيدا أدركه خصومه وأحضروه أمام بيرام فقدمه للملك أكبر ليقتله بيده ولكن ما جبل عليه أكبر من رقة الطباع جعله يحجم وقال لوزيره « كيف يجوز لى أن أقتل شخصا يكاد يكون على أبواب الأبدية » فقتله بيرام بيده و بما أن هيمو كان أكبر شخصية تؤيد مطامع الأفغانيين فان موته قطع كل أمل فى سبيل اعادة حكمهم للهند و بعد ذلك تفرغ بيرام الى باقى خصوم سيده وهزمهم وشتت قواهم وقتل اسكندرصور وابراهيم وخلى الجو بانقراض عائلة صور وصفا الحكم للمغول . وكان سن الملك أكبر وقتئذ ثلاثة عشر عاما . ولم تكن سلطته أول الأمر ممتدة الا الى أقسام صغيرة من الأمبراطورية العظيمة التى تركها فيما بعد حيث بسط سلطانه من الهملايا شمالا الى سلسلة جبال قندهيا جنوبا ومن أفغان غربا الى البنغال شرقا ولم تكن سلطته بالاسم كما كان هو الحال مع كثيرين ممن جلسوا على عرش دلهى قبله بل توطدت أحكامه وانتشر سلطانه وخضع الجميع له ولا شك أن هذه النتيجة ترجع الى عوامل جديدة وقد يعتبر فى مقدمتها وجود وزيره الأكبر بيرام ذلك الرجل الحديدى ، الذى وقف ضد كل من ثار فى وجه أكبر خان وقضى على أكبر خصومه وأدب من حدثته

نفسه أن يثور على سيده حتى صيرهم مثلا يخاف منه المتذمرون والمتآمرون فأعيد الهدوء الى الهند ودانت جميع الولايات لسلطة الملك أكبر ومما ساعد على الوصول الى هذه النتيجة أنه فى أول الأمر لم يثر على أكبر غير المغول ولكن ثورتهم انتهت بموت الذين خلقوا الخلاف والانقسام ثم آل الأمر الى أن توحدت القوى المغولية وصار تحت يد أكبر جيش من نفس المغول كان يجعل اعتماده عليه فى مواجهة أى طارىء ويعززه فى ذلك جيوش أخرى تتألف من المسلمين الأفغانيين الذى انقرض معظم رؤسائهم ومن المسلمين الهنود وقد كثر عددهم فى الهند ثم ان طريقة الحكم الجديدة التى اتبعها أكبر كان من مقتضاها أن تزيل عداوة الكثيرين من الهندوس بل وتجذب اليه حب بعضهم فانه حين ولى الأمر بنفسه لم تكن سياسته أن يصير حاكما مسلماً يحكم بقوة المسلمين بل كان يرمى الى أن يصير حاكما هنديا يحكم لمصلحة الهند فهو بذلك يحكم الكل . ويعمل لمصلحة الكل فلا تميز بين هندوسى ومسلم ولا امتياز لمغولى على أفغانى بل الكل سواء ولا شك أن هذه الطريقة الجديدة لها مزاياها فان الهند كانت ولا زالت أكثرية سكانها من الهندوس ولم تكن وسائل حكم المسلمين السابقين تلائمهم لما كان فيها من النزعة الدينية التى كانت تدفع الكثيرين من الحكام إلى التعرض لحرية العبادة وهدم المعابدة وتحطيم الأصنام . مما كان كفيلا باثارة الضغائن فى نفوس الهندوس ، ومن أجل ذلك كثرت ثوراتهم فى العهود السابقة وزادت الهندوس ارتباطاً بعد ما كانوا متفرقين

أما عهد أكبر فاختلفت فيه سياسة الحكم وانتظمت وسائل الضرائب وتنزهت كثيراً عن عيوبها السابقة ولا يوجد شىء يجعل الجماهير راضية مثل اعتدال المعاملات المالية وبعدها من المظالم التى تحمل الناس فوق طاقتهم ، ثم أنه من الوسائل التى استطاع بها أكبر أن يقرب الطوائف غير المسلمة منه ويزيل

نفورهم القديم أنه عقد مؤتمراً من رجال الأديان واختار له مكانا وسماه بيت الحكمة ثم أبدى لهم رغبته فى ايجاد دين جديد يجمع كل الطوائف وسماه دين الله وأستمد تعاليم هذا الدين الجديد من كل الأديان ومنها الديانات الهندوسية والاسلامية والمسيحية وأراد من وراء هذه الفكرة ازالة الفوارق الدينية وما يترتب عليها من أسباب الشقاق بين الطوائف والطبقات ، ولكن هذه الفكرة لم تنجح النجاح الذى قدره لها وان كانت أحدثت شيئا من حسن الأثر لأن اقتباس شيء من تعاليم دين يعد بمثابة احترام واعتراف بصلاحية ما يقتبس من هذا الدين إلا أنها فى الوقت نفسه لم ترق فى نظر فريق من المسلمين الذين لا يريدون النزول عن معتقداتهم ولا سيادتهم والواقع أن محاولة أكبر هذه بصرف جوازها أو عدم جوازها شرعا ربما كانت الوسيلة الوحيدة لجعل الهند أمة واحدة فانها كانت طبعاً ستؤدى الى توحيد الدين ثم اللغة ثم ازالة الفوارق الكثيرة مما كان يمكن به جعل الهند وحدة غير منقسمة ولكنها كانت تجربة جريئة لم تنجح غير أنه كاد يصل الى غايته بسلوكه طريق العدل فى الأحكام مما حببه الى كثير من الهندوس وجعلهم يقابلون حكمه بالرضى فانه ألغى الجزية فى سنة ١٥٦٢ عن الهندوس (وهى ضريبة يفرضها المسلم على غير المسلم) ، فأزال بذلك سببا كبيرا من أسباب استياء العناصر غير المسلمة وزاد فى ذلك فأمر بالغاء الضريبة عن الحجاج الهندوس بحجة أن التعرض لتقييده من الوجهة الدينية أى انسان خطأ واجحاف ولكن هذا لم يمنعه من أن يقف فى سبيل بعض عاداتهم القبيحة فحرم ارتكابها لمنافاتها لمبدأ الانسانية الصحيحة فمنع مثلا .

حرق الأرملة اذا توفى زوجها الهندوسى .

ومنع زواج الأطفال « عادة شائعة فى الهند أن تتزوج بنت فى سن الثامنة مثلا الى رجل فى العشرين »

وأباح تزوج الأرامل بعد أن كان محرماً عند بعض الطوائف .

وحتم فى صحة الزواج ضرورة الرضى والقبول من الزوج والزوجة واجازته من الوالدين

وحرم التحقيق بواسطة التعذيب

هذه بعض اصلاحات أكبر التشريعية بدأها عقب انتهاء عهد الوصاية وذلك فى سنة ١٥٦٠ ثم انه أراد أن لا يستمر اسناد الحكم الى بيرام خان وأن يتولى الأمر بنفسه وقد دفعه الى ذلك ما طبع عليه من نشاط وميل الى العمل والسلطة وثانيهما أنه لاحظ أن بيرام كان شديد القسوة فى الأحكام مما جعله مكروها ومما ساعد على ذلك أيضا أن أكبر كان واقعا تحت تأثير النساء وفى مقدمتهن أمه فى الرضاع « مهام انجاه » فانها ساعدت على ابعاد بيرام خان ولكن أكبر صرفه عن الحكم بطريقة رقيقة اذ قال له إنى صرفت كثيرا من وقتى فى اللهو والصيد وتركتك تحمل أعباء الحكم والآن أريد أن أحمل نفسى هذا العبأ وأن أتيح لك الفرصة التى تمكنك من أن تعيش عيشة هادئة تتناسب مع سنك كما أريد أن أتيح لك فرصة أداء فريضة الحج الى مكه »

وعلى ذلك انقضى عهد الوصاية وترك بيرام الوزارة وفى طريقه أثناء سفره قابله أفغانى من الموتورين منه وقتله وابتدأ عهد جديد فى ادارة الأحكام وكانت فيه الشخصية البارزة هى السيدة مهام أنجاه مرضعته فانها أدارت دفة الأمور باخلاص وكفاءة نادرة ولكن من سوء حظها أن كان لها ابن سىء الخلق اسمه أدهم خان زجته فى مركز رفيع ما كان يليق له فامتلأ غرورا وكان ذا غلظة فى طباعه فتمادى فى غيه الى أن اعتدى على شمس الدين رئيس وزراء أكبر وقتله ثم التجأ الى باب الحرم وكان أكبر فى هذه اللحظة قد رأى بعينه ما وقع فاشتد غيظه من أدهم فتناول سيفه وضربه به ثم أمر أن يحمل وأن يرمى بجسمه من أعلا البناء فمات لفوره

ومما دفع أكبر الى قتل هذا الشرير أنه سبق أن تكررت على يديه المآسى إذ أنه اغتصب احدى نساء « بازبهادر » فلكيلا تسلم نفسها لمغتصبها انتحرت ثم سبق له أن ذهب الى محاربة بعض العصاة فلما استحوذ على بعض النساء كأرقاء اختص نفسه ببعضهن و بعض الأشياء الثمينة مما لم يكن أخذ به أمرا من الملك . ولما علم الملك بأمر الجاريتين اللتين سلبهما استحضرهما وسلمهما الى أم أدهم ليبقيا عندها الى أن يحين الوقت الذى فيه يحقق بنفسه مسألتهما فسممتهما لتحول دون اثبات فضائح ابنها . كل ذلك أقنع الملك أكبر بالتخلص أولا من أدهم وثانية من الحكم النسائى الذى ظهرت مساوئه وصار وصمة لحكمه .

ولما أن قضى على أدهم ماتت أمه حزنا عليه بعد انقضاء أربعين يوما من تاريخ وفاته . و بدأ عهد جديد استخدم فيه أكبر كثيرا من الوزراء ولكنه كان سيد الكل يتولى تصريف الأمور الهامة بنفسه . وحينما حكم الملك أكبر كان حديث السن ولكن يستدل من ثنايا أعماله أنه وصل الى درجة عالية من النضوج الأخلاقى وسمو الفكر فانه حينما ثار عليه وصيه بيرامخان قبل أن يقتل أثناء سيره فى طريقه الى الحجاز هزمه الملك ثم عفا عنه وأظهر له عطفا ونبلا ولما أحضر له هيمو الثائر وطلب منه أن يقتله ليصبح غازيا أبت نفسه أن يقتل أسيرا وترفع أن يعتدى على جريح طريح فدل على طبع طيب إذ سمت نفسه عن أن ينال من خصمه بعد أن صار فى قبضة يده ثم انه مع تقديره العظيم لأمه فى الرضاع ولابنها أدهم خان من أجلها والذى كان مخلصا لأكبر كل الاخلاص رغما عن صفاته السيئة فانه حينما قتل شمس الدين لم يتردد فى توقيع أشد عقوبة عليه وهى القتل فدل بهذا العمل على بعده عن التحيز للمقربين اليه اذا أساؤوا صنعا، ثم إن اجتماعاته كانت كلها من أجل ابتغاء العلم والحكمة حتى صار شخصه منبعا للفضائل ومن صفاته البارزة الاعتماد على نفسه ومما جاء فى وصف ابنه جهانجير له

فى منتصف حياته أنه كان متوسط الحجم طويل الذراعين قوى الجسم أسمر اللون مع اصفرار ، أسود العينين والحاجبين وعريض الجبهه وقال أن صوته كان عاليا ورغما عن أن تعليمه كان سطحيا إلا أن حديثه كان ممتعا وكانت صفاته وطباعه تختلف كثيراً عن صفات غيره من الخلق وكان يعلو هيئته هيبة الهية وكان مواظبا على عمله معتدلا فى شهواته ويصرف وقتـه فى الانـكباب على تصريف الأمور الهامة وإذا نام نام قليلا حتى يخيل لمن يراه أنه كالمتيقظ وكان لا يأكل إلا مرة واحدة فى اليوم ويراعى فى ذلك الاعتدال حتى لا يصل لدرجة الشبع ، وكان ماء نهر الجانجيز شرابه وكان يبرده بملح البـارود وكان يوضع فى أوان ويختم عليه خوفا من السم ، ومن عاداته أنه كان لا يذوق اللحم الا مرتين فى الأسبوع ويكون لذلك كارها ، لأنه كما كان يقول « لا يحب أن يجعل جسمه مقبرة للحيوانات غير أنه لم يجد مفرا من التغذى بها لتعوض جسمه من التعب وكان دائم النشاط شديد الجهد طويله ومغرما برياضة الفروسية كالصيد والسباحة وكان يغوى مطاردة الوحوش كالفيل والنمر وكان منظما لسلاحه ويعطى المدافع أسماء معينة وترك لها تاريخا حفظ فيه ما أدته هـــذه الأسلحة من الخدمات وكان نابغا فى الميـكانيـكا وله عدة اختراعات ، وهو الذى اخترع ماسورة للبندقية من الحديد لا تنفجر ، واخترع جهازا لتنظيف ستة عشر مدفعا دفعة واحدة واخترع طريقة يطلق بها سبعة عشر مدفعا بـكبسونة واحدة وأدخل كثيراً من التحسينات على أشياء متعددة ، وكان (أكبر) أعجوبة من حيث جلده على احتمال المشاق إذ قيل عنه أنه قطع المسـافة بين أجمير وأجرا وقدرها مئتان وأربعون ميلا فى يوم وليلة واحدة على ظهور الخيل وكان يسرع العدو لدرجة زائدة حتى أن كثيرا ما سقطت خيله ميتة من شـدة الارهاق ، وكان مغرما برؤيا المعارك ، حتى أنه أثناء مروره بمدينة « تانسوار » رأى طائفتين من الهندوس دب الخلاف بينهما تسابقا على استحواذ الصدقات التى تعطى فى مولدهم الدينى الذى يقام على بحيرة هنـاك فاستأذناه فى أن يقتتلا طبقا

لعاداتهم المتبعة فصرح لهما بذلك وأوعز الى بعض جنوده فى تقليد الطائفة الضعيفة منهما والاندماج بينها لمساعدتها ودار القتال وقتل الكثير من الطرفين فسر بهذا المنظر سروراً كبيراً ، وكان فى مواقعه الحربية لا ينثنى عن قصده مهما بلغ خطره فقد ثار عليه ضابط أزبكى كبير اسمه « على كولى خان زمان » من أعوان أخيه حاكم خان وسبق أن عفا عنه الملك أكبر وكان من شيمته أن يعفو كثيرا ولكن لتكرر تمرده انقض عليه هذه المرة حتى أنه لم يستطع الاستمرار فى سرعة الهجوم مع الملك غير قوة لاتعدو خمسئة فارس ومع ذلك لم ينتظر حتى تتجمع القوى بل اندفع فى طريقه مقتحما صفوف الخصوم ولما اشتد القتال نزل الملك عن فيله وركب حصانا وأعطي أمراً للفيلة بالمطاردة وكان بها فيل شهير اسمه هرناند فأطلق عليه الخصوم فيلا اسمه ديانا ولكن فيل الملك أصاب منه مقتلا . وأصيب على كولى بسهم فحاول اخراجه وأصيب حصانه أيضا بسهم فجمح به فأدركه فيل اسمه نارسنج ودهسه عندما أسقطه الحصان ثم أحضرت الأسرى فى نهاية الموقعة فامر أكبر بأن تدهسها الفيلة ، وكانت هذه عادة متبعة فى الهند لم يتورع عنها حتى الملك أكبر المشهور برقته ، وكانت تنتاب الملك أكبر نوبات غضب فيرتكب فيها أقسى الأعمال وكان أحيانا وقت غضبه ربما أمر أن يرمى خادم من أعلا البناء إذا هفا هفوة وربما قتل ألفا أو الفين من الأسرى وأقام من جماجمها أهراما وربما كان يعاوده هذا الطبع وراثة عن جدوده جينكيز وتيمور ولكن على وجه العموم فان الرأفة والرقة كانت غالبة على طباعه فى أغلب الأحيان ومما يروى عن شجاعته أن أبناء عمه ثاروا عليه فى سورات سنة ١٥٧٢ ولأنه كان دائما يهاجم خصومه بسرعة البرق فانه وجد نفسه فجأة على ضفة نهر ماهندرى أمام خصومه ولم يستطع متابعته فى السير غير أربعين من رجاله وأدركهم بعد قليل ستون آخرون وبهذه القوة الضئيلة هجم على المدينة بعد ما سبح النهر وكان يقف ازاء كل جندى من رجاله عشرة من جنود خصومه فاعتصم فى مكان ضيق يحيط به شوك ووقف فى المقدمة وبجانبه الراجا بجوان داس

فطاردها ثلاثة من فرسان العدو (لضيق الممر) فاصاب الراجا أحدهم وطارد الملك الاثنين الآخرين ففرا من وجهه واندفع متتبعا للخصوم وتحمست قوته الصغيرة لما رأت الخطر الذى استهدف له ملكهم ففرت قوى الخصوم وعاد الأبطال المنصورون إلى مدينة بارودا ، وفى حروبه من سنة ١٥٧٢ الى سنة ١٥٧٣ عاد فاحتل أحمد أباد وكمباى وبارودا وليس ذلك فقط بل احتل قلعة سورات الشهيرة بمنعتها وكانت معدة لمقاومة البرتغاليين وحينما دخلها الملك اكبر وجد بها مدافع كبيرة عليها اسم السلطان سليمان ملك تركيا العظيم ثم إنه لما احتل قلعة « جوناجار » سنة ١٥٩١ وجد بها مدفعا من مدافع السلطان سليمان اذ حاول اسطوله اقتحام هذا الشاطىء وترك هذا المدفع هناك عند عجزه . وكان وجود الراجا بجوان فى الحروب بجانب الملك أكبر ذا مغزى سياسى عظيم فانه وان كان الملك فقد عطف كثير من المسلمين بل قاسى مناوآتهم له إلا أنه استعاض عن ذلك بما كسبه من ولاء كثير من الهندوس له.لما أظهره من الاعتدال فى معاملاتهم وقد علل بعض المؤرخين ارتماء أكبر فى أحضان الهندوس انه كان نتيجة تألب الكثير من ضباطه الاتراك عليه وقد تزوج بأميرتين من بنات أعمامه وهما رقية وسليمة ولكن تزوج بجانبهما الأميرة الهندوسية ابنة الراجا «بيهارى مال» وقدأنعم الملك على أبيها بأعلى رتبة تعطى لأشراف الدولة وجعله رئيساً على خمسة آلاف فارس وأباح لعروسه وهى ابنة الراجا بأداء فروضها الدينية وقد شجعته على معاملة الهندوس بروح الاعتدال فيما يختص بشرائعهم وقد اكثر الملك من التزوج حتى كان لديه من الزوجات الهندوسية والفارسية والمغولية والأرمينية وحتى حوت سرايه عصبة أمم نسائية .

ومما رواه أبو الفضل وهو أحد العلماء الملازمين لأكبر أن سرايه كانت تحوى خمسة آلاف امرأة وكان من آثار زواجه بالأميرة الهندوسية أنه الغى الجزية المفروضة على الهندوس والضريبة التى كانت تجبى من حجاجهم وكان لالغائهما أحسن الأثر لدى الهندوس الأمر الذى جعل أغلبهم يخلدون الى السكون فى عهده إذا استثنيت بعض حوادث كدرت العلائق بين أكبر والهندوس ومنها

التجاء الباز بهادر إلى أوداى سنج ابن راجا سانجا الشهير فى عهد بابر فلما أعطاه ملجأ وتحدى أكبر قصده الملك بجيش ولكنه اعتصم فى قلعة شيتور الشهيرة التى يكاد يكون اقتحامها عسيرا لموقعها الطبيعى حيث تقع على مرتفع صخرى يكاد يكون قائم الجوانب . مما يجعل تسلقه فى غاية الخطورة ولكن رغما عن كل هذه الاعتبارات فان ذلك لم يكن موئسا لأكبر بل إنه بجلده وفنه الحربى استطاع التغلب على هذه العوائق . هذا بالرغم عن أن حرس القلعة قدره ثمانية آلاف جندى وكانوا يهزأون من القوة التى جلبها الملك وقدرها أربعة آلاف مقاتل بينما كان محيط القلعة يبلغ اثنى عشر ميلا ، فجاء أكبر ببطاريات من المدافع وشرع فى إعداد سبتين (والسبت عبارة عن اختراع خاص بالهنود يستعمل كوقاء للجنود الذين يقتحمون حصناً كحصن شيتور وهو عبارة عن عدة قوائم من الحديد ترتكز على قضبان مستطيلة فوق عجلات أعلاها سقف يقى الجنود من نار الحصون وبذلك يستطيعون الاقتراب من الحصن وفتح ثغرة فيه يدخلون منها دون استهداف للكثير من نار المدافعين أو يمكنهم من لغم بعض الأماكن فى الحصن ولما أتم الملك صنع السبتين بدأ بالهجوم وجلس على سقف أحدهما وصار يشجع جنده على التقدم وكان لا يعادله أحد فى إصابة الهدف فلما رأى جايمال قائد الحصن صوب اليه طلقاً ناريا فقتله واختل على أثر ذلك نظام حامية القلعة ولكنها لم تسلم القلعة أو المدينة إلا بعد قتال على كل شبر أرض منها . غير أن اليوم انتهى بهزيمة الراجبوت وقتل منهم ثمانية آلاف رجل ووقع باقى سكان المدينة فى الأسر ومما يؤثر عن الملك أكبر أنه أقام تمثالين للأخوين الذين دافعا عن القلعة ووضعها على فيلين من البناء أمام باب دلهى اعترافاً منه بشجاعة خصومه . وتلا سقوط قلعة شيتور تسليم حصن رانتامبور وكالنجار وبذلك انتهت فتنة الراجبوت بعد ما أخذوا درساً علمهم أن الخضوع لمثل أكبر أسلم عاقبة لهم وانه لا فائدة من معاداته ولكن أكبر لم يغتر بما أحرزه من النصر بل استعمل حسن السياسة فصاهر أحد أمرائهم راجابيكانير اذ تزوج إبنته فربط برباط المصاهرة أكبر قوة فى الهند

وضمن ولاءها له وصارت قوى أكبر ليست مستمدة من المسلمين فقط بل دخل فيها العنصر الهندوسى ومن بينهم أكبر الشخصيات كراجا بيجوان وتودارمال (الشهير بتنظيم الضرائب) ومانسنج . ولقد بلغت ثقة أكبر بهم أن عهد إلى الأول والثالث محاربة راجا أودايبور فجعل الراجبوت يحاربون الراجبوت وقد حققا ثقته فيهما وتغلبا على خصمه وقهراه حيث فر منهما .

اصلاحات أكبر

أن اندماج رؤساء الهندوس ضمن الهيئة الحاكمة فى الهند كان ظاهرة كبيرة فى عهد أكبر . ولم يكن الملك ممتازاً فى حروبه ولا شجاعته بل كان من هذه الناحية . مثل بعض من سبقه فى الحكم لا يختلف عنهم فى شىء وإنما الذى جعل له ميزة على أسلافه فى الحروب التى وسع بها فتوحاته حتى جاوزت فتوحات علاء الدين ، أنه استفاد من تعضيد الكثيرين من الهندوس دون إرغام منه لهم بل بمحض إرادتهم . ثم مما جعل لفتوحاته وسعة أملاكه قيمة اهتمامه بشؤونها الادارية والمالية وحرصه كل الحرص على استئصال شأفة الحكام الظالمين وكان لا يدع أحداً يستمر فى ظلمه متى علم به حتى أن كثيراً من حملاته العسكرية دفعه اليها إهتمامه بتأديب الحكام الذين استباحوا مصلحة المحكومين وحقوقهم وضحوها فى سبيل مصالحهم الشخصية ، وكان استخدامه لبعض الهندوس سبباً فى رفع مستوى قدرة موظفيه على العمل إذ كان الفريق الهندوسى أكثر خبرة وكفاءة وتعليم من العساكر المأجورين من المغول وغيرهم حتى أنه برزت من الهندوس بعض شخصيات مثل راجاتودارمال الراجبوتى الذى سبق أن خدم فى حداثة سنه الملك شيرشاه واكتسب منه وفى أيامه خبرة نادرة فى تنظيم شؤون ضرائب الأراضى وموارد الدخل الأخرى ، وكان أكبر معضد لمظفرخان وزير مالية أكبر واشترك معه فى وضع الأنظمة التى اتبعت بعد فى فرض الضرائب وتحصيلها فى أملاك أكبر التى فتحها حديثاً كما أنه ساهم فى الأعمال الحربية التى

أشير اليها سابقاً فى محـاربة على كولى‌خان ، وخاض معارك كثيرة فى البنغال وغيرها ، وظهرت فيها كفاءته ورقى الى رتبة وزير مكافأة له ثم إرتقى مرة أخرى حتى صار المدير لبيت مال الدولة . وهو الذى أعاد تقدير الايجارات العقارية ليتيسر فرض الضرائب بموجبها رفعاً للظلم ومنعاً للمحاباة وسار فى كل الوظائف التى تقلدها ورائده المصلحة العامة فوق كل شىء ناسياً فى ذلك مصلحته الخاصة ، تلك هى الشهادة الطيبة التى سجلها له الشيخ أبو الفضل جليس أكبر وكاتب تاريخ الأكبر ناما الخاص بحياة الملك ، واسم تودار أشهر علم يعرف فى تاريخ الهند فى القرون الوسطى بسبب سياسته المالية الحـكيمة ، التى كان لها دخل فى رفع الشقاء عن الهنود بسبب فوضى الأنظمة السابقة ولقد جعل ضريبة الأراضى هى الضريبة الأساسية خصوصاً بعد ما ألغى أكبر الجزية وضريبة الحجاج ونحو خمسين نوعا من أنواع الضرائب الصغرى ، وقد سار فى سياسته على التوفيق بين مصلحتى الفلاح والحـكومة بحيث ترك للمالك ما يكفيه دون إرهاق له ، وقد يرجع الفضل الى شيرشاه إذ كان أول من أعطى التفاتاً وعناية لمسائل المزارعين ومن خبرته استفاد تودار هذه الشهرة الذائعة ، وقد ارتفع دخل ضرائب الأطيان من أيام بابر إلى عهد أكبر من مليونين وستمئة الى ثمانية عشر مليونا وستمئة الف من الجنيهات ، وقد نشأت هذه الزيادة الـكبيرة لا من فداحة الضرائب بل من اتساع المملـكة ومنع المحاباة وضبط العمل .

ومن إصلاحاته أنه ثبت ملـكية المزارعين للأرض بعد أن كانت متزعزعة إذ اعترف لهم بالملـكية ، وفى عهد أكبر ، أزيلت الفوارق بين الهندوس والمسلمين فى رفع الضرائب ولقد سهل أكبر على الفلاحين وسائل الشكاية بعد أن كانت صعبة معقدة ، كما انه كان يعاقب الجائرين أشد العقاب وأنقص نصف عدد الجباة توفيرا لأبواب الصرف وكان يمد الفلاحين بالتقاوى والسلف الزراعية لمن يحتاجها وتجاوز عن المتأخرات التى كانت على الفلاحين إستنهاضاً لهممهم وإحياء لأملهم فى نتائج العمل ، وكان يطالب رؤساء المحصلين بتقديم تقارير وافية عن صغار

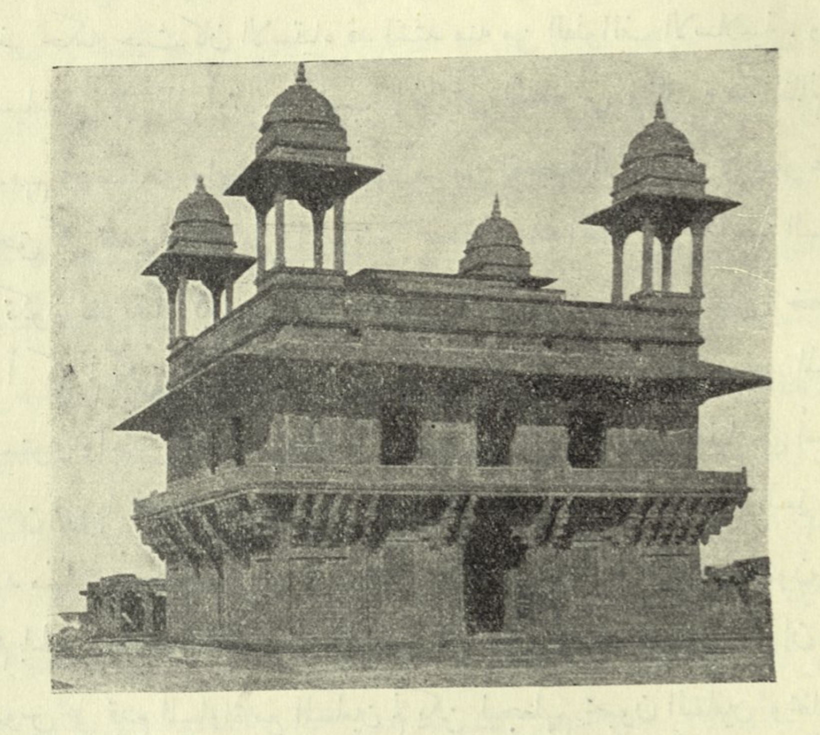
محصلى الضرائب وكيفية سلوكهم وكان يطالب رجال الادارة بموافاته بكل حادث يقع فى دائرة نفوذهم خاصا بما يصيب الأراضى من الغرق والشرق . والآفات الأخرى ليعالج أثرها .

ومما يذكر لأكبر بالفخر أن النظام الذى يسير عليه الانجليز الآن فى الهند لا يختلف عن نظام أكبر إلا ببعض تعديلات طفيفه وكان مما أمر به أكبر أن جميع بيانات الحكومة الخاصة بالمعاملات والضرائب يجب أن تكون مكتوبة باللغة الفارسية (أى لغة الحاكم) لا اللغة الهندية وكان ذلك من أكبر العوامل التى بسببها انتشرت لغة فارس فى الهند .

وقد جرى الانجليز حديثا على نفس هذه الطريقة فجعلوا لغة الحكومة فى الهند هى الانجليزية . ومن أجل هذا أصبح كل المتعلمين فى الهند يعرفون هذه اللغة لأن القائمين بالأمر حتموا أن تكون كل المكاتبات الحكومية بلغة الحاكم الأجنبى .

وكان من أظهر إصلاحات الملك أكبر تقسيمه الامبراطورية الى أقسام صغيرة عين لكل قسم منها مباشرا وجعل من واجبه أن يعمل على تحويل كل الأراضى البائرة فى دائرته الى منزرعة فى مدة لا تتجاوز ثلاث سنين وبذلك أحيي كثيرا من الأرض الموات وزاد فى أرزاق الهند وفى موارد الدولة معا ، ثم إنه وزع مساحات كبيرة من الأراضى على بعض العائلات دون ثمن وفرض عليها أن تقدم جنودا وخيولا وأفيالا للجيش بمقادير عينها تبعا للمساحة .

وأكبر من الشخصيات التى قدرها حق قدرها كتاب أوروبا الذين درسوا المسائل الشرقية واعتبروه مصلحا من أكبر المصلحين وسياسيا فى مقدمة الساسيين ومما جاء تأييدا له قول أحدهم . « نرى فى التاريخ عدة أمثلة لأشخاص استطاعوا غزو امبراطوريات بحد السيف إلا أن تكوين الامبراطورية بالقوة شىء والقدرة فى المحافظة عليها شىء آخر . ولكن أكبر كان من القليلين الذين استطاعوا تكوين امبراطورية واستطاعوا حكمها .



الديوان الخاص للملك اكبر بمدينة فتح بور سكرى

أما رأى المؤرخين الشرقيين اذا استثنينا أبا الفضل كاتب الشاه ناما وكان يعتبر أكبرا المثل الأعلا فى كل شىء . فانا لم نجد منهم إلا انكارهم عليه أشياء كثيرة عدوها من أكبر غلطاته ومن أشدهم لوماله واستياء منه البدوانى المؤرخ إذ كان يعتبره منحرفا عن الدين غير مقدر لعواقب سياسته وخصوصا بعد أن أنشأ ما سماه بيت العبادات (أو الديوان الخاص) إذ كان يجمع فيه الملك رجال الديانات المختلفة من علماء سنيين وشيعة وقسس وبراهمة وغيرهم وكان على رأسهم العالم الشهير والفيلسوف الكبير أبو الفضل وأخوه فيظى شاعر أكبر ، وكلفهم بانتقاء دين بحيث يكون خليطا من كل الأديان وأن يختاروا من كل دين أصلح ما فيه . وغالى أكبر فى هذا المشروع حتى اشتهر عنه أنه كان يغالى فى احترام كل الأماكن المقدسة التابعة لغير دينه ويشاطر أتباعها فى عباداتهم المختلفة مما أثار عليه ضغينة العناصر الاسلامية وإن كان أغلبهم لم يظهر امتعاضه إلا فى

أواخر حكمه حيث كان الاستياء قد اشتد منه من الطوائف الاسلامية . والواقع أن سياسة أكبر التى أراد بها كسب إخلاص الهندوس وذلك برفع المظالم عنهم ووضعهم فى مستوى واحد مع المسلمين أمر من الوجهة الاخلاقية لا غبار عليه بل يستحق كل تقدير وثناء أما إذا تعرضنا لفحص هذه الخطة من الناحية السياسية فقد تكون نظرية أكبر من أخطر المسائل التى أضرت بقضية المسلمين خصوصاً وان أكبر لم يكن عالما أخلاقيا بل حاكما سياسياً فوضعه الهندوس مع المسلمين فى مستوى واحد كان عملا سابقا لأوانه إن لم يكن خطراً . ومبنيا على أسباب لم يحسن فهمها فمسئلة الجزية حينما يدفعها الهندوسى بعد ما يفرضها المسلم كان القصد منها تقوية العنصر الحربى وكان وقتئذ المسلمون هم الذين يقومون دون غيرهم بالحروب وحماية الثغور من الغزات كما حصل فى عهد تيمور ، ثم إن وضع الهندوس على قدم المساواة مع المسلمين لم يكن ليجعلهم يحبون المسلمين ويخلصون لهم بل لو أن أكبر أعطى الهندوس امتيازات على المسلمين فقد يحبه الهندوس وحده كحاكم رفع الظلم عنهم وحاباهم ولكنهم بأى حال من الأحوال لن يحبوا المسلمين فهم لن ينسوا أنهم كانوا غزاة لبلادهم ودخلاء عليهم وبما أن الهندوس كانوا أكثرية كبرى إذ كانت نسبتهم وقتئذ ثمانية إلى واحد من المسلمين فتقويتهم لو استمرت لكانت نتيجتها الطبيعيــــة تمكينهم من التغلب على العنصر الاسلامى ، وليس ذلك فقط بل إخراج هذا العنصر من الهند والقضاء على الديانة الاسلامية وكل أثر إسلامى فى هندستان ، خصوصا وأن الدعوة للدين لم تقم بالحجة والمنطق إلا فى حالات قليلة وكانت فيما عدا ذلك بالسيف والرمح ولم يوجد بيت أو عائلة من الهندوس لم تكن موتورة فى عضو فى أعضائها فلو أن الفرصة سنحت لهم وطال العهد بأكبر حتى يستحوذوا على أكثر وظائف الدولة وتصبح أغلبية الجيش منهم — لو أن هذا تم — لما بقى مسلم واحد فى الهند وما وقع من التخريب للهيا كل والأصنام الهندوسية لوقع أشـد منه على المساجد والمخلفات الاسلامية ولما بقى جامع فى دلهى أو أجرا أو أى مدينة أخرى

ولو طالت الفرصة للهندوس حتى يتمكنوا من رقاب المسلمين لما بقى لأ كبر أو قوم أ كبر أثر على العرش أو خارج العرش ولكانت هزيمة أبدية ، أما الآن وإن يكن خرج الحكم من يد المغول فان المسلمين لم يخسروا معه أملا كهم ولا فقدوا تقاليدهم . والانكليز الذين طردوا المغول من الهند وامتلكوها سيأتى عليهم الظرف السياسى — حتما — الذى بموجبه سيخرجون من الهند كما خرج منها الاسكندر وتيمور وعندئذ تكون الفرص تنتظر المسلمين إذا أمكنهم استغلالها فى المستقبل ، خصوصا وان الحكومات الاسلامية المتاخمة للهند من الشمال والغرب آخذة بأسباب التقدم والقوة وتكاد الظروف تهىء لها الفرصة فيما بعد اذا استيقظت فيها الهمة والأمل بمقدار كاف وذكرت مجد حكامها السابقين كمحمود غزنوى والغورى وبابر ونادر شاه وها هى انجلترا اليوم غيرها بالأمس فانها فيما مضى كانت دولة لا تقاربها فى القوة أو تنازعها فى الصولة أمة أخرى . أما الآن فان الشمس المشرقة شمس اليابان الساطعة التى بدأت تحقق بروجرامها السياسى العظيم وهو تحرير آسيا من النفوذ الأوروبى صارت عاملا كبيراً فى إضعاف انجلترا عن صيانة مركزها فى الشرق . يضاف اليها أسباب أوروبية وهى ظهور دول الفاشست بمظهر القوة التى لا عهد لانجلترا به سابقا مما جعلها لا تطمئن الى مركزها فى أفريقيا ، فسواء أرادت أن تحتفظ بمجدها أو لم ترد فقد صارت مأموريتها فوق طاقتها والذى وقع فعلا في أيامنا هذه من الحوادث السياسية العظيمة كامتلاك إيطاليا للحبشة وألمانيا للنمسا وتفوق الحليفتين فى مركزهما الحالى باسبانيا ثم ظهور الدولة اليابانية بمظهرها الأخير واحتلال منشوريا بعد كوريا ثم احتلال ولايات الصين الشمالية وفيها من ثروة الصين المعدنية ما يقدر بثمانين فى المئة من مجموعها ثم الاستمرار فى غزو الصين واحتلال شواطئها ووقوف انجلترا موقف المتردد مع أن لها من المصالح والثروة التجارية بما يقدر بثلثمئة مليون من الجنيهات فى شنغهاى وحدها — كل هذا من علامات الضعف المؤذن بزوال مجد انجلترا — فأين نحن الآن من العهد السابق الذى ، كان فيه الأمر

للانجليز ولم تكن أى دولة فى العالم تستطيع أن تحدث تغييرا فى سياستها الخارجية دون رضى منهم وأين نحن من الزمن الذى كان فيه الجنرال الفرنسى مرشال يدخل فاشودا قبل الانجليز ويرفع راية فرنسا عليها فيأتى انجليزى ويأمر بانزال هذه الراية وتخضع فرنسا ، ثم تجىء الروسيا بما لها من قوة وجيوش تحارب تركيا وتهزمها وتكاد تحصل على حلمها القديم وهو منفذ على البحر الأبيض المتوسط فتأتى انجلترا وتضطرها للرجوع خائبة وتحرمها من ثمرة غزوها ، ثم يجىء موسولينى فى أوائل أمره ويقع فى خلاف مع دولة اليونان الصغيرة ويفرض عليها غرامة ويحتل بعض جزرها فى مدخل الادرياتيك فيصله انذار من الانجليز بأن يعدل عن خطته وكل ذلك فى أربع وعشرين ساعة — يرضخ ويسلم بالأمر دون أى اعتراض ثم تدور الأيام دورتها ويشرع الدوتشى فى القيام بأعمال جريئة تهدد مصالح انجلترا مالياً وسياسياً وذلك بامتلاكه بلاد الحبشة فتؤلب عليه انجلترا عصبة أمم وتهدد ثم لا تفلح فى سياستها ولا يجوز تهديدها ثم تدخل الحبشة ضمن امبراطورية الرومان الجديدة فلا تصادق انجلترا ثم ترجع وتصادق تحت ضغط ايطاليا التى زجت بنفسها أخيراً فى اسبانيا وقطعت لانجلترا عهوداً وللآن لم تبد اكتراثا لانجاز ما وعدت ثم يجىء هتلر ويضم النمسا فى أربع وعشرين ساعة وقبلها كانت انجلترا وحليفتها فرنسا لا تسلمان بهذا العمل ولكن سرعان ما خضع الانجليز للأمر الواقع وتنازلوا عن عهودهم للنمسا ولقد نشأ قديماً عند انجلترا حب إملاء إرادتهم على الغير حتى أصبح طبيعة لازمة فى كل مكان من أجل هذه العادة الغريبة وقع لولاية فلسطين الجرداء ما هى فيه من محنة الآن فان هذه الدولة التى غوت فرض ارادتها لما عجزت عن تحقيقها وفشلت شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا اختارت هذه البقعة الضعيفة لكي تجرد بأسها المقهور فى الصين والحبشة واسبانيا والنمسا ومازالت مستمرة فى غيها فى خدمة اليهود واتحدت معهم لمحاربة هذه الفئة القليلة من العرب وسارت فى طريقها تهدم منازل الساكنين وتروع القوم الآمنين وتجرد المالكين وتقتل نفوسا حرم الله قتلها الا بالحق وهذا من أوضح العلامات

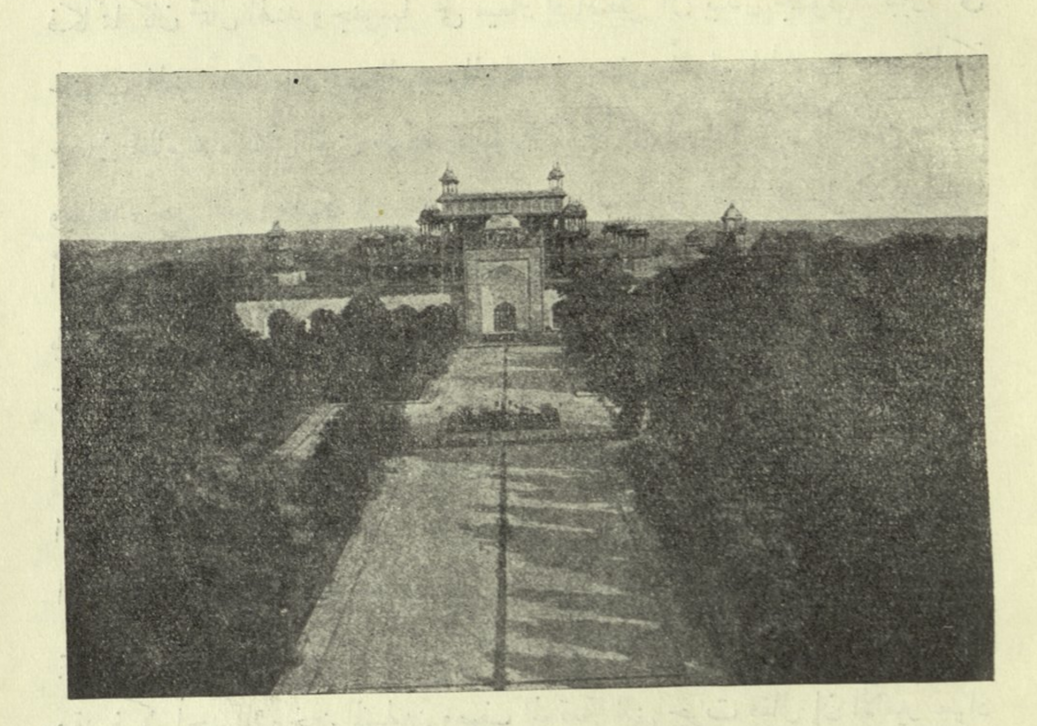
الدالة على انحلال هذه الدولة وتشمبرلن ذلك الذى يدعى أن استسلامه انما جاء حبا وتأييداً للسلم لم يظهر منه هذا الحب ولا هذه الرغبة الشريفة فى مسألة فلسطين فدل بذلك على أن المسألة لم تكن منه حباً للسلم بل عجزاً واضحاً وجبنا فاضحا إذ لو كان السلم غايته الشريفة فلماذا احترمه أمام الأقوياء ونبذه أمام الضعفاء ولكن فلسطين هذه الضعيفة التى رويت أرضها بالدماء لها أمم اسلامية تعطف عليها والمسلم أخو المسلم وستكون مسألتها الباعث الاكبر على الانتقاض على انجلترا فى ظرف قريب ولن تفلت اليابان الانتفاع بهذه الفرصة إذ ستستغل هذه الضغينة المتقدة ضد انجلترا من سواحل البحر الأبيض إلى جبال الهملايا ومتى اشتبكت انجلترا فى حرب أوروبية أو غير أوروبية فستظهر حركة عدائية للانكليز فى شمال الهند خصوصاً وان مركز الانجليز فى الهند يعادل تماما مركز المغول الذين سقطوا فى الهند لأنهم لم يعتمدوا فى حكمها على جيوش مغولية وكذلك الانجليز الآن يعتمدون فى حكم الهند على جيش من الهنود الذين تتأجج فى قلوبهم الضغائن الكامنة فهى واقعة فى نفس الغلطة التى جلبت على الحكم المغولى أسباب انقراضه .

بعد هذا التعليق الذى لم أجد منه مفرا لأن أسباب خروج الانجليز متوفر فيها الأسباب عينها التى قضت على المغول يضاف اليها العوامل الخارجية التى سبق ذكرها وشرحها ونعود الآن إلى باقى سيرة الملك أكبر

فى الثلث الأخير من حياة أكبر ثارت عليه موجة استياء مع انتقاض فى أماكن كثيرة سببت له سلسلة حروب وأغلبها مع الأمراء المسلمين ومنها اعتداء مرزا محمد حاكم والى أفغانستان إذ غزا شمال الهند واستمر فى زحفه إلى مدينة لاهور سنة ١٥٨١ لكن حينما قابله جيش الامبراطور تحت قيادة الأمير مراد الاسمية (ابن أكبر) ارتد إلى كابل ولكن الجيش الامبراطورى استمر متعقبا أثر المعتدين حتى كابل فى سنة ١٥٨٢ وكانت هذه أول مرة زار فيها هذا الأمير هذه العاصمة من أيام طفولته ، وفى خلال مدة المعركة بنى اكبر حصن آتوك على نهر السند وبذلك استطاع الاشراف على الجزء الأعلى من النهر وفي سنة ١٥٨٤

مات مرزا محمد أكبر ويقال ان الذي عجل بوفاته اعتياده على كثرة شرب الخمور الشديدة كـكثير من أمراء عائلة تيمور وعند موته أوفد الملك راجا بيجوان ومان سنج وقد عين الاخير واليا عليها وهذه أول مرة فى تاريخ المغول عين فيها والى هندوسى على ولاية إسلامية وجلس فى كابل وفى سنة ١٥٩١ أخضع خان الخانات مرزا عبد الرحيم بن بيرام خان (الذى عين مكان أبيه) ولايات السند الجنوبية التى كانت ثائرة تحت زعامة جانى بج وكان فى خلال هـذه الثورة وقبل أن يتم اخمادها قد اندلع لهيب ثورة أخرى فى شمال الهند فى المقاطعات والأماكن الجبلية على أثر دعوة دينية قام بها أحد رجال الدين اسمه الشيخ « بايزيد » وبثها بين القبائل وكان الغرض منها الجهاد فى سبيل الله ضد الـكفار أولاونشر التعاليم الشيوعية وقد ادعى الشيخ بايزيد المهدوية فزاد ذلك الثورةلهيبا وتولى الدعايةبعده ابنه جلال الدين وكان لايزال ولدا حديث السن وفى عهده اتحدت أغلب قبائل الشمال وأيدته فى دعوته وصاروا بذلك خصوصا أقوياء لاسيما وإن جميـع القبائل دخلت ضمن الاتحاد فيما بعـد سواء كانت شيعية أو سنية وتوحد المجهود ضد قوى المغول فأوفد الملك زين خان كوكو « وأمده بالقائد أبى الفتح والراجا « بيربول » فلما كان مركز جيش المغول فى السهل كان بمأمن إلا أنه حينما حاول اقتحام الجبال العالية عاد ذلك بالوبال على الجيش فقد وقع فى كمين وانهال عليه المقاتلون بالسهام والأحجار من الأماكن العالية فخسر الجيش ثمانية آلاف جندى وذبح بيربول ولم يستطع زين خان وأبو الفتح الرجوع إلى حصن أتوك إلا بعد فناء الجيش وقد أزعجت هذه الأخبار الملك أكبر فأوفد راجا تودارمال ومان سنج فلم يفلح ولـكن الأمبراطور تولى الأمر بنفسه وكان كلما تقدم مسافة قصيرة بنى استحكامات بها للاعتصام فيها وللمحافظة على مايكون استرده وبذلك استطاع أن يعيد كابل ولم يقض على هذه الحركة الدينية إلا فى سنة ١٦٠١ حيث قتل زعيمها فى مدينة غزنة وكانت جيوش أكبر خلال هذه الحروب موزعة فى عدة أماكن فاحتلت ولاية كشمير وصار مولعاً فيما بعد بالاقامة فيها والتردد كثيراً عليها لـكثرة

الأشجار وجمال الطبيعة هناك ثم إن كشمير سارت محلا مألوفا لمن جاء بعد أ كبر من الملوك ومن بين من أغرم بها جهانجير ابنه . والانجليز فيما بعد إذ اتخذوها مصيفا لهم .



مقبرة الملك اكبر

الديكان

في جنوب الهند ساهمت ولايات الديكان في الثورة والخروج على أكبر فكأنما كان شمال الهند وجنوبها على ميعاد إذ اضطر أن يبذل مجهوداً كبيراً في جنوب الهند أيضاً ويرجع السبب الى اعتداء بعض أمراء الجنوب على مملكة برهان نظام شاه الثاني الذى طرده خصومه فالتجأ الى الملك أكبر فأحسن مقابلته وساعده حتى استرد ملكه فى سنة ١٥٩٠ وفى السنة التى تلتها أرسل الامبراطور أكبر سفراء من قبله الى ملوك الجنوب فى الديكان يطلب منهم الاعتراف له بالسلطة والسيادة عليهم ولكن عاد له السفراء برفض طلباته ما عدا السفير الذى توجه إلى ولاية كندس الذى كان واليها الراجا على خان وعلى أثر فشل مهمة السفراء أرسل أكبر الأمير مراد ابنه صحبة جيش تحت قيادة خان الخانات ابن بيرام فحاصر الاثنان مدينة أحمد ناجور ولكن قام بأمور الدفاع عن هذا المكان الأميرة المسلمة « شاندى بيبى » إحدى أميرات بيجابور والتى أثبتت بما أبدته من الشجاعة والمهارة أن المرأة المسلمة ليست أقل شأناً من المرأة الراجبوتية وقد ذكر أحد المؤرخين المسلمين وصف الموقعة التى جرت فقال إن الأمير مراد يؤيده صادق محمد خان كان يغار من خان الخانات فأمر الأول بالهجوم دون أن يخبر الأخير ليكون له فضل احتلال المكان بمفرده فأشعل خط الألغام الذى كان وضعه لنسف الحصن فانفجر من هذه الألغام ثلاثة فقط وأحدث انفجارها ثغرة فى سور المدينة اتساعها ثمانين قدما وانتظر المغول حتى تنفجر الألغام الباقية لكى تحدث أثراً كافياً ولكن من فى المدينة من الحامية تمكنوا من افسادها قبل اشتعالها وتكاثروا حول الثغرة واستماتوا فى الدفاع عنها وخرجت الأميرة « شاندى بيبى » ويغطى وجهها النقاب وأمرت باطلاق المدافع وقذف الأحجار على رؤوس المهاجمين فصدتهم فى عدة كرات هجموا فيها وفى أثناء الليل وقفت بجانب العمال ولم تبرح مكانها حتى سدت الثغرة بالبناء والأخشاب والأحجار وجثث القتلى والتراب إلى أن صار ارتفاعها تسعة أقدام وبعد ارتداد جيش الأمير

فتحت المفاوضات للصلح وانتهت بأن يستبق الأمير مقاطعة بيدار الصغيرة التى سبق له اجتياحها على أن تستبق الأميرة « شاندى بيبى » أحمد ناجور وعلى أثر ذلك أعفت الأميرة نفسها من الحكم وتنازلت لأخيها الصغير الأمير بهادر نظام شاه حفيد برهان نظام شاه الذى مات قبل وقوع هذه الحرب ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد كبير وزرائه الذى سلك مسلكا أثار الحرب من جديد وانتقضت بذلك أسباب الصلح واضطر عبد الرحيم خان الخانات أن يواجه جيشين فى دفعة واحدة : أولهما من احمد ناجور والثانى من بيجابور وخاض موقعة «أشتى» فى سنة ١٥٩٧ وكانت من أشد الوقائع هولا فان سهيل خان الذى كان يقود جيوش بيجابور أرغم الجيش الذى يواجهه تحت قيادة راجا على خان أمير كندس الى الفرار وكاد القائد يقع قتيلا ولما أرخى الليل سدوله أوقد سهيل نورا فرأى خان الخانات جيش خصمه فامر باطلاق المدفعية فاضطرب جيش سهيل من هذه المباغتة وأدرك سهيل السر فى ذلك فامر فوراً باطفاء الأنوار وغير موقعه ليتفادى طلقات مدفعية الخصوم وشرع الجيشان المتقابلان يستعدان للقتال عند الفجر وافتتح سهيل الموقعة وخاضها باثنى عشر ألف خيال وكانت موقعة على جانب عظيم من الشدة وقد اظهر فيها سهيل آيات الجلد والشجاعة ولما طال الأمد وكان قد أصيب بجروح متعددة انتابه ضعف شديد من نزيف الدماء فسقط من حصانه على الأرض وأدركه بعض أعوانه وحمله بعيداً وكما هى العادة تشتت جيشه بسبب انقطاعه عن الموقعة لاصابته فاستفاد خان الخانات وصار سيدا للموقف ولكنه لما كان فى حالة لاتسمح له بمتابعة الفارين فقد عاد بجيشه الى شاه بور وتجدد القتال ثانيـة حينما حاصر المغول بهادر خان فى قلعة عسير وهى ذات منعة شديدة وقد قاومت الخصوم سنة كاملة فلما امتد زمن حصارها جاء أكبر ليستنهض همم المقاتلين ولأنه ظن فى بعض قواده تعمد التراخى ولم تسلم هذه القلعة إلا لما تجمعت فيها عوامل الخيانة وانتشرت بين حاميتها الأمراض الفتاكة ووقعت المجاعة بسبب نفاذ القوت وأخذ بهادر أسيراً فى سنة ١٦٠٠

وأرسل الى سجن «جواليور» وفى خلال هذه المدة عادت الأميرة المسلمة الشهيرة شاندى بيبى إلى الحكم فى أحمد ناجور ولكن بكل أسف اتهمت بانها على اتفاق سرى وأنها تواطأت مع المغول فقتلت ، ولما علم المغول بذلك عادوا الى محاصرة احمد ناجور فلم تثبت على الدفاع إلا قليلا وسلمت فى سنة ١٦٠١ . ومن هذا العهد فقدت هذه المدينة كل ظل فى الاستقلال ولكن الولاية ثارت وبقيت فى ثورات متقطعة لمدة أربعين سنة وعين الملك ولديه مراد ودنيال على ولاية جوجيرات وولاية الديكان ولكنهما ماتا بعدمدة قصيرة من تعيينهما بعدأن فقدا كل احترام يليق بمركزهما ويعزى سبب وفاتهما الى افراطهما الزائد فى تعاطى المسكرات ولم يبق للملك غير ولد واحد اسمه سالم والأسباب التى دعت إلى تسميته بهذا الأسم ترجع الى أن أكبر قضى نحو أربعة عشر عاما لم يرزق فيها بولى عهد وكان قلقه شديدا من هذه الناحية وكانت جل أمانيه أن تسوق له العناية ولدا فان الأطفال الذين رزقهم ماتوا جميعا ومن أجل هذا كان يكثر الزيارات للاولياء والصالحين (توسلا وتبركا) واتفق أنه زار عند مدينة «سيكرى» شيخا أسمه سالم الشيشتى اشتهر بالتقى والورع ، وعاش عيشة الناسك يقيم هناك في إحدى المغارات بمفرده فلما مر عليه الملك ورآه الشيخ بشره بغلام سيعمر طويلا ، فولدت له الأميرة الهندوسية غلاما سماه سالما وصار هذا الغلام امبراطوراً للهند على أثر وفاة أبيه وهو المعروف بجهانجير ، وكانت ولادته سببا فى تعمير مدينة سيكرى وسميت « فتح بورسيكرى » وقد اعتاد الامبراطور أن يتردد عليها كثيراً وبنى بها العظماء بيوتا وكانت أحسن مدن الهند بناء وحسن رونق وكانت بالنسبة للهند ما كانت عليه « پومبى » أيام امبراطورية الرومان وما زالت هذه المدينة أن تنطق بأن هذا العالم كطيف خيال . ومحيط بنائها يبلغ سبعة أميال ولها سبع بوابات كبار وبها قصور على أكبر درجة من الذوق والتنميق فى حسن زخارفها وزينتها وبها مسجد عظيم بنى كله من الرخام النقى الناصع البياض وبجانبه معبد للشيخ سالم من نفس هذا الرخام ، وقد زارها سائح انجليزى بعد موت

مؤسسها بسنين قلائل فوجدها خرابا وأن من الخطر أن يمر بها انسان ليلاً وما زالت مهجورة إلى وقتنا هذا وصارت تعتبر آثاراً ومع أنها فى بهائها كانت كقصور فرساى (بفرنسا) إلا أنه لم يحاول حاكم أن يسكنها بعده وكذلك لم يخلق بعده من كان من طبقته من حيث عظمته وذوقه غير أن الزمن تنكر لهذ الملك العظيم وجعل آخر عهده بالحياة أياما سودا حالكة حتى صار ينطبق عليه قول الشاعر .

المرؤ يأمل أن يعيش ... وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى ... بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى ... لا يرى شيئاً يسره

وكيف لا تكون أيامه الأخيرة جهداً وشقاء وقد رأى فيها انتقاضا عليه لم يره فى بدء حياته ثم أنه مات له ولدان وهما مراد ودنيال ولم يعش له غير ابنه الذى كان دائم النفور منه وهو سالم وقد كان أكبر مغرما جداً ببعض الشخصيات من حاشيته وكان لا يرى العيش يطيب إلا بهم غير أنه فجع فى أغلبهم وعاش بعدهم ليحزن عليهم وعلى ولديه وفى مقدمة من رزىء فيهم الملك الشيخ أبو الفضل صاحب كتابى الأكبر ناما وعين الأخبار ونظر الغرابه قصة قتله وما يستخلص منها من المعانى التى تفيد فى شرح الأثر الذى تركته أعمال أكبر الدينيه فسنذكرها وهى كما يأتى :

كان الأمير سالم بن أكبر موضع سخط أبيه وكان يعتقد كل الاعتقاد أن الكراهية والبغضاء التى يحملها والده له هى نتيجة تحريض الشيخ أبى الفضل لدى والده وقد خشى سالم العواقب إن استمر الحال على ما هو عليه ففكر فى قتله خوفا من أن ينجح لدى والده فى إقناعه باسناد العرش إلى حفيده خسرو متعديا لسالم فقرر أن يقتله ليكون بمأمن من دسائسه فاتفق أن الملك أكبر أوفد الشيخ أبا الفضل فى مأمورية إلى ولايات الديكان فنى أثناء عودته كان الأمير سالم اتفق مع أحد الأمراء الهندوسيين على أن يقتله فقام هذا الهندوسى بمأموريته دون تردد

وكان يجدر بمثله أن لا يطيع هوى الأمير ولا ينقاد له فى هذه الأغراض الشيطانية خصوصاً إذا كان الذى سيقوم بقتله هو الشيخ أبو الفضل لأنه كان حر التفكير إلى درجة متطرفة جلبت عليه سخط كل مسلم تقي . علاوة على أنه كان أول المؤيدين بل ربما أول المحرضين لأكبر على انتهاج سياسة حسن التفاهم وحسن المعاملة للهندوس فكان قتله رداً مقنعاً على فساد نظرية أكبر لأنها إن دلت على شيء فانما تدل على شىء فانما تدل على أن كوا من الحقد فى قلوب الهندوس لا يطفؤها حسن المعاملات ولا إسناد الوظائف اليهم ولا مساواتهم بالمسلمين ولولا ذلك ما قدم الهندوسى على قتل الشخصية التى كانت تعمل على انصافهم ووضعهم فى مستوى أرفع فى حياتهم .

الهند للهنود

قبل أن نختم حياة هذا الرجل العظيم يجب الاعتراف له بأنه كان أول شخصية فى الهند شعارها الهند للهنود .

نعم أخفقت غايته الشريفة ولكن لم يكن الذنب ذنبه بل ذنب الهنود أنفسهم فالهندوس أساءوا استغلال ديمقراطيته والمسلمون أعمتهم عصبيتهم ومنعهم تعصبهم عن أن ينتهجوا طريقا يوفقون فيه بين مركزهم الدينى والطائفى وواجبهم الوطنى كهنود ، وكفى أكبر نبلا وشرفا أنه أول من جعل شعاره «الهند للهنود» حتى وإن لم يكن حققه وكفاه فخراً أنه كان سباقا للخير عاملا له جهده حتى كتب التاريخ عنه أن مغوليا قام وجلس على عرش الهند وصار هندى النزعة وشعاره « الهند للهنود »

جهانجير

١٦٠٥ — ١٦٢٧

فى نهاية القرن السادس عشر ابتدأت السير والروايات تنتشر فى أوروبا وغيرها عن ملك استطاع أن يخضع جميع أقطار الهند إلى سلطانه وأنه يسلك طريق العدل والحكمة فى إدارته وأحكامه وأنه أظهر من الاعتدال والمساواة مايسجل له بالمديح ولو أن حاكما آخر قيس به لكان دونه وقد أكد الذين رووا هذه الاخبار فى أوروبا لسامعيها أن المسيحيين إذا توجهوا اليه فانما يلاقون إكرامه وترحيبه وقد بلغ من حبه لهم أنه تزوج زوجة مسيحية . بمثل هذا وصف حكم الجالس على عرش الهند فنشأت فى الكثيرين الرغبة فى السفر الى تلك الأقطار النائية بعضهم بقصد التجارة وبعضهم للزيارة ونشر الدعاية للدين المسيحى وكان ضمن من ذهبوا فريق من الانجليز وكان ماعرف عن الهند وقتئذ يكاد لايذكر وكل ماعرف كان قاصراً على بعض معلومات خاصة ببعض الثغور يضاف اليها ماعرفه بعض المرسلين البرتغاليين فى أوقات دعايتهم وكانت سيرة الملك الجذابة سببا فى جلب الأوروبيين ونشطت حركتهم شيئا فشيئا حتى تكالبوا على هذه البلاد وتطورت غاياتهم من تجارية الى سياسية ترمى الى التهام هذه المناطق الواسعة الوفيرة الخيرات والاتجار ومشاركة أهلها فى أرزاقهم فكانت فاتحة عهد جديد عهد غزو واعتداء ، عهد نهب واستنزاف ثروة وكانت أول بعثة أوفدت من انجلترا فى عهد أكبر يرأسها البحار المشهور هوكنز ولكنه وصل بعد موت الملك الموفد اليه بسنتين وكان يقود مركبا اسمها « هكتور » تابعة لشركة الهند الشرقية (البريطانية) ووجهتها سورات وكان القبطان يحمل خطابات من جيمس الأول ملك انجلترا الى ملك كمباى الهندى فوجد أن ملك كمباى انتهى أمره وصارت ولايته تابعة للمغول جهانجير فلما رأى أن الرحلة ستأخذ وقتا طويلا ذهب بسفينته الى ميناء آخر ببعض المتاجر فقابلها أسطول برتغالى وأسرها

فلما تكلم القبطان الانجليزى باسم ملكه محتجا قوبل بالاحتقار والسخرية وقال له الضابط البرتغالى «ان صاحب الجلالة ملككم لم يكن إلا حاكما لبعض صائدى السمك فى جزيرة صغيرة لاأهمية لها » ثم أعطى انذارا للانجليز بأن لايعودوا للاتجار فى هذه المنطقة من البحار مالم يكن لديهم رخصة من ملك البرتغال لأنها تابعة له . وهذه كانت أولى مقابلات هوكنز ولما دخل الهند لاداء رسالته الى امبراطورها قابله عدةمواطنين هنود من ذوى الاطماع فلم يستطع تنفيد غرضه إلا بعد أن استعان بالهدايا الثمينة التى أعطاها الى الوالى الذى تفاهم معه بالتركية وكان يجيدها هوكنز ، وبعد سفر كله مشاق وأخطار وصل الى أجرا وقابل جهانجير وكانت المقابلة ودية وحصل على الاذن للانجليز باقامة «فاوريقة» فى سورات وبالاتجار ولكن سرعان مااستطاع البرتغاليون التأثير على حاشية جهانجير فجعلوه يلغى الاذن ولكن هوكنز بدوره وبوساطة الهدايا استطاع اكتساب مركز ممتاز لدى ملك الهند حتى أنه أبقاه عنده ومنحه لقب الخان الانجليزى وأعطاه قيادة أربعمئة فارس وجعل له مرتبا سنويا قدره ثلاثة آلاف ومئتان من الجنيهات ، ولم تكن هذه الزيارة ميمونة بل كانت فاتحة شرعلى الحكم المغولى فيما بعد فانه لم يمض إلا قرنان ونصف إلا وتغلب الانجليز على المغول وسلبوا عرشهم وقد كتب هوكنز مذكرات ربما كانت من أصدق ما كتب عن جهانجير فقال إن ايراده يبلغ خمسين مليونا من الجنيهات وجيشه ثلاثمئة الف مقاتل يصرف عليهم طبقة من الأشراف عينهم لقيادة جيشه وجعل لهم مرتبات وايرادات يتناولونها للصرف منها على الجند وما يتبعهم من دواب وسلاح ومؤونة وكان فى بيت المال كثير من التحف الغالية ومن بينها خمسمئة قدح صنعت من حجر الياقوت وكان لديه من الخدم و « السياس » والبستانيين ما يقدر بستة وثلاثين ألف شخص ويقتنى اثنى عشر ألف فيل ومنها ثلاثمئة لركوبه الخاص وبلغت نفقات سراياته فى اليوم الواحد خمسين ألف روبية للرجال وثلاثين ألف روبية للحريم ويبلغ مقدار ذلك فى السنة مليونا وسبعمئة وخمسين ألفاً من الجنيهات .

ومما ذكر هوكنز أن الملك لم يكن محبوبا بين رعاياه لقسوته الشديدة عليهم وكان الهندوس يتهمونه بأنه يؤثر مصالح المسلمين على مصالحهم على عكس ابنه فيما يتعلق بالوظائف والمعاملة . وكان مما يسر له جهانجير أن يرى تنفيذ حكم الاعدام ورؤيا الافيال حينما تقطع من حكم عليهم إربا وكان مغرما بمنظر قتال الأفيال مع بعضها ويخصص أحيانا خمسة أيام فى الأسبوع لذلك ويقال عنه أنه قتل سكرتيره لمجرد شك فى اخلاصه دون تحقيق وأنه قتل خادما لانه كسر آنية ، ومما كان يدخل السرور على قلبه إحضار بعض الرجال ثم يطلق عليهم فى مكان محصور بعض الوحوش كالسبع ولايبرح المكان حتى يظفر برؤية الرجل مقطعا اربا ويضاف الى قسوته طمعه الزائد وشدة أحكامه فجنى بذلك ثمرة استيائهم منه إذ انتشر فى أيامه اللصوص وقطاع الطرق واشتد الهياج فى البلاد وكان يظهر فى الصباح إلى رعاياه لكى يسلموا عليه ثم ينام مدة ساعتين ويطلب بعدها الغداء ثم يعود الى الحرم ويمكث الى الساعة الثالثة ثم يخرج ليرى قتال الافيال وبعض الالعاب الاخرى ، ثم يحيط به أشراف أجرا ويؤدون له فروض الاحترام ويسمع شكاية الشاكين ثم يصلى ويتناول عشاء من خمسة أصناف لايأكل منها إلا قليلا ويفرط فى الشراب المسكر ثم يدخل « صالونا » لايصحبه اليه إلا من يعين اسمه وفى هذا الوقت يشرب خمسة كؤوس من الخمر وهو المقدار المصرح به من الطبيب . وكان هوكنز ممن يلازمونه ورآه فريسة للافيون إذ يتعاطى منه الى درجة التخدير الشديد فيتركه من معه فينام وينبه بعد انقضاء ساعتين فيعود ثانية لتناول قليل من الطعام ولا يكون لديه وقتئذ القدرة على تناوله فيتولى ذلك أحد خاصته كما لو كان طفلا (فما أشد أثر المخدرات وما أشد عبثها) ويعود بعد ذلك فينام ثانية الى الصباح وهكذا كانت حياة ابن أكبر ووارث عرشه وقد كان فى مدته يقاسى مستخدموا شركة الهند كل إهانة ولم ترع لهم كرامة وفى كثير من الاحوال كان يطردهم البوابون دون أن تنظر شكواهم إذا رفعوها للملك وكثيرا ما كانت تسرق بضائعهم

وأمتعتهم بل وكان بعضهم يسجن ويجلد ولما رأت الشركة سوء الحال انتدبت عنها السير توماس رو للدفاع عن حقوقها وجاءه تصديق ملك الانجليز على تعيينه وكان على جانب عظيم من العلم والكفاءة وحسن التربية وذا شخصية بارزة تفرض احترامها فى أشد المواقف فلما توجه الى سراى المغول لأول مرة أثار شكاوي الشركة بلهجة اكتسبت احترام سامعها وقال إنه جاء يمثل ملك انجلترا وهو ملك قوى وحر لا يقبل لأحد من رعاياه هضما ولا ظلما وسمع كلامه من الوزير بشىء من الاحترام والاصغاء. وهذه أول مرة استعملت فيها لغة شديدة من أوروبى وقبلتها حكومة الهند. واتفق له مرة أخرى أن نزل بمدينة سورات ومعه حاشيته وأمتعته فأوعز الحاكم لرجال الجمرك تفتيش هذه الأشياء فقامت قيامته واعترض أشد الاعتراض على تفتيشه لكونه ممثلا للملك ولهذا يجب أن يكون معفيا من التفتيش عملا بالتقاليد ولما كانت هذه إهانة فانه لا يقبلها ولو أدى الأمر للموت واستطاع أن يخيف الهنود لأنه أخرج صندوقا به مسدسات وقال إنه لا يتردد فى استعمالها إذا اضطر لذلك مما جعل رجال الجمرك يتساهلون معه وتلك أمور لو صح وقوعها فى ذاك الوقت مع ما كانت عليه حكومة الهند من القوة التى تستطيع بها دفع مثل هؤلاء الأجانب بسهولة فانها تكون قد مهدت السبيل لهم فى اكتساب مراكز ومعاملات ممتازة مما ساعدهم فيما بعد على التغلغل فى الهند واكتساب السيادة فيها. ومما كان يحاوله السير توماس رو سعيه لدى حكومة الهند فى كسب امتيازات مثل التى أعطتها تركيا للأجانب الذين نزحوا لبلادها للتجارة. فكانت كالغل فى عنق الأتراك بعد عهد سليمان القانونى ونشأ عنها ضرر شديد حينما ابتدأ الضعف ينتاب تركيا. وقد امتدت مضار هذه الامتيازات إلى مصر ولا زالت ترزح تحت أثرها السىء وإن كانت ألغيت بمعاهدة منترو التى عقدت بين مصر والدول الأجنبية بواسطة صاحب المقام الرفيع مصطفى االنحاس باشا فى عهد صاحب الجلالة الملك فاروق.

لم ينجح السير توماس رغما عن سعيه فى كسب هذه الأمتيازات لأن الهنود

كانوا وقتها قليلى الاختلاط بالأجانب ولذا اتقوا التورط معهم فى مثل هذه المعاهدات الضارة لكنه عرف أن يستعيض عن ذلك بوسائل أخرى فأوجد بينه وبين حكام الهند مودة ومجاملات قامت مقام المعاهدات التى كانوا يخشونها كثيرا ولهذا كان يلجأ الى استصدار أوامر مؤقتة ومحدودة المدة فى مسائل التجارة .

ومما نجح فيه أنه صار يعامل معاملة البرتغاليين الذين كانوا يتمتعون بشىء من الرعاية الخاصة وفى مذكرات للسير توماس رو مديح كثير لجهانجير لما طبع عليه من الرقة وحسن المعاملة رغما عن بعض الحماقات التى كانت تصدر من بعض الموظفين عن جهل أو طمع . ومما أشار اليه أيضاً أن والى سورات حافظ دائما على وعوده مع الانجليز وشهد أن معاملة الأجانب كانت حسنة على العموم ولم تكن تقسو معاملة الهنود لهم إلا في بعض الحالات التى كانوا يتوسمون فيها استخراج الهدايا بالخشونة . ومما لفت اليه السير توماس رجال الشركة ملاحظته أن البحارة الانجليز وبعض عمال الفاوريقات كانوا يكثرون الشجار والصخب وانتقد مثل هذا السلوك وقال عنه إن التجارة بوسائل العراك والعنف لا تسود ولا تخطو إلى الأمام كثيرا وهى خطة تتناقض مع حسن المسعى والنجاح ، ومما دلل به على صدق ملاحظاته سوء العلاقة الواقعة بين الهنود والبرتغاليين والهولنديين لمحاولتهم ممارسة التجارة والزراعة بالسيف وقال انهم وان كانت مكاسبهم كثيرة إلا أنه فى النهاية تستنزف وسائل العنف هذه المكاسب ومما نصح به السير توماس الاعتماد على الاتجار فى البحار والسواحل وبطريق مسالم هادىء ، هذا اذا أريد الكسب والربح الصحيح وان من الغلط التورط فى داخلية البلاد والاحتياج الى جيش من الحرس ، وللسير توماس مذكرات لم تتعرض لذكر داخلية البلاد بل كان أغلبها يتعلق بالملك وحاشيته ومما جاء فيها أن جهانجير لم يكن يعرف جيدا الفرق بين سفير دولة وبين قرصان المراكب وكان كثير المرح مع تطرف فى المزاح يكاد لا يحتمل وكان السير توماس يضطر أن يشرب من مشروباته الروحية الشديدة ولم يكن اعتادها ولا ألفها فيضطر

لشربها احتراما فيسكر ويسقط نائما فيضحك الملك ومن معه مما حصل ويطفؤن الأنوار ويخرجون ويتركونه بمفرده فلما يستيقظ يضطر أن يتلمس طريقه فى الظلام ومما رواه أيضاً أنه كان مغرما بالفنون والصور والتماثيل وكان يقتنى منها الكثير وكان مما زين به حجراته صورة الملكة مارى والأميرة اليصابات وكثيرا من أشراف الانجليز وصورة لمدير شركة الهند الشرقية ، وقد أحضر فنانا من الهنود وجعله يقلد صورة كان أبرزها السير توماس له فجاء التقليد كالأصل تماما ومن عادته كثرة الأسئلة والاستمرار فيها فيقول ، كم كأسا تشرب ؟ ثم كم ساعة تنام ؟ وما نوع ما تشرب ؟ وكم ؟ وكم ؟ . وقد دعانى من نومى مرة فتوجهت الى السراى فوجدته جالسا ضاماً رجليه على عرش مكلل كله بالألماس والجواهر وأمامه مائدة من الذهب عليها نحو خمسين آنية مرصعة بالأحجار الكريمة وحوله الأشراف على أحسن هندام فيأمرهم جميعا بالشرب ويشرب معهم واستمروا على ذلك مما سر السير توماس أكثر من أى شىء آخر مضحك رآه فى حياته وكان جهانجير يترك شهواته قليلا ويقلب مجلسه إلى مباحث نافعة ويناقش فى قوانين الشرائع المختلفة ، وفى مرة أثناء شربه التفت إلى السير توماس وقال له يجب أن تعتبر نفسك منا فان عندى المسيحى والمسلم والهندى والعربى سواء وأنا أحب الجميع ولا أبغض أحداً وفى بعض حالات شربه كان ينقلب مرحه إلى بكاء طويل فنضطر إلى البقاء معه حتى يبارحه الدور وفى مرة رآه السير توماس يأتى برجل فقير ويشركه معه فى طعامه حتى إذا ما فرغ احتضنه وقبله ثلاث مرات ووضع يده على قلبه احتراما وخاطبه بلفظه « يا والدى » (الفقراء طبقة من صلحاء الهنود يعتقد البعض فيهم الولاية) واعتبر السيد توماس هذا نوعا من التخريف ومن أعظم وأعجب الحفلات التى رآها عند جهانجير (الاحتفال بميزان المغول) يوم عيد ميلاده وهى عادة خاصة بالهنود نحو ملكهم فادخلت فى حديقة يجرى فيها الماء وتكثر فيها الزهور والرياحين والأشجار ورأيت ميزانا منصوبا وكانت نفس الميزان مكللة بالجواهر ويحيط بها الأعيان

والأشراف من كل نواحيها انتظاراً للملك وكان كأنه قد من أحجار كريمة لكثرة ما أزين به منها وعلى بغته جلس القرفصاء فى إحدى كفتى الميزان ووضع فى الكفة المقابلة ، بعض الموازين لمعرفة ميزانه وكان فى جانبها أكياس مملوءة بالذهب والفضة وأشياء أخرى ثمينة كالحرير ثم يليها الحبوب والزبد ، فبعد ميزانه يزنون من كل الأصناف مقدار وزن الملك ثم تقدم له كهدية فى هذا العيد ، ومما أشار اليه السير توماس المكاسب الباهظة التى جناها الولاة وضرب مثلا بوالى بتنا فقال « إنه كان ضابطا لقيادة خمسة آلاف خيال ويتناول من خزينة الحكومة مليونا من الروبيات ولكن لا يتحتم عليه فعلا إلا إيجاد الف وخمسمئة خيال نفقتها ثلثمئة ألف روبية فيكون صافى ربحه من الخزينة سبعمئة ألف روبية هذا بجانب ما كان يناله من ربح فى عملية تحصيل الضرائب وبالاجمال فان صافى ربحه لم يكن يقل عن ثمن ثمانين ألف جنيه وهو ما يقول عنه مؤرخ انجليزى حديث أنه يعادل أربعة أضعاف مرتب والى الهند البريطانى .

نور جهان

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسور المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء السراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود دائما فتنة فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . . . » (قرآن كريم) .

لما أتت النبى داود الشكوى القائمة بين الخصمين وقال أحدهما إن أخاه له تسع وتسعون نعجة وله واحدة يريد أخوه أن يغتصبها منه أدرك أنه المقصود تعريضاً بذلك لأنه طمع فى زوجة أورياه (فشعر بخطيئته وخر ساجداً وأناب ولكن

جهانجير لم يجد على نفسه حرجا من أن يطمع فى زوجات غيره رغما عما عنده من زوجات شرعيات وغير شرعيات فطمع فى زوجة أحد من رعاياه إذ أعجبه شكلها أثناء سيره فى طريق واستفهم من بعض من حوله فدله عليها واتضح له أنها ابنة رجل فارسى هاجر من بلاده وأقام بالهند ، ثم التحق بخدمة أكبر خان وكان مديراً لخدمة السراى وتزوجت ابنته بضابط اسمه على كولى بج الملقب بأسد الأفغان وكان ملتحقا بجيش المغول وفى وقت جلوس جهانجير على العرش أرسل الى البنغال وشاءت ارادة الملك أن تحقق شهوات نفسه فكلف واليه فى البنغال أن يحاول انجاز هذه الرغبة ، وذلك باقناع زوجها أن يطلقها فلما فوتح فى هذا الأمر ثار ورفض ولما أعاد حاكم البنغال الكلام معه طعنه الضابط فتكاثر عليه حرس الوالى وقتلوه وهكذا فى سبيل شهوة الملك يحرم رجل شهم من زوجه ويضطر أن يقتل وأن يقتل فياليت جهانجير آخذ بآداب القرآن وانتهى بنواهيه ووعى تعاليمه فيكون بذلك قد تجنب الوقوع فى شرك الشيطان وتجنب شقاء العائلات وايلام كل من سمع هذه القصة أو سمع عنها قصة هذه الزوجة التى ساقها بعض حشمه الى مدينة أجرا لتدخل ضمن الحرم ولكن وفاء لزوجها السابق رفضت رغبة الملك واعتبرته قاتلا لشير أفغان ولكن بعد استعمال كثير من التأثيرات رضخت لحكم القضاء وانحنت ارادتها أمام زخارف الحياة البائدة ونسيت عهد شير وتزوجت بجهانجير فكانت المرأة الوحيدة التى صار لها السلطان الأكبر عليه وسماها أولا « نور المحل » ثم أشركها فى الملك وأباح لها التصرف حيث شاءت وسماها نورجهان (أى نور العالم) وأصبحت لها ولأهلها الكلمة العليا فى تصريف أمور الدولة وامتلأت بهم الوظائف السامية ، وفى بعض الأحوال كانت تجلس الملكة نور جهان فى شرفة السراى وتطل منها ويقدم لها الأعيان والأشراف فروض الاحترام ويتلقون عنها الأوامر التى كانت تمليها عليهم وضربت العملة باسمها ولقبها وكان كل فرمان لايصدر إلا إذا أمضاه الملك والملكة معا ، وانتهى الحال بسبب ممارستها لكل الشؤون أن صارت هى الملك الحقيقى بينما كان جهانجير ملكا

بالاسم وكان شديد الاعجاب بها حتى أنه كان يقول إن من المستحيل استطاعة وصف جمال نورجهان وحكمتها وفى الواقع أنها كانت تفك المعقد من الأمور وتحل المعضلات وما التجأ اليها مستجير إلا ظللته بحمايتها من كل ظلم أو ضغط وكثيرا ما عنيت بشأن البنات الأيتام الذين لاعائل لهم فاحضرتهم لديها وزوجتهم من مالها الخاص وكفلت لهم وسائل العيش وقد أسدت هذا المعروف لمئات منهن ونال والدها لقب اعتماد الدولة وصار رئيسا للوزراء ونال أخوها أصاف لقب اعتماد خان وصار رئيسا لتشريفات الامبراطور وبالرغم عما نالته هذه الملكة من الثقة وما كيل لها من المديح إلا أن أقاربها تعدد منهم أمور مخلة بعدالة الأحكام ووضع الأشياء فى نصابها ولهذا صار نفوذها سيئا وضاراً وصارت الأمور توزن بميزان الغرض وفشت الرشوة مما أدى الى استياء كثير من النبلاء وعاد الزمن وتنكر لهم حتى انه فى هذه الظروف انتشر الوباء بشدة وصار يتنقل من مكان الى مكان ويفتك بالناس ، ومن لطف الله على الهند فى هـذا الحين أن وسائل النقل السريع لم تكن وجدت ولذا قل انتشار العدوى وظهرت فى جانب الأمراض ثورات وفتن فى جهات متعددة ومنها ماوقع فى البنغال وخروج بعض العائلات الافغانية وتكرر ذلك منهم ولكن الذى أخذ دوراً خطراً حروب رانا أوداى بور التى استمرت عدة سنين ولم تنته الا بعد جهد طويل ولم يتم النصر قبل تحملهم صدمات متعددة ومنها أن الأمير ابرويز ابن الملك الأكبر كاد يقع هو وجيشه فى أسر الخصوم لولا فراره واسراع أخيه كرام بالحضور لنجدته وتخليص الجيش وقد نجح فى مهمته ومما جاء فى مذكرات جهانجير عن ابنه الثانى :

وصلتنا أخبار سارة تفيد أن الثائر العنيد رانا سنج عزم على التوبة والخضوع وتحقق هذا بوساطة ابننا السعيد كرام وقد وطد سلطتنا وأوجد قوى كافية لحراسة الاستحكامات الموجودة بمملكة رانا سنج والتي ظننا فى أول الأمر أن من العسير إحتلالها بسبب قلة المـاء والأقوات وجدب أرضها ووعورة مسالكها

ولـكن جلد كرام وثباته على المكاره وتحميل الخصوم (وخصوصا الأمراء منهم) الخسائر فى أموالهم وأولادهم ونسائهم اضطرهم الى الرضوخ ثم إن الرانا سنج أرسل لابنه كرام يؤكد له أنه مقابل العفو عنه سيكون مستعدا لتقديم فروض الطاعة وإرسال إبنه (كرهينة) فى خدمة الأمبراطور غير إن رانا طلب راجيا أن يعفى من الحضور شخصيا لضعفه بسبب تقدمه فى الشيخوخة ولقد أشار الملك الى شدة فرحه من هذه الأخبار خصوصاً وأن خضوع الراجبوت لم يسبق أن كان تاما إلا فى عهد حكمه — وانتهى الأمر بالصلح وجاء كران حفيد الرانا وزار الأمبراطور ممثلا لجده ووالده وقد قوبل وعومل بكل احترام وبهذه المناسبة قدم جزية من أفيال وخيل وجواهر ولـكن الامبراطور رد له هدية تعادلها ولم تعد تقم للراجبوت بعد ذلك قائمة وكان قبل هذه الحرب بمدة طويلة مات مان سنج وخلف ألف وخمسمئة زوجة وكان من أعظم الراجبوتين الذين حاربوا نفس الراجبوت محبة خان الذى ترك دينه واعتنق الدين الاسلامي وقد أظهر أعظم كفاءة فى حروبه بجيش المغول فى الديكان ولما انتهى البرنس كرام من حروب الراجبوت توجه الى إحدى جهات الديكان لقيام ثورة بها وأصر على أن يأخذ معه ابرويز أخاه الأكبر ولـكنه عند وصوله الى كرام لم يعش إلا قليلا إذ أصيب بحمى ومات على أثرها وقد أشيع أن كرام تملص منه ليصفوا له الجو فى مسئلة العرش ولـكن لم يوجد دليل يؤيد هذه الاشاعة .

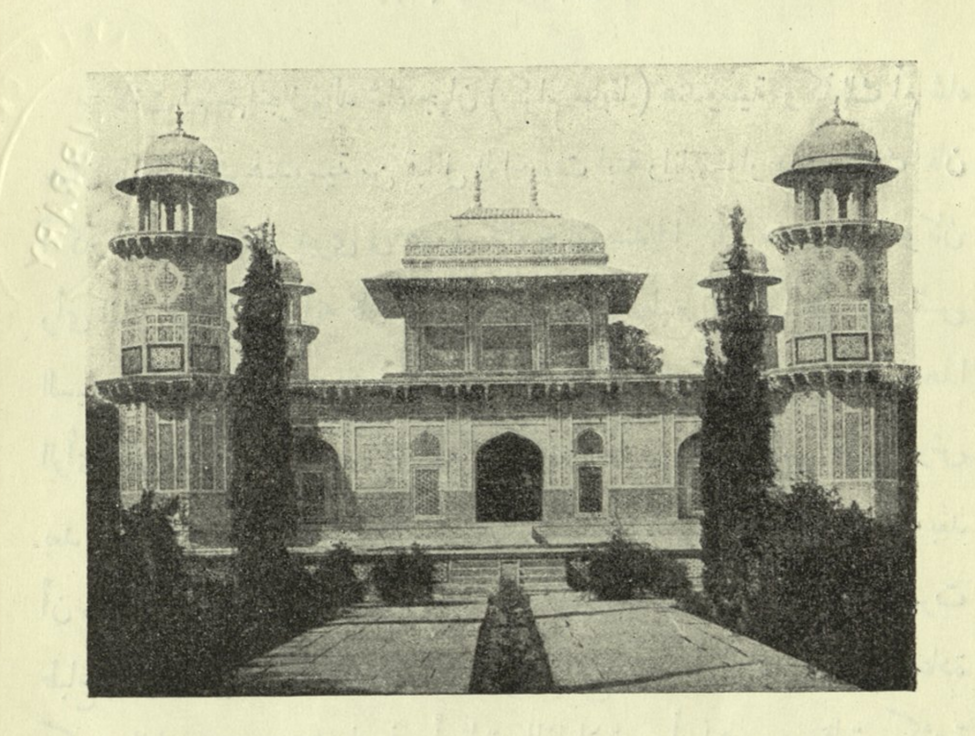
وقامت فتنة فى مدينة قندهار فى سـنة ١٦٢٢ واحتلها شاه العجم فى نفس هذه السنة غير أنها لم تمـكث طويلا فى حكم الفرس بل رجعت الى ملك شاه جهان امبراطور الهند ووارث عرش جهانجير وكان استيلاؤه على المدينة المشـار اليها فى سنة ١٦٣٧

وقد بدأ مركز الأمير كرام يأخذ أهمية كبرى وكان يطمع الى العرش إذ صار أكبر قائد فى الامبراطورية بحكم غزواته وأكبر ابن فقد انتصر على الراجبوت فى أودات بور وعلى كثير من الرؤساء المشهورين بالديكان وقد كتب عنه السير

توماس « أنه لم ير شخصية أثبت ولا أشد رزانة من شخصية الأمير كرام وكان دائما عابس الوجه ولم يشاهد مرة مبتسما ولم يكن من المستطاع قراءة وجهه وقد صارت العلاقات بينه وبين نور جهان فى المدة الأخيرة سيئة وقد صارحها العداء خصوصا بعد أن تزوج ابنة شقيقها أصاف المسماة بتاج ويرجع سبب سوء العلاقة الى رغبة نور جهان فى أن يختار زوجها جهانجير لولاية العهد ابنه الأصغر من زوجة أخرى المسمى بشهريار الذى كان متزوجا من ابنة نورجهان من زوجها الأول شير أفغان وكانت أيضا ترمى الى ابعاد كرام (فيما بعد شاه جهان) من تولى العرش لأنها كانت تخاف بأسه ولكنها لم تنجح فى مسعاها إذ كانت رغبة جهانجير تولية ابنه الثالث الذى كان على طبع أبيه فى كثرة الشرب فأدى الأمر الى قيام الحروب الداخلية فى الهند وثار كرام على أبيه وبعد عدة محاولات لاستقلاله بولايتى بيهار والبنغال انهزم فى سنة ١٦٢٤ ولجأ الى خصمه السابق مالك عنبر الحبشى ليحميه ثم توجه أخيرا وقدم خضوعه لوالده وسلمه ما بقى تحت يده من قلاع وحصون وسلمه ولديه دارا وأورنك ذائب (أورانج زيب) « كما ينطقها الانجليز » كرهائن فى أجرا واضطربت الأمور لكثرة الدسائس حول الملك حتى أصبح لا حول له فعلى أثر ذلك حاولت الملكة نور كسب ولاء الجيش لناحيتها إلا أن محبت خان لم يقبل أن ينحاز اليها لأنه رأى أن مركزه فى القيادة بل وحياته ستكون فى خطر منها وفى الحال لجأ الى أجرأ طريق بأن أسر الملك جهانجير بينما كان يسير بمفرده على مسافة من حرسه الخاص وذلك عند ما كان يعبر كوبريا على نهر أثناء سيره الى كابل لاخضاع ثورة بها سنة ١٦٢٦ ولكن زوجته نور جهان لم يستول عليها أى جزع أو ارتباك من هذه المفاجأة غير المنتظرة ولم تفقد شيئا من ذكائها ولا من شجاعتها بل ذهبت سراً الى حرس الملك وتوجهت

على رأسهم لمصادمة الفيلق الذى كان تحت قيادة آسره وركبت أثناء سيرها على فيلها وتسلحت بالقوس والنشاب ولافساد خطتها بادر الراجبوت الذين تحت قيادة محبت خان الى احراق الكوبرى غير أنها أسرعت وعبرت فى مقدمة الذين استطاعوا العبور لمقاتلة محبت خان وكان المنظر مرعبا يسوده الاضطراب العظيم لكثرة الخيل والأفيال التى وقعت فى الماء والتى ديست بالأقدام من شدة الازدحام وكانت موقعة تشبه موقعة الجمل من وجوه متعددة إذ مات كثير من حرسها حول فيلها فى سبيل تفانيهم فى الدفاع عنها وكثر تساقط الكرات النارية والسهام حول هودجها حتى أن سهما أصاب ابنة طفلة من بنات شهريار كانت معها وأخيرا قتل سائق فيلها ثم ان نفس الفيل الذى تركبه أصيب فجمح بها ونزل فى النهر وغاص ثم خرج الى الشاطىء فأحيطت الملكة بكثيرات من النساء اللاتى هرعن اليها صارخات يعلو وجوههن الحزن فوجدنها ملطخة بالدماء وتخلص السهم من الطفلة وتربط جرحها وفى نهاية الأمر شعرت الملكة بخيبتها فى التجائها الى الحرب المكشوفة فلجأت الى الحيلة وفى الخفاء اتصلت بزوجها الأسير وأقامت معه واستطاعت أن تؤثر خلال ذلك على كبار ضباط الجيش فانحازوا الى ناحيتها ولما شعر بذلك محبت خان وأن وحدات الجيش تخاذلت عنه تركه وفر الى الأمير كرام . ووجد جهانجير نفسه طليقا مرة أخرى فتوجه الى كابل وأخضعها وعاد الى مدينة كشمير التى كان مغرما بها والتى كان يصرف فيها فصل الصيف فأصيب هناك بمرض قاتل ومات قبل أن يدرك الستين من عمره فى نهاية سنة ١٦٢٧ ولم تكن هناك فائدة للذين يحاولون اغتصاب الملك من يد كرام الذى انضم اليه أقوى قائد وهو محبت خان والجيش بأكمله وقد أيد أيضاً أصاف خان رئيس الوزراء الأمير كرام وهزم الأمير شهريار ثم قتله وطلقت الملكة

نور جهان الحياة العامة ولجأت الى عيشة خاصة هادئة ولبست الثوب الأبيض حزنا على زوجها المحبوب وعوملت معاملة ممتازة وأعطيت معاشاً كبيراً ولكنها لازمت عزلتها وماتت فى سنة ١٦٤٦ ودفنت بجانب زوجها فى مدينة لاهور



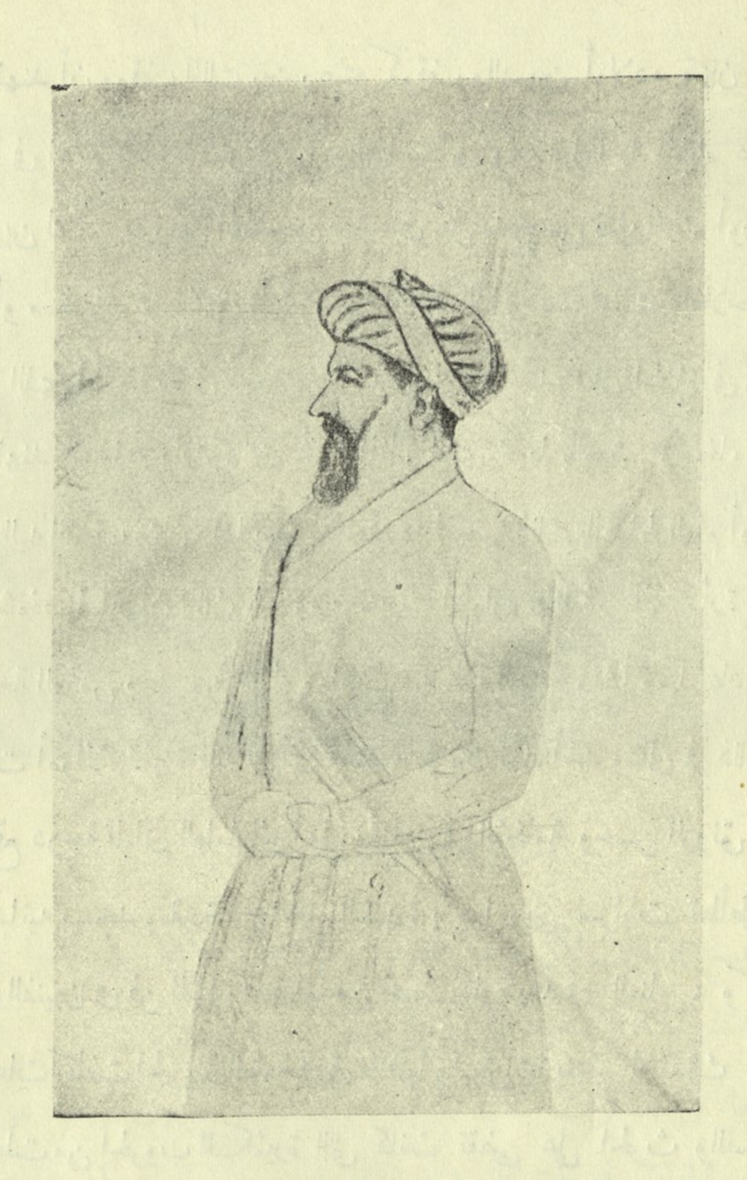
مقبرة الملكة نور جهان

شاه جهان

العظيم

١٦٢٨ — ١٦٥٨

كانت أم جهانجيز والد شاه جهان (كرام سابقا) هندوسية وكذلك أم شاه جهان فانها كانت هندوسية من قبائل الراجبوت ابنة رانا مروار وعلى ذلك فان أكثر الدم الذى كان يجرى فى عروق شاه جهان هنديا أكثر منه مغوليا وكان رأى السير توماس فيه أنه كان رجلا متحفظا عاتى الطبع مغمورا فى الدسائس السياسية ولا تهمه العقائد الدينية غير أنه كان يحابى جنس والدته — كان هذا الرأى الذى قاله السير توماس فيه أيام أن كان أميرا ولم يكن جلس على العرش بعد ولكن يظهر أن تنبؤات كل من كتبوا عنه كذبها المستقبل إذ أنه بعد أن ولى العرش وأمن شر خصومه بالقضاء عليهم اختفت منه طباعه السيئة وظهرت طباع جديدة على جانب كبير من الرقة والتواضع وهو أول مغولى ألغى عادة ركوع الناس وسجودهم له فى أوقات المقابلات وأسدى معروفات كثيرة للمحتاجين وحافظ على مظاهر الملك الخلابة التى كان يهتم بها ويميل اليها الهنود وكان أحب مغولى لديهم وإن لم يكن المثل الأعلى لدى الهندوس وكان فيه نزعة لعدم مساواة الهندوس بالمسلمين ، وأول من زكى هذه الروح عنده زوجته ممتاز محل (أى المصطفاة فى المحل) وقد ولدت له زوجته هذه أربعة عشر من البنين والبنات والبناء الذى دفنت فيه بأجرا يشهد بمقدار تفانيه وحبه لها فانه ليس بالهند بناء أحسن منه وليس فى الهند بل ربما كان أحسن بناء فى الوجود ومع اهتمامه بشؤون دينه فانه كان دائما يتحاشى جهد الطاقة أن يركب الدين السياسة فيتسلطن عليها

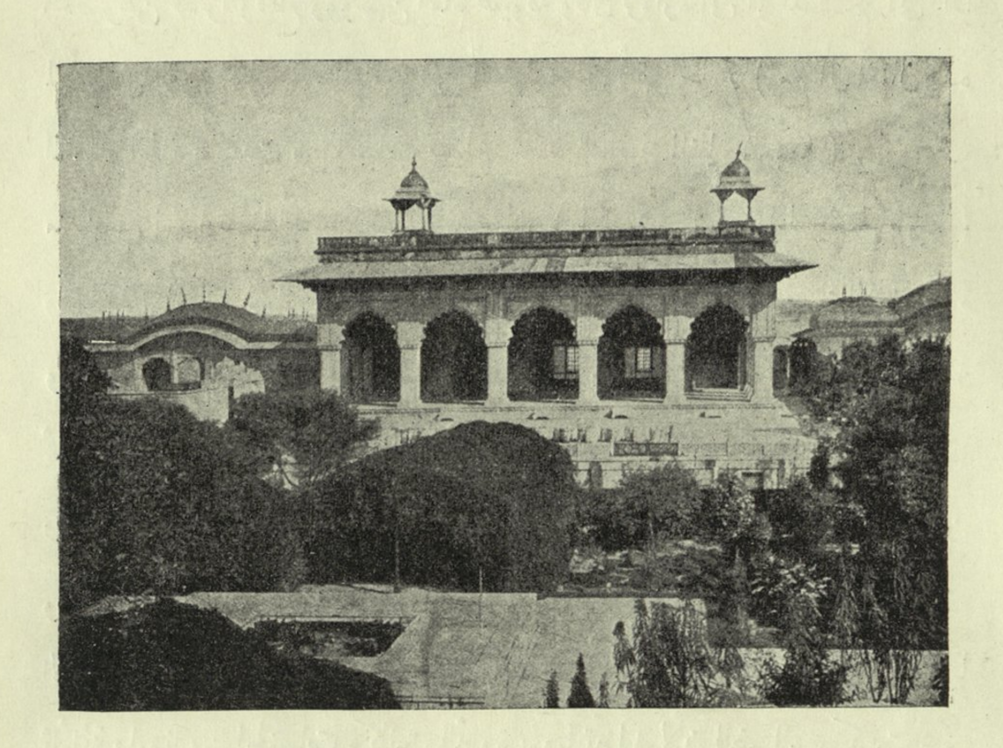


شاه جهان

وكان كثير من قواده هندوسا وكان سعد الله رئيس وزارته هندوسيا مولدا غير أنه اعتنق الدين الاسلامى وكان يحسن معاملة المسيحيين من كل الأمم إلا أن حسن معاملته هذه لم تمتد إلى البرتغاليين بسبب ما طبعوا عليه وقتئذ من قرصنة فى البحار الهندية كرهته فيهم وقد هدم الجماهير فى غضبة دينية لهم كنيسة برتغالية وكان عهده أسعد عهد رآه الهنود وكتب عنه أحد الفرنسيين الذين

زاروا الهند أن موقف الملك بين رعيته كموقف والد بين أولاده وكان يشهد له بالعدالة فى الأحكام وانتشار الأمن والطمأنينة فى وقته ، أما ما سجله عنه بعض المعاصرين له من مؤرخى الهندوس فقد فاق كل مديح من مؤرخين أوروبين كانوا أو مسلمين ومما قاله الهندوس عنه أن عدالته وحسن عنايته بالفلاحين وعقله الراجح الذى استخدمه فى تحسين حال رعاياه وكرمه واعتدال الحياة فى زمنه قد توج الهند بالسعادة ولقد كانت فخامة المظهر الذى يحيط بالعرش وسخاء الملك مما جذب اليه القلوب وكان دائما يبدى شفقته ما لم يضر ذلك بالصالح العام أو يسبب له تعبا شخصيا غير أن الملك بعد زمن تغيرت أطواره فاندفع فى كثرة الصرف على فخامة العرش وعلى من حوله وزادت فيه هذه الصفة ونشأ معها عادة أخرى استنزفت أموالا كثيرة فانه بنى فى الهند ما لم يبن مثله أحد وغالى فى ذلك كثيرا حتى رفع درجة المبانى العامة الى أعلى مقياس فى الفخامة وحسن الرونق ، ومن أشهر مبانيه مسجد ومقبرة تاج المحل الشهيرة بأجرا وبنى سرايات تطأطىء لها رؤوس الفنيين فى فن المبانى احتراما من حيث علو ذوقه فى البناء ، وكل هذه المشروعات كلفت الخزينة العامة فوق طاقتها ولكن مما يغتفر له ذلك أن مدة حكمه خلت من الحروب الكثيرة التى كانت تقضى على الحرث والنسل ، ولم تكن أخلاق هذا الملك ثابتة فبعد ما أبداه من سخاء انقلب هذا السخاء شحا وجشعا حتى كاد يحتضن أكياس الذهب والجواهر التى كدسها طول حكمه من شدة تعلقه بالمال وانقبضت يده عن العطاء .

ومما يذكر له بالمديح مطاردته البرتغاليين من الهند مطاردة عنيفة هدمت آمالهم وقضت على أحلامهم التى كانوا يريدون من ورائها انشاء امبراطورية برتغالية هناك وحسنا فعل وليت سياسته من ناحية الاستغلال الأوروبى كانت

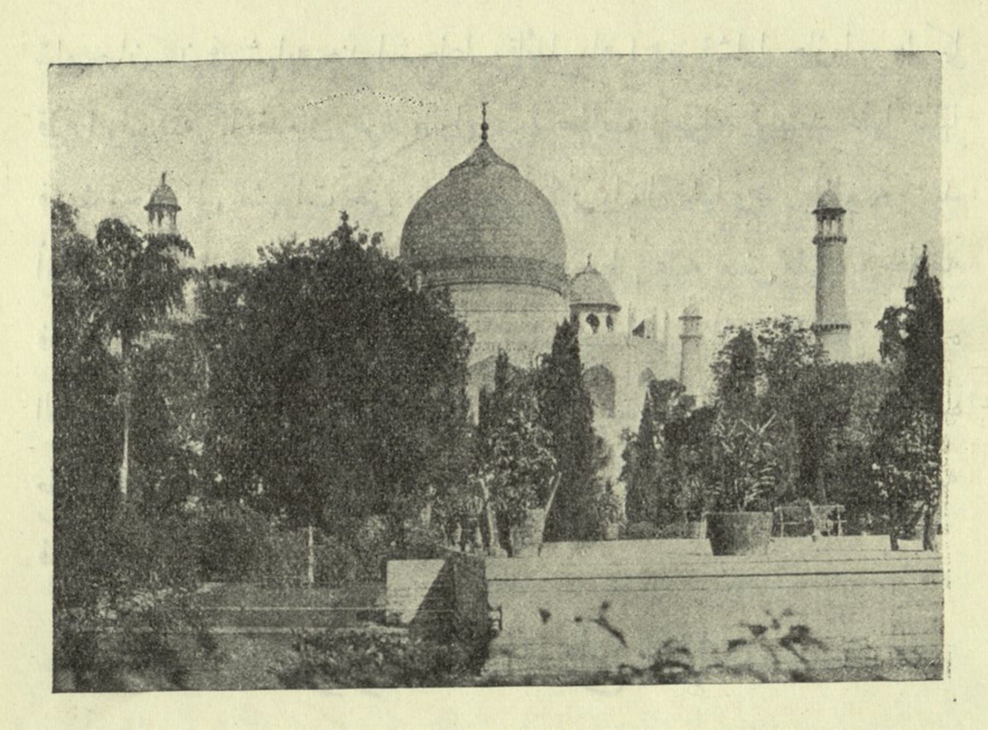


سراية شاه جهان بمدينة اجرا

شاملة لجميع الأجانب لأن غرض القوم لم يكن محض الاتجار بل جاءوا يأتمرون على امتلاك البلاد واستعباد سا كنيها .

وجاء فى مذكرات كتبها منديليس وهو سائح أوروبى وصفا عن بعض الحالات والجهات فى الهند قال « ان السفر فى جوجيرات لم يكن مأمون العاقبة والسير بين الراجبوت و يجعل الانسان دائما أمام قطاع الطرق فلم يكن الانسان يستطيع أن يسافر إلا اذا كان مع قافلة كبيرة ومع ذلك فانه كثيرا ما كانت تضطره الظروف للدفاع عن حياته . » ومما رواه عن والى أحمد أباد أنه كان يتوخى العدل فى القضايا التى يفصل فيها وكان حسن الفهم إلا أنه من ناحية أخرى كان متسرعا قاسيا فانه استدعى بعض بنات من الراقصات ليرقصن فى حفلة كان معه فيها رئيسان لفاوريقتين أجنبيتين فلما لم تمتثل الراقصات للحضور

أحضرهن قسرا وقطع رؤوسهن أمام ضيوفه وقال لزواره إنى أؤكد لكم أنى اذا لم أعامل القوم بمثل هذه المعاملة فلن أستطيع أن أبقى حا كما (مع أن أمثال هذه المعاملة الجائرة كانت من أسباب ضياع الهند فعاقبة الظلم وخيمة) . ووصف منديليس أجرا بأنها أحسن مدن هندستان (لم تكن دلهى الحديثة بنيت) وأشار الى اتساع شوارعها وأن بعضها كان مغطى وفيه كثير من محال التجارة وكان لكل صنف من المتاجر شارع خاص به وكانت توجد خانات لأجل اقامة ثمانين قافلة أجنبية وأغلبها ذى ثلاثة أدوار يتبعها مخازن وخزائن واصطبلات ولقد أحصى هناك سبعين جامعا كبيرا وثمانمئة حمام عام بها الماء البارد والساخن ورأى داخل البلد وفى خارجها سرايات للراجات والأعيان وأعظمها السرايات الامبراطورية التى كانت محصنة ويحيط بها خندق عليه كوبرى متحرك وكان بها ثلثمائة مليونا من الجنيهات وكانت الثروة يوميا تتزايد لأن الضرائب كانت تجبى من كل الممالك ويتوفر منها الكثير سنويا . ومعظم الألقاب تأتى من طريق الكفاءة لا المولد وكانت أجرا مأهولة بكثير من السكان حتى كان من الممكن تجديد مئتى ألف مقاتل منها وكان أغلبية سكانها مسلمين وكانت ضرائبهم تبلغ عشر ثمن البضاعة وكان جيش شاه جهان الراكب يتكون من مئة وأربع وأربعين ألف حصان خلاف الجمال والأفيال وسلاحهم القوس والسهم والخطاف والخنجر والمدى والدروع للوقاية وبعضهم كان يحمل البندقيات ويجيد اطلاقها وكان من أحسن وسائلهم فى الحروب الأفيال ، إلا أن استعمال النار والبارود كان يخيفها فتحدث الكثير من الفوضى والأذى وكان لديهم قوة مدفعية كبيرة ويصنعون نوعا من البارود ولكنه كان أقل جودة من بارود أوربا وكان يعين الملك فى مهام الدولة من ذوى الكفاءة أصاف خان . ولقد شيد الملك دلهى الجديدة أو شاه جهان أباد وأوجد بها أحسن سراى فى الشرق حيث استمر فيها البناء



تاج المحل بمدينة اجرا

عشر سنوات وهى فى وسط بناء قلعة محيطها ميل ونصف ويرتفع حائطها ستين قدما عن جسر النهر و به برجان ارتفاعهما مئة وعشرة من الأقدام ويشرفان على المدخل الأصلى ، وتوجد بوابتان كبيرتان تطلان على نهر جمنا . وفى الداخل عدة مبانى ومنافع متعددة كحمامات ومخازن وغيرها . و يشق القلعة مجرى ماء مصنوع من الرخام يصب فيه ماء النهر النقى وتاريخ تشييد الجامع سنة ١٦٥٨ أى فى السنة التى صار فيها خلع شاه جهان . وهو مشيد على ر بوة صخرية تعلوه ثلاث قباب وبرجان عاليان إرتفاعهما مئة وثلاثون قدما ومساحة فناء الجامع الخارجى تبلغ ألفا وأر بعمئة ياردة مر بعة والبناء الداخلى مبلط بالرخام الأبيض والأسود ويسع تسعمئة من المصلين وفى هذا البناء الفخم صرف الملك آخر أيامه المفعمة بالرفاهية وكانت حفلاته العامة وعيشته على جانب عظيم من الأبهة والبذخ ولقد انغمس الملك وحاشيته فى رفاهية زائدة فقل فيهم النشاط وألفوا الراحة ، مع أن

شاه جهان كان فى شبابه جنديا شجاعا وقائدا ماهرا ومستشارا حازما وحا كما قديرا ولـكنه كلما تقدم فى عمره تنازل عن صفات رجولته وابتعد عنها شيئا فشيئا وجنح الى الشهوات حتى نالت منه أكثر مما نال منها وصار ألعوبة فى يد أولاده وقد صارت أعباء الملك حملا ثقيلا عليه يعطل عليه بعض ملاذه وحظوظه فلكى يوفر على نفسه عناء العمل بدأ فى توزيع أعمال المملـكة على أولاده الأربعة فأعطى لـكل منهم إقليما من الأقاليم البعيدة لادارة شؤونه وكانت هذه طريقة جوفاء أراد بها الراحة فجرت عليه المتاعب واكتسحته وذهبت بعرشه فيما بعد .

ثورة الأبناء على الآباء

كان أول من ثار على شاه جهان عقب اسناد حكم بعض الولايات لأولاده — ابنه شوجاه الذى غزا فى طريقه الى أن وصل الى مدينة بنارس ولـكن صـده هناك سليمان شيكوه الابن الأكبر لدارا شيكوه وكان معه جيش راجبوتى يرأسه الراجا جاى سنج فأخذ شوجاه بغتة وتشتت جيشه واضطر الى التقهقر نحو البنغال وكان فى وسع الراجا القبض على هذا الأمير إلا أنه خشى تقلبات الأيام فحفظ لنفسه خط الرجعة ولقد كال له العذر فى ذلك لأنه إذا سلمه لدارا قتله ومن أجل هذا لا يأمن غضب الأب ولقد سلك كل القواد الذين ساهموا فى هـذه الحركة بتحفظ الى أن تنجلى الحالة الغامضة التى كانوا فيها .

وجاء دور الأمير مراد وكان معه جيش من جوجيرات فحاصر به مدينة سورات وبعد طويل احتلها ووجد فيها مقادير من الأموال كافية للصرف على جيشه ووقعت عبارة من المضحكات فقد كان « مير جملا » الذى يلازم الأمير أورنك زائب وترجمتها زينة العرش (وهو الذى صار فيما بعد معروفا بالامبراطور

عالم جير – سـيد العالم) فقد كان الأول أغنى أهل زمانه وكان الجيش الذى يقوده يمتاز على غيره بحسن النظام وكان تضامنه مع أورنك مسـئلة حيوية لهذا الأمير اذ لم يكن يأمن أنه اذا ترك مير وتقدم ضد أخيه دارا فربما طارده ميرجملا من الخلف خصوصا وعائلته كانت متروكة عند الملك كرهائن فاقترح عليه أورنك أن يتظاهر بالعصيان وأنه يقبض عليه فى هذه الحالة لـكيلا تتهمه حكومة شاه جهان بممالأته للأمير وكذلك دارا لا يشك فيه فلما وافق وأدخل السجن ثار جند مير جملا انتقاما لقائدهم وتمردوا أمام السجن شروعا فى اخراجه ولما رأى أورنك أنه لا يمكنه اخضاعهم دخل السجن وأطلع مير على حقيقة المسئلة وكلفه استدعاء ضباطه وافهامهم حقيقة الأمر المتفق عليه سرا لصالح الطرفين فلما سمع ضباطه منه ذلك أقنعوا جنودهم بترك التمرد فورا وفى الوقت نفسه اتصل الأمير أورنك بأخيه مراد وكتب له قائلا « ليس لدى أقل ميل أو أى رغبة فى أن أساهم أو أعمل بأى حكومة فى هذا العالم الضال المزعزع وكل مطمع لى فى الوجود الحج الى بيت الله ولـكن كل اجراء تتخذه أنت لمقاومة دارا الملطخ بالعار والذى لا يصلح لشىء اعتبرنى لك عونا فيه وحليفا وبما أن والدنا مازال على قيد الحياة فيجب أن يبقى كلانا فى خدمته ويجب أن نعاقب دارا على غروره وجبروته فاذا تحقق غرضنا وصار من الامكان مقابلة والدنا فيمكننا أن نرجو منه طلب العفو عن دارا الذى تورط فى موقفه هـذا وبعد ما نعيد الحكم الى نصابه ونعاقب خصوم العرش فسنعود الى اصلاح عوج أخينا ونأخذه الى زيارة الـكعبة المقدسة ومن المهم أن لا تضيع لحظة بل يجب أن تقوم فوراً الى مهاجمة « جزوانت سنج » الـكافر ويجب أن تعتبرنى واقفا جنبك على نهر (نربدا) ويجب أن تعتبر جيشى الـكبير ومدفعيتى القوية ضمن الوسائل التى تضمن انتصارك واعلم أننى أجعل كلمة الله عهدا بينى وبينك لتنفى وتخرج كل شك نحوى من رأسك »

وهذه الرسالة التى أرسلها أورنك لأخيه كان كافية لانضمامهما وتضامنهما واتصلا معا فى برهان بور وزحفا شمالا ولم يصادفهما أحد لمدة شهر ولكن بعد ذلك تقابلا مع جيش دارا و كان يقوده قاسم خان وراجا جزونت سنج ولم يكن القائد الأول يحب دارا وقد فتح أورنك مفاوضة سرية بواسطة أحد البراهمة وأخبره أنه يكره الحرب وأن غرضه زيارة والده والمطلوب إما أن تحضر لمصاحبتى أو تتجنب التعرض لى حقنا للدماء ومنعاً للشر ولكنه لم يفلح فى مفاوضته واستعد الطرفان للحرب ولا شك أن قاسم خان سلك مسلكا رديئا بينما حارب الراجا وجيشه بمنتهى الشدة والحماسة الا أن الجيش تحطم ولم ينج منه غير خمسمئة أو ستمئة مقاتل وكان من بينهم الراجا الذى حينما وصل الى بيته رفضت زوجته قبوله عندها ورفضت أن تصدق أنه بذل كل ما فى وسعه وقالت أن الراجبوتى خصوصا من كان ينتسب الى عائلة كعائلة زوجها يجب أن ينتصر أو يموت وقامت بجنازة ومرت بها فى المدينة وفرضت أن زوجها قد مات فعلا ومضت أيام طويلة قبل أن تغفر له غلطته ووقعت معركة الاخوه فى أوجين سنة ١٥٥٨ ورغما عن شدة الحرارة التى كانت فى الجهات المجاورة لأجرا استمرت جيوش الأخوين فى السير الى أن وصلت الى شمبال وهناك تقابلت مع جزء من جيوش الامبراطورية تحت قيادة خليل الله خان ولم يكن وصل باقى جيش دارا الذى كان مشتبكا مع الأمير شوجاه وتوجه دارا الى شاه جهان وتكلم معه فى شأن قمع حركة أخويه مع اظهار الاصرار على هذه النية فدعا له والده بالبركه والتوفيق وقال له « مادمت مصمما على السير طبقا لارادتك فتذكر جيدا هذه الكلمات القليلة : وهى أنك اذا خسرت الموقعة فضع فى ذهنك أن لا تحضر أمامى مرة ثانية »

وعاد دارا و بدأ القتال بينه و بين أورنك وامتازت هذه المعركة بوجود عناصر أوروبية مختلفة فى الجيشين خصوصا فى قسم الطوبجية . وهجم رستم خان

من ضباط الديكان القدماء المدربين على مدفعية أورنك ولكنه رد بعد قتال عنيف . وهجم جيش من الراجبوت على الجناح الذى كان فيه الأمير مراد ولكن الأمير مراد أصاب قائدهم الراجا رام سنج بسهم فى جبهته فقتله ففر أغلب الراجبوت الذين كانوا معه وأما فيما يتعلق بالهجوم على قسم أورنك فان دارا هاجمه بشدة واستمر فى تقدمه حتى ظن أنه هزم أخاه وتراجعت عساكر أورنك خطوة بعد خطوة وهجم الراجبوب هجوما عنيفا لم يبد بعده أمل لنجاة أورنك ولا زال النصر فى جانب دارا خصوصا وان الأمير مراد فر من الموقعة فلما رأى أورنك الخطر داهما أمر أن تربط الأفيال ببعضها فى السلاسل وذلك تصميما منه على الانتصار أو الموت وقرب نهاية الموقعة اقترب منه ضابط متملق أو خائن ونصح له بالنزول عن الفيل وأن يركب حصانا حيث يعتبر أنه كسب الموقعة وذلك استعدادا لمطاردة المنهزمين ولكيلا يصير هدفا نزل أورنك عن الفيل وارتفعت أصوات عالية بان دارا قتل فاستولى الذعر على جيشه وتفرق يمينا وشمالا وفى وقت قصير تحول الجيش المنصور الى شراذم من الهاربين وعلى أثر ذلك كسب أورنك الموقعة وهرب دارا الى أجرا و بعد اقامته بها بضعة ساعات قليلة فر الى دلهى وترك شاه جهان بحصن أجرا وطلب الامبراطور الى ابنه أورنك ذائب أن يحضر اليه فى قسم الحريم ولكن الابن لم يأمن على نفسه من الأب وقد منعه عن الحضور إيعاز من إحدى شقيقاته تحذره من الحضور فلن يخرج حيا فاحتل أرنك البلد أولا وصار مركزه فيها آمنا وأرسل ابنه محمد ليحتل الحصن الذى يقيم به جده بقوة من الجند ففعل ما أمر به . ولما توثقت له الأمور وهدأت حالة الاضطراب أعلن أنه سيتخلى عن العرش الى أخيه مراد الا أنه طلب منه أولا أن يصحبه فى اقتفاء أثر دارا وكثيرا ما نصح عباس الأغا باشا كبير أغوات مراد له بان يكون على حذر من الأمير أورنك لأنه ينوى الغدر به ولكن مراد الطائش لم يصغ لنصائحه

وفى مدينة مترا أقيم احتفال كبير فى خيام أورنك ودعى اليه الأمير مراد وبمجرد حضوره اذ كانوا فى انتظاره رتب اورنك كل شىء مع ميرخان وأربعة من أخلص ضباطه الذين حينما أقبل الأمير مراد عليهم تسابقوا الى تقديم تحياتهم له مع اظهار علامات الخضوع والعبودية وتغالوا فى ذلك حتى صاروا يمسحون عرق وجه الأمير بمناديلهم و يتولون تنظيف ثيابه بايديهم مما علق بها من غبار و يخاطبونه بلغة الملوك و يقولون له « ياصاحب الجلالة » . وفى خلال ذلك جىء بطعام العشاء فجلس الأميران وحاشيتهما المعينتين و بدأوا حديثهم الودى وصاروا يتبادلون التكلم فى مسائل متعددة كسابق اعتيادهم وفى النهاية أحضرت زجاجة ضخمة من نبيذ شيراز و بعض زجاجات من أصناف أخرى جيدة وفى هذه اللحظة انسحب أكثر المدعوين ليتاح للضيف حريته وكان ضمن من انسحبوا الأمير أورنك وخرج مبتسما بعد أن قال لهم سأترككم الى شرابكم لتنالوا منه حظكم حيث لا شأن لى به وكرر على الأمير مراد أن يغتنم فرصة اللذة بالشراب كما يشاء هوومير والضباط ومع أن مراد كان مغرما بالشراب فانه صمم أن لا يتعاطى منه بافراط غير أنه بعد تناول اليسير منه غلب عليه النعاس فنام وكان ذلك ما يبغى المتآمرون وفى هذه الحالة تخلى كل الخدم ليتاح للأمير أن يأخذ سنة من النوم وأمروا بالذهاب بعيداً لكيلا يحدث أحد ضوضاء تقلق راحة الأمير أثناء رقاده ولم يغب الأمير أورنك طويلا بل عاد حيث يوجد الأمير مراد وركله برجله بشدة فاستيقظ ووبخه على ذلك واستفهم منه مراد عن معنى هذه المعاملة الشاذة فقال له أورنك « يا للعار والحطة وأى ملك يكون مثلك اذ كيف تنحط أخلاقك لدرجة أن تبيح لنفسك أن تكون سكيرا ؟ وماذا يقوله الناس عنك دعنى اذا رأوا مثل ذلك ؟ » وأمر بعض رجاله بصوت عال قائلا « خذوا هذا السكير العربيد وقيدوه فى يديه ورجليه وأطرحوه فى حجرة حتى يفيق من سكره ورغما

عن رجاء مراد وتضرعه أن لا يعامل مثل ذلك فان الذين تلقوا الأمر نفذوه فيه فورا وفى خلال الليل كله انبث دعاة أورنك لنشر الدعاية لصالحه بين ضباط مراد وعند طلوع الصباح كان كل الجيش بصوت واحد ودون أن يدخل عليه أى اضطراب يهتف و ينادى بأورنك ملكا . وأرسلت فصيلة من الأفيال عليها هوادج مغطاة ووزعت فى جهات مختلفة لتضليل الباحثين عن مراد فيما لو قام فريق من أتباعه للبحث عنه وتخليصه بينما كان هو مأخوذا الى دلهى وأودع فى السجن حيث نفذ فيه الاعدام دون محاكمة وقيل فى رواية أخرى أن تهمة من بعض أبناء الأشراف وجهت اليه فى قتل والدهم حينما كان فى جوجيرات وربما كانت التهمة صحيحة ، ولكن لم يكن أحد يستطيع توجيهها أو محاكمته من أجلها لو لم يوعز أورنك بذلك وقد ثبتت التهمة بعد محاكمة صحيحة وحكم عليه بالاعدام فجاءوا له بحية ولدغته وهذه من احدى وسائل التنفيذ لدى المغول وتقدم بعد ذلك أورنك بجيش نحو دلهى وعسكر فى حديقة خارج سور المدينة ، وفى اليوم السادس عشر من يوليو سنة ١٦٥٨ جلس على العرش دون ضوضاء أو احتفال حسب التقاليد التى كانت تتبع حين جلوس ملك على عرشه ولا زالت الخطبة تتلى باسم والده وكذلك بقيت عملة النقود على حالها باسم شاه جهان ولم يبق دارا بدلهى بل حينما دخلها أخوه كان هو فى مدينة لاهور ولم يرق له البقاء فيها لأن أورنك أوفد جيشا الى لاهور وكانت قوة دارا منهوكة غير منظمة فلما علم بقدوم الجيش أسرع وأخلى المدينة وجعل وجهته ملتان فى نفس الطريق الذى سلكه همايون من مئة عام مضت وكان ذلك سببا فى فشله النهائى اذ أنه لو ترك هذا الطريق لكثرة ما يعترضه فيه من المشاق وقصد كابل عاصمة الأفغان وتوجه اليها مباشرة لكانت النتيجة خيرا له اذ كان سيجد هناك محبت خان وهو من خيرة قواد أبيه ولا شك أنه كان يؤيده من أجله وكان اخلاص

محبت خان للملك مشهورا من يوم نشأته ولو أن دارا كان من حظه مقابلة محبت خان لوجد عنده أموالا بالخزينة ووجد من يجهز له من الأفغانيين جيشاً أصلح للقتال وأشجع فى النزال من جيوش الهند الضعيفة ولكن أيام دارا أقبل شرها وأدبر خيرها فاذا كان الخير فى اليمين اتجه دارا نحو الشمال لسوء حظه ولو لم يكن سيء الحظ لذهب لفوره الى كابل حيث كان والده أرسل خطابا الى محبت خان يوصيه بمعاونة دارا ولكن دارا الذى شعر بمتابعة أخيه له التجأ الى قلعة ثاتا التى كان احتلها سابقا وعين فيها أحد أغواته حا كما وأودع فيها أمواله ثم انه ترك هذه القلعة وعبر الحصراء واحتل احمد أباد وكان واليها صهر الأورنك لكنه وجد من الحزم التسليم وفى ظرف شهر كان دارا جعل وجهته الشمال لأنه اخذ وعدا وثيقاً من راجا جزونت سنج بانضمامه اليه ضد أورنك الذى كان يعتبره متعصبا ولكن كان دارا من هذه الناحية غير موفق أيضا لأن جزونت الذى كان قلقا من ناحية اورنك صدر له منه عفو حصل عليه بمساعى الراجا جاى سنج ومقابل ذلك تعهد بمقاطعة دارا ونسى وعده السابق له و بذلك شذ عن تقاليد جنسه المشهور بنبل الطباع والرجولة التى تأبى الاخلال بالعهد ولقد وصلت أخبار انتقاض هذا الراجا الهندوسى لدارا فى اجمير وانه نكث عهده وانقلب عليه فصار فى احرج المواقف والآن ماذا يعمل دارا المسكين وقد اصبح مهجور وخابت آماله لاسيما وانه وجد ان رجوعه الى الله اباد يكاد يكون مستحيلا لأن طول الطريق يحتاج الى خمسة وثلاثين يوما وكان ذلك فى منتصف فصل الصيف حيث الحر كالسعير والحصول على الماء عسير واجتيازه يكون وسط عشائر موالية لأخيه مما يجعل مطاردته بوساطة اورنك امرا سهلا خصوصا وان جيشه تمتع بالراحة زمنلا طويلا ولذلك صمم دارا على ان يبقى مكانه ويخوض المعركة وإن كان فيها هلاكه وقد ذكر كافى خان المؤرخ ان هذه الموقعة استمرت ثلاثة ايام حاول فيها اورنك عبثا

أن يقتحم خطوط استحكامات أخيه ولكن فى اليوم الرابع وصلت إليه إمدادات كبيرة من الراجبوت فهجم بها وتراجع دارا عن أجمير ثم فر مع قليل من أتباعه ونسائه نحو مدينة أحمد أباد ولما وصل إليها وجد بواباتها مغلقة فى وجهه فتوجه الى قلعة ثاتا فوجد حاميته هناك على آخر رمق من الحياة فبدلا من أن يقيم بها أو يفر إلى بلاد فارس حيث كان ذلك مستطاعا صمم تحت تأثير زوجه وإلحاحها أن يستمر فى الكفاح فى سبيل المطالبة بالتاج وجعل يقول « إما إلى التخت أو التختة » (التخت لفظة أعجمية معناها العرش والتختة يقصد بها النعش الخشبى) واستمر فى سيره شمالا الى أن وصل الى مقاطعة يقيم بها مالك جيوان الزمندار وفى هذا المكان ماتت زوجه وبذلك انهالت جبال من الحزن على قلب دارا وتجمعت جبال فوق جبال ، واختلط الحزن بالأسف والأسف بالحزن حتى أصبح عقله فاقداً لتوازنه ومن غير تفكير فى العاقبة أرسل غول محمد وكان أكبر مخلص له فى أيامه السوداء ليدفن جثة زوجه بمدينة لاهور ولم يبق مع دارا غير بعض الأغوات وقليل من الخدم فانتهز هذه الفرصة مالك جيوان الذى خان قانون الضيافة ووضعه وحفيدا له فى الأغلال وأركبهما على فيل ومر بهما على قلعة ثاتا التى سلمت بعد ذلك ثم توجه بهما الى مدينة دلهى وكان من رأى أورنك ومستشاريه أن يطاف بهما على الجماهير فأدخل دارا وحفيده فلم يتقدم أحد من أعوانه السابقين الكثيرين لنجدته ولكن الطواف بهما فى الشارع وهما فى الأغلال أثار سخط الجماهير وسمع الكثير من عبارات الأسف وبدأ الحزن على وجوه الناظرين حيث كان الأمير محبوبا جداً ودخل على أثره مالك جيوان الذى صار فيما بعد بها درخان فتألبت عليه الجموع وانهالت على رأسه الأشجار والقاذورات وصار مركزه حرجا حتى كادت تقتله الجماهير لولا اسراع حاكم المدينة العسكرى لنجدته ورفعت الدروع فوق رأسه حماية له من المقذوفات وقتل فى أثناء

ذلك بعض الأفراد وكادت المظاهرة العدائية التى قوبل بهما تأخذ شكل ثورة لولا اقترابه من السراى الملكية التى دخلها بعد مجهود شديد ، واجتمع العلماء فى سراى الملك وأفتوا بكفر دارا لخروجه على أخيه الحاكم الشرعى وحكم باعدامه وقطعت رأسه وحملت فوراً الى أورنك ووضعت أمامه فى طبق فأمر فغسلت بالماء وأعيدت له فلما تأكد أنها رأس دارا انحدرت الدموع من عينيه وقال « ما أتعسك أيها المسكين . خذوا الرأس وادفنوه فى مدفن همايون » ووقع ذلك فى سنة ١٦٥٩ ، واستمرت الحروب بين الأخوين ستة عشر شهرا ، أما ابن دارا فقد أسره والى سيرنجار وأرسله الى عمه أورنك الذى اعتقله فى سجن جواليور ولم يعش هناك بطبيعة الحال طويلا اذ كان يرغم على تعاطى كميات كبيرة من الأفيون قبل الطعام كل صباح مما عاد على صحته بالوبال وأورده موارد المنون فى وقت قصير وبقى من اخوة أورنك على قيد الحياة الأمير شوجاه الذى سبق أن هزمه سليمان بن دارا فلما علم بانقضاء أمر أخيه الأكبر عاد ثانية واحتل مدينتى الله أباد وبنارس مما اضطر أورنك الى أن يعود الى ملتان وقابل شوجاه فى موقعة بمدينة كورا ولعب جزونت سنج دوره فى الخيانه كسابق عهده مع دارا الا أنه فى هذه المرة انقلب على أورنك وانكب على معسكره ينهب كل ما فيه من متاع وسلاح ولما قام بما ظن أن فيه الكفاية قصد نحو أجرا دون أن يتخذ أى احتياط ولما وصل اليها أشاع هناك أن أورنك هزم وعلى ذلك قامت الاضطرابات هناك بناء على اشاعته ولكن حقيقة الأمر وصلت لأجرا فهدأ كل شىء وكانت الموقعة التى جرت بين الأخوين على جانب عظيم من الشدة غير أن شوجاه اضطر الى التراجع نحو البنغال فلم يتعقبه أورنك بل تركه وذهب الى أجرا وأرسل ابنه محمد سلطان ومعه ميرخان لطرد شوجاه من البنغال ولكنهما قاسياً الأهوال على أثر الفيضانات التى وقعت هناك ثم ان محمد سلطان انضم

الى عمه شوجاه وتزوج ابنته ولم يحصل وفاق وعاد واستغفر لأبيه عن ذنبه بعد ما ترك عمه ولكن والده لم يستثنه من نوع المعاملة التى عامل بها الخوارج عليه بل أرسل الى سجن جواليور حيث مات هناك . وأما شوجاه فقد انهزم جيشه نهائيا وفر من البنغال لاجئاً الى أمير أراكان الهندوسى واستطاع أن ينال عطفه ولكن نشأ بعد قليل بينهما خلاف لأن الأمير الهندوسى أراد الزواج من احدى بنات شوجاه المسلم وهى اهانة لا تغتفر خصوصاً عند شخص فى مركز شوجاه وفكر أعوانه فى التآمر على قتل هذا الراجا الهندوسى واحتلال مملكته ولكن النتيجة أدت الى فشل أعوانه وذبح أغلبهم واضطر شوجاه أن يفر فى وسط الأحراش والغابات وانقطع كل خبر عنه واختفى كلية ويغلب أنه مات اما من الحشرات أو الوحوش الضارية ولم يظهر عنه خبر الى سنة ١٦٦٠ وبذلك تم تحرير أورنك من خصومه ولقد توج لثانى مرة فى سنة ١٦٥٩ والمدة التى قضاها والده شاهجهان المخلوع امتدت الى سنة ١٦٦٦ وكان فيها موضع عناية ابنه فانه لم يترك شيئاً فى نفس أبيه الشهوانيه الا وقدمه له ولقد أحاطه بكل أنواع السرور والطرب وهيأ له جوا يلائمه فى مأكله وملبسه ولم يكن ينقصه شىء مما كانت تتوق اليه نفسه وكل االذى رفض الابن هو اطلاق حريته فى الخروج وهذا هو الشىء الوحيد الذى لم يكن يسمح به وقد عفا الوالد عن ابنه وغفر له غلطاته ودعا له بالتوفيق وكثيرا ما كان يستشير الأب الابن فى مهام الدولة

عالمجير

أورنج زيب — اسمه عند الافرنج

ولد هذا الملك العظيم سنة ١٦١٨ واعتلى عرش الهند سنة ١٦٥٩ بعد أن عزل والده شاه جهان ولم يكن الذى حمله على ذلك مناهضة أبيه أو الرغبة فى الملك والمطالبة بالتاج بل كان عالم جير شخصية نادرة من حيث الأخلاق فلم يكن فى موقفه مع أبيه أو اخوته مدفوعا بدنيا يطلبها انما حمله على المطالبة بالعرش مالاحظه على والده من التهتك والاستهتار بالدين الذى كانت غيرته عليه إن لم تزد فلا تقل عن غيرة صلاح الدين الأيوبى أو نور الدين الشهيد وكانت نيته دائما منصرفة الى نشر الروح الاسلامية . لذلك كانت نار حماسه دائمة الاشتعال ولم يكن إبعاده لوالده ومحاربة اخوته والقضاء عليهم إلا لاعتقاده فى عدم صلاحيتهم لادارة شؤون الحكم لاعتكافهم على شرب الخمر والمجاهرة بارتكاب المعاصى والذى يعرف أخلاق هذا الملك وأنه هو الذى أحيي عهد عمر فى عدله وزهده وكان لا يأخذه فى الحق لومة لائم بل لم تعرف لهذا الملك شهوة من أى نوع تحول بينه وبين واجبه الدينى أو تجعله ينحرف قيد شعرة عن تعاليم الاسلام الذى أوقف جل همته على نشرها ومحاربة الهندوس ، ولم يكن الباعث على ذلك تعصب فى طبعه فحاشا أن يتسرب اليه هذا التعصب الذى يجىء من طريق الكره والبغضاء فهو أعلا طبعا وأسمى نفساً من ذلك . وكل ما فى الأمر أنه كان يعتقد فى الدين الاسلامى أنه الدين الحق الذى يضمن للهندوسى اذا اعتنقه وعمل بتعاليمه سعادة فى الدارين ويطهره من اعتقادات تقيده بعبادة الأحجار وتقديس الأبقار وتضحى بالمرأة اذا مات زوجها وتلقيها فى نار مضطرمة وهى حية ، وتجيز زواج الأطفال الى غير ذلك من العادات والمعتقدات الفاسدة التى تنزه عن مثلها الاسلام



الشاه عالم جبر

علاوة على ما فيه من سمو التعاليم التى تربط الرجل بأخيه بروابط وواجبات كلها خير ورحمة ، فهو دين مساواة بين الناس ، دين بر باليتيم والسائل والمحروم والمريض ، دين ينهى عن الفحشاء والمنكر فهو يحرم الخمر والميسر ، وينذر المرابين بحرب من الله ورسوله وهو دين الاخاء والشورى والمساواة فاذا كانت

الطريقة التى اتبعها هذا الملك العظيم لا تروق فى عين بعض المؤرخين من الأفرنج فليس لديهم حجة يبررون بها رميهم إياه بالتعصب الدينى ولم يكن هذا التعصب هو الذى حمله على كثرة حروبه مع الهندوس ، ولم تكن هذه الحروب عن بغض لهم بل عن شدة رغبة فى تخليصهم من براثن الوثنية ، ومن نظر الى الحكم الانجليزى فى حالته الحاضرة اليوم فى الهند وقد تعرض للهندوس فى بعض معتقداتهم فلن ينسب ذلك الى التعصب ولم يقل أحد نصرانيا كان أو مسلماً انهم «يثيرون حملة دينية على معتقدات الهندوس بل رأوا أن الاستمرار على العمل بمقتضى هذه المعتقدات فيه منافاة للعقل وخروج على الرحمة فعملوا على ازالتها ، كذلك كان أورنك (عالم جير) . وكانت خطته التى سلكها مع الهندوس يلابسها شىء من القسوة ولكنها كانت غلطة القرن السادس عشر اذ كانت معاملة الحكام لرعاياهم مقرونة بالشدة ومن نظر الى الطريقة الانجليزية ورآها الآن فى ظاهرها أقل عنفا فسبب ذلك أن الدنيا بأجمعها تتطور والمعاملات تتهذب وتجرى بخطوات واسعة نحو الرقة فى المعاملة أما الذى يتعمق فى البحث و يقارن عهد عالم جير بالحكم الانجليزى فى يومنا هذا يجد العهد الأول رحمة واخاء والثانى قسوة وشتاء ، وهندوس اليوم مهما انقادوا الى الانجليز فى كل شىء حتى يصبحوا انجليزا سمرا أو انجليزا أسيويين فلن يكسبوا من وراء ذلك شيئا بل يبقون هنودا منبوذين من الانجليز مستعبدين بجنودهم مستغلين بحكامهم ينقلون أرزاقهم من بلادهم و يشاطرونهم فيها و يحتمون على الهنود أن يقاتلوا من أجلهم وأن يقتلوا فى سبيل مجدهم ويصير الهنود من بعد هذا قاتلين لأبناء جنسهم ، فالراجبوتى يقاتل فى الهملايا والسيك تحارب فى الهند والهندوسى يقاتل المسلم وفى بعض الأحوال يساق الجميع الى أوروبا يقاتلون من أجل انجلترا وفى سبيلها و بعد أن يقتل منهم مئات الآلاف يعود الأحياء للهند عبيدا وهم غزاة ، كل هذا لأنهم يحاربون عن الانجليز اذا شاء الانجليز أما مركزهم فى

الهند فقد فرض عليهم قبول الحال الذى به يرضون أن يموتوا دون أن يقاتلوا عن عزتهم و بلادهم، تلك هى طريقة انجلترا المتمدينة وأما طريقة «عالم جير» فكانت عكس ذلك بالمرة إذ كان الهندوسى الذى يتخلى عن دينه بسبب دعاية أو حرب يصبح مسلما والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ويصير له ما المسلمين وعليه ما عليهم فاذا كان يدفع جزية رفعت عنه هذه الجزية وجاز له تولى أى عمل عام متى كان صالحا له وها هى الخلافة وقد كانت أكبر مركز فى الاسلام نشأت عربية ثم انتقلت فصارت تركية ومغربية والاسلام وهو دين المساواة لا يحول دون جعل المملوك ملكا ، وكيف يكون عالم جير متعصبا وروح كتاباته للولاة والملوك الآخرين تنطق بالصلاح والتقى والترفع عما يسىء الى العدالة والمساواة وتدل أن وجهته لا تحترم الا الحق ولا تحابى فيه حتى الأبناء وقد افتتح عهده بأمور واجراءات تدل على أنه سيتبع سياسة تناقض كل المناقضة لسياسة جده الملك أكبر وهو الذى أراد أن يقوى مركزه بأن يكسب مودة الهندوس فلغى الجزية المفروضة عليهم ولغى الضرائب التى كانت تجبى منهم فى أيام أعيادهم ومواسمهم الخاصة فجذبت هذه السياسة كثيراً منهم اليه وغالى فى ذلك حتى أدخل فى خدمته كثيرا من أمراء وغير أمراء هندوسيين وتقلبوا فى أسمى الوظائف أيام حكمه ولم يكن يرمى إلا الى تقوية مركزه الخاص إذ رأى أن أغلبية الامبراطورية الهندية ليست من المسلمين فاذا بقيت هذه الأغلبية على عداوتها للجالس على عرش دلهى تجعله كالقائم على فوهة بركان فاذا قذف حممه طار ما عليه ولم يدخر وسعا فى الوصول الى أمنيته هذه حتى أنه عقد مؤتمرا دينيا أفرد له مكانا خاصا سماه دار العبادات وجمع فيها فريقا اختارهم من قساوسة المسيحيين وكهنة الهندوس وعلماء المسلمين وباقى الأديان وأراد منهم اقتباس دين من مجموعة أديانهم يسميه دين الله ليوحد به العبادات فى الهند وهذه الطريقة مع ما فيها من المضار المستقبلة

أفادته شخصيا وأبعدت عنه عداوة الطوائف غير الاسلامية بل زد على ذلك انه استفاد من تحسين العلاقة فوق اطمئنانه على العرش استخدامه لهم فى الجيش كما لو كانوا مسلمين وبذلك استقرت الأحوال حينا طويلا وقلت الاضطرابات أيام حكمه أما حفيده عالم جير فكان يرى الخطر على مركز المسلمين كبيرا لعظم الفرق بينهم و بين الهندوس فى العدد اذ كانوا فى وقته بنسبة ثمانية من الهندوس لكل مسلم واحد و بما أنه لم يكن بين الطائفتين ائتلاف أو مودة بل ضغائن وأحقاد بسبب أن الفريق الأكبر كان يعتبر أغلب المسلمين أجانب جاءوا الى الهند فاغتصبوها وفرضوا عليها سلطتهم وتحكموا فيها لذلك لم يكن من المحقق أن تمتزج طائفتان ببعضهما كرغبة أكبر وتطرحان الأحقاد المشتعلة بينهما بسبب من قتل من الهندوس خصوصا فى الحروب الأولى التى كانت دينية حتى كان كل بيت من عائلات الهندوس يعتبر نفسه موتورا فالاطمئنان على مركز المسلمين دون السعى لزيادتهم قوة ومنعة وهو الأمر الذى لا يمكن تحقيقه الا بزيادة نسبتهم العددية اذ أن طريقة أكبر مع ما كان فيها من الانصاف والانسانية تمهد للا كثرية السبيل الى الازدياد فى القوة والجاه وهذا يهدد المسلمين بالابادة خصوصا وأن أكبر أسند الى الهندوس وظائف كثيرة فى الجيش والحكومة فلو أنهم قاموا بثورة اذا جاءت لهم فرصة مناسبة لقضوا بها على كل شىء اسلامى وأزالوه من الهند فعالم جير كان متيقظا لهذه الأخطار لذلك فانه لما اعتلى العرش صار يعيد للحكم رونقه الاسلامى وفرض الجزية على الهندوس وجعل حساب التوقيت طبقا للطريقة الهجرية بعد أن كانت الطريقة السابقة هى الشمسية وكانت هذه علامة على على أنه سيسلك خطة تغاير خطة أكبر لذلك ابتدأ عداءه مع الهندوس وصار يهدم معابدهم وألغى ضريبة المواسم والأعياد الهندوسية مع عدم السماح باقامة الحفلات الدينية مما سبب عجزا كبيرا لخزينته فلم يبال بهذه الحال لأن وجهته لم

تـكن للمال بل لتأييد الدين وتفضيله على الدنيا وما كان يهمه أى تضحية مادية فى سبيله ولقد توسع فى سياسته الدينية فلم يكتف بعداء الهندوس بل عادى فريق الشيعة من المسلمين اذ كان يريد أن يكون المسلم سنى المذهب فقام بعدة حروب فى الديكان حيث يكثر فيها العنصر الشيعى ، ولقد كان سلطان الدين مستحوذا على كل مشاعر هذا الملك حتى طلق ملاذ الحياة كما لو كان زاهدا أو فقيراً وقد شاء مرة أن يكون فقيرا (هنديا) ، ومن شدة تقشفه ما كان يذوق اللحم حتى على شفتيه ولا يشرب غير الماء و يطيل الصوم مما أضعف بنيته وفى شهر رمضان كان طعامه قاصرا على خبز الذرة والماء وكان لا ينام الا على الأرض وعمل بما حض عليه الرسول أتباعه من تعلم حرفة ، ولما كانت صنعة فى اليد أمان من الفقر فقد تعلم صنع الطواقى وكان يتسابق على شرائها الـكثيرون كما تسابق نساء روسيا على مشترى الجزم التى صنعها الفيلسوف تولستوى و كان يعرف اللغـة العربية ويجيد حفظ القرآن وكتب بخطه الجيد نسختين وأهـدى احداهما لمـكة والأخرى للمدينة .

ولا شك أن عالم جير كانت وجهته سبيل الله ولم يـكن ممن غرته الدنيا بنعيمها وزخارفها اذ لو شاءها لـكانت هينة عليه اذ كان فى وسعه أن يطرح مسائل الدين ظهريا و يسلك كما سلك أ كبر فيجنى ثمرة الراحة والهدوء و يعيش مع الهندوس وغيرهم على صفاء فلا يحاربهم ولا يحاربونه كما كان شأن جهانجير وشاه جهان اذ عاشوا فى راحة باظهار عـدم الاهتمام بشؤون الدين الاسلامي و كثير من سلك طريق الدنيا فنالها ولم يمنعه شىء من التمتع بالمال والخمر والنساء وكافة الملاذ غير ضميره الثائر وما كانت فلسفة أ كبر الطبيعية ولا رفاهية جهانجير ولا الابهة ولا الفخامة التى أحاطت بشخص شاه جهان لتصرفه عن نزعته الدينية الخالصة للحق وكان الهندوس يفضلون كل نوع من الحـكام على الحاكم الذى

يتعرض لدينهم وهذه أول مرة جلس امبراطور مغولى امتاز بروحه الدينية وقيد نفسه كما قيد الهندوس غير أنه لم يكن يجهل أن التساهل والترضية هما أساس الحكم الأسهل والأسلم عاقبة فى بلاد جمعت عناصر مختلفة من الأديان والاجناس ولم يكن بالشاب الطائش حين اعتلى العرش ولكن كان ناضجا فى سن الأربعين وعلى جانب عظيم من الخبرة السياسية والمام تام بعوائد وخصال الشعوب المختلفة التى تقطن الهند ولم يكن يغيب عن باله الأخطار التى كانت تكتنفه بسبب الخطة التى سار عليها . بل كان على بينة من وعورة الطريق الذى يسير فيه وهياج الشعور الهندى الذى صدمه وابعاد عطف رعاياه الفرس المعتنقين لمذاهب الشيعة وكانت منهم زهرة حاشيته بتعمده مصادمة عقائدهم . كما أن خطة الزهد والتقشف التى اتصف بها ضايقت طبقة الأعيان والأشراف الذين لم يألفوا هذه الحالة بل كانوا منغمسين فى الترف والملاذ وكل هذه الأسباب تجمعت فأثارت عليه الثورات الا أنه رحب بالطريق الوعر ولم ينثن عن وجهته فى مدة الخمسين عاما التى حكمها وكان لهيب الايمان دائم الاشتعال فى قلبه وروحه الى آخر لحظة كان يحتضر فيها و يسلم نفسه لخالقها فى وقت لم يطلق فيه العمل بحكم الشيخوخة وهى سن النسك والراحة بل بقيت روحه فتية وشيخوخته قوية كما كان أيام شبابه حينما حارب فى الديكان وقد طرح ملابس العرش البهية المزركشية ولبس بردة الفقراء الممزقة ولم تكن خطته هذه خدعة يحاول أن ينال بها من خصومه بل كان طبعاً صريحاً فيه نتيجة تشبع بالعقيدة الحقة وما كان لنا أن نقول شيئاً عن شجاعته فليس ذلك بغريب على أمير من سلالة المغول انما كان يعتبر فى المقدمة لأشجع شجعانهم فقد حارب مرة فى مدينة بلخ فلما أحاط به العدو من كل ناحية كالجراد والنمل وضغط عليه فى كل نقطة وصار لا يسمع الا قعقعة الحديد وصليل السيوف والدماء تجرى بين المتقاتلين وغربت على هذا المنظر شمس النهار

فلم يثنه هذا الخطر الدائم من أن ينزل عن حصانه و يقف أمام خالقه ليؤدى صلاة الغروب و يسجد لله فى عجاج الموقعة وهو فى غاية الثبات مما جعل ملك الأزبك حين رآه على هذه الحال يقول ان محاربة رجل كهذا هي الهلاك بعينه ، و يمكن لمن يقرأ بعض كتبه للولاة أن يستخلص منها شروط الملكية الصحيحة الخالية من الشوائب فقد أرسل لوال من ولاته العبارة الآتية :

« انى بعثت بواسطة العناية الالهية لأعيش وأعمل لا لنفسى بل لغيرى وليس من واجبى التفكير فى سعادتى الشخصية الا بقدر ما يكون ذلك متصلا غير منفصل عن سعادة قومى ولما كانت راحتهم وسعادتهم هى التى أنشد فلا يمكن تضحية شيء منها الا بقدر ما تقضى العدالة و يتطلبه تثبيت سلطة الحكم وتوطيد السلام فى الامبراطورية ولم يخطىء فيلسوفنا السعدى حينما قال « تنحوا عن الحكم والا فاعقدوا العزم على أن لا يحكم ملككم غير أنفسكم »

وبنفس هذه الروح كتب الى شاه جهان خان : — « ان الله القادر يضع أمانته فيمن يتولى شؤون عباده ويحمى خلقه ومن الواضح الجلى للعاقل أن الذئب لا يصلح راعيا ، لا ، ولا الرجل الضعيف يصلح حاكما ، والملكية هى ولاية أمر العباد لا الانهماك فى الملاذ والشهوات »

لم تكن عبارات هذا الملك كلمات ينمقها بل قواعد ينفذها ويحكم بها ولم يعرف عنه طول حكمه الطويل أنه خالف مرة واحدة أمراً من أوامر دينه ولم يثبت عليه أنه اقترف أمرا جائرا يناقض تعاليم الاسلام ، ومما شهد به الانجليز المقيمون فى أيامه بسورات وبومباى أن هذا الامبراطور كان محيط العداله ومنبعها فهو يتصرف بالعدل والمساواة التامة وكان يتساوى عنده الأمراء والسوقة وكان يصغى الى الصغير فى شكايته كما لو كان يصغى إلى أكبر الأمراء مما جعل الأشراف والأعيان يحكمون أنفسهم فلا يخرجون على نظام أو قانون خشية عقابه

ومما رواه عنه بعض مؤرخى الهند أنه كان معتدل المزاج و يجهد نفسه فى فحص الشكايات وكان الوصول اليه سهلا مع رقة فى المقابلة وكان ولاته يخشونه فلا ينحرفون عن العدالة الا أنه مع ذلك لم يكن كثير الوثوق بأمانتهم أو كفاءتهم ولم يكن يؤمن بالسلطة اللامركزية وكان دائم الاتصال بكل أجزاء الامبراطورية بوساطة مخبرين يفدون عليه و يرفعون اليه التقارير عن أخبار الجهات المختصين بها وكان يعامل أولاده معاملة قاسية فسجن ابنه الأكبر طول حياته وأبقى ابنه الثانى فى أسره لمدة ست سنوات لأنه ظن فيه الخروج عليه وكانت عادة سوء الظن بالناس من صفات عالم جير فأساءت كثيرا لسمعته ومركزه وان كان كثيرا من المسلمين اعتبره متوجا بالفضيلة الا أن أغلب الحاشية ورجال الحكم عاشوا فى رعب منه مصحوباً بالأستياء ومع ما كان يتمتع به من الاحترام فلم يكن محبوباً ، وكان يعيش عيش البساطة والزهد الا أنه فى المواكب العامة كان يقتفى مظهر أسلافه فيحيطها بالفخفخة والعظمة إذ كان الهنود من عباد المناظر والمواكب التى تتحلى فيها العربات والدواب بالماس والجواهر وتحف بها الفرسان وكان يتردد فى عيشه بين دلهى وأجرا ، ولم يظهر ميلا الى البلد الثانية لأن جوها لم يكن يوافقه فكان يقضى أكثر الوقت بمدينة دلهى الحديثة التى أنشأها شاه جهان والتى لا زالت أثارها القديمة تشهد بما كان عليه هذا المكان من عظمة ، وقد وصفها برتيير الفرنسى فقال « ان هذه المدينة تقع على الضفة اليمنى من نهر جمنا على شكل هلال وأمامها كوبرى من القوارب ويحيط بها سهل به كثير من حدائق الفاكهة والأشجار الخشبية ومحيط سورها سبعة أميال وفى خارجها كثير من المبانى الشاهقة التى يسكنها الأمراء والأعيان والتجار ويتخلل المدينة بعض شوارع ضيقة تتصل بميادين فسيحة وبها أكواخ مبنية من الطين والخيزران يسكن فيها الجند والطبقات

الفقيرة ، أما الشارعان الكبيران بها فاتساع الواحد منها ثلاثون قدما ، وبها ميادين تنصب فيها الجند الراجبوتى خيامهم حين حضورهم للمدينة ، اذ كان من عادتهم عدم الاقامة فى المساكن ، ومما يستلفت النظر وجود بعض حجر فى السراى الامبراطورية تبلغ منها الحجرة مساحة سراى باجمعها ، وكان يقيم بدلهى طائفة من مهرة العمال فى الفنون والصنائع ، ويرجع الفضل فى ذلك الى التشجيعات الملكية لكثرة المبانى التى كانوا يشيدونها ، ومما برزت فيه هذه الطائفة الرسم والنقش وقد أظهرت فيهما آيات النبوغ ، ومما أعان على تقدم هذين الفنين كثرة اقتناء المغول للصور والنقوش الأوروبية الشهيرة ، ومن أحسن ما بنى فى المدينة الديوان العام وحجرة الاستقبال التى وصفها الواصفون بقولهم اذا وجدت جنة على وجه الارض فانما تكون هى (حجرة الاستقبال) .

والطريقة التى كان يعتمد عليها عالم جير فى تأليف جيشه تخصيصه اقطاعيات من الأراضى فى سائر أنحاء الامبراطورية يوزعها على بعض الأمراء وكبار العائلات لاستغلالها لمصلحتهم ، ويفرض عليهم فى الوقت نفسه فى مقابلها تجهيز عدد معين من الجند والخيل والصرف عليها من ريع هذه الأطيان على شرط أن يدفعوا خمس ايرادها لخزينته العامة (مثل طريقة الحكر) وكان لهذه الطريقة مزايا وعيوب فأما ميزاتها فانها تخلى الميزانية العامة من القيام بأغلب نفقات الجند فلا تتشعب أوجه الصرف ويزول عن عاتق الحكومة مبلغ باهظ كان يفرض عليها دائما الاحتياط له فاذا قدر وارتبكت ماليتها يوما وصعب عليها دفع مرتبات أو نفقات الجند فتتعرض لانتقاضهم واضطراباتهم ، أما عيبها الأساسى فيأتى من احتمال تقصير هؤلاء المتعهدين فى أداء التزاماتهم نحو الجند أو الاقلال من عددهم أو اهمال تعليمهم وعدم العناية بدواب الجيش الا أن هذه المسألة يمكن علاج عيوبها

بشدة الرقابة والدقة فى التفتيش وفرض العقوبات الصارمة مالية أو غيرها اذا حصل تقصير .

وكان لهذا الملك أسماء متعددة منها « محيي الدين » و « زينة العرش » ، « أورنك ذائب » و « عالم جير » وهو الاسم الذى اصطلح عليه المؤرخون الشرقيون ، و « أورنك عالم » واسمه وجد منقوشا على العملة وقليل جدا من الملوك من حكم مدة طويلة مثله وكانت له شقيقة اسمها « روشا نارا » ذات تأثير عليه فى بعض تصرفاته وقد عاونته كثيرا فى أوقات الشدائد . ولم يطل أمد نفوذها فى الدوائر الحكومية . أما أخته الكبرى « بيجام صاحبة » فقد عاشت مع والده الى أن مات ولم تكن على وفاق مع أخيها ولكن فى المدة الأخيرة تحسنت العلائق بينهما وشفعت لديه أكثر من مرة وكان لبعض السيدات تأثير عليه منهن : « فخر النساء » (ابنته الكبرى) والاوديورية وهى زوجته المسيحية وكانت من ولاية جورجيا وكان نفوذها عليه محدودا جدا ولما اعتلى عالم جير عرشه استهل حكمه بتخفيض الضرائب ورفع الكثير من المتأخرات على الفلاحين والغاء عوائد المرور عند الحدود وكان ايرادها وافرا وأبطل الضرائب التى كانت تفرض على المنازل ودكاكين التجار من بقال الى جزار الى بائع أقمشة الى بنكير وغير ذلك ، وألغى ضرائب الموالد والأعياد على كل الطوائف وعلى العموم فقد ألغى ضرائب عديدة متنوعة لا يقل عددها عن ثمانين ومن أهمها عشورية الغلال ليقلل بذلك نفقات الانتاج على المزارعين ، وقد استغل كثير من الجباة غفلة دافعى الضرائب الذين لم يعلموا بالغائها واستغلوا ذلك لصالحهم ولكن حين علم الملك بذلك أوقع عقوبات صارمة على الجباة الذين عرف عنهم مخالفة الأوامر وقال أحد المؤرخين الانجليز (اليوت) تعليقا على ذلك : أن الأوامر شىء وتنفيذها فى الهندوس شىء آخر حتى أنه فى هذه الأقاليم الواسعة

لا زالت عادة مخالفة الموظفين للتعليمات التى عندهم فاشية حتى فى زمن الانجليز و يقول ان الرشوة وان كانت انقطعت عن كبار الموظفين فى الحكومة فان صغارهم مازالوا يمارسون هذه العادة وانها وان لم تكن شائعة عند العموم فانها مازالت طبعا ثانيا عند الكثير منهم فانه الى يومنا هذا قد يتوجه مثلا تاجر الى ناظر محطة صغيرة و يريد أن يشحن بضاعة الى جهة أخرى فان عمله غالبا لا يصير تنجيزه على وجه يرضيه الا اذا تقدم الهدية و كذلك ربما احتاج غيرها لبعض رجال البوليس .

ولقد أعاد الملك عالم جير فرض الضرائب التى سبق الغاؤها بمناسبة جلوسه على العرش وكان من عادته أن يطل على الجماهير لتقدم له تحيتها فى أوقات معينة ولكنه عدل عنها بعد زمن وقيل أن سبب ذلك كان دينيا ولكن الأرجح كان صحته بسبب ضعف انتابها فى السنين الأولى من مدة حكمه وكثيرا ما اضطر الى الظهور للرعية ليبطل اشاعات سيئة اعتادوا نشرها وقت احتجابه و يذكرون وفاته وبذلك تحدث بعض الاضطرابات فيظهر لهم على مضض منه منعا للقيل والقال ولقد كان عادة احتجابه خالية من الحكمة اذ انقطع بها الاتصال الوثيق الذى كان قائما بينه و بين رعيته وعلى أثر جلوس « عالم جير » تقاطرت اليه البعثات من فارس وماوراء النهر ومن حكومة المستعمرات الشرقية الهولندية وشريف مكة وأمير البصرة وملك الحبشة وكانت البعثة الأخيرة مكونة من رجل من تجار الرقيق وتاجر أرمنى وقدموا للملك هدايا تتكون من عدد من الارقاء — ليصير بعضهم فيما بعد أغوات — وخيول وحمر وحشية وأسنان من العاج مجوفة ومملوءة بالمسك ولكن معظم هذه الهدية فقد بالطريق اذ مات كثير من الأرقاء والخيول فى الطريق وقد قدم باقى الثياب التى وفدت الى دلهى ولم يكن فيها مايستلفت النظر أما هدية ماوراء النهر فكانت تتكون من كثير من الجمال

ذات الشعر الطويل وخيول من الصنف الجيد وكانت الجمال تحمل كثيرا من أصناف الفاكهة المجففة وغيرها من تحف هذه البلاد وقد سر الملك كثيرا بها وطلب تبليغ الخانات شكره على كرمهم الزائد كما أنه أظهر اعجابه بالخيول والجمال ، وتحادث طويلا مع رجال البعثة عن سمرقند وحالتها وخصوبة أرضها وكثرة خيراتها النادرة الجيدة للغاية وقد أضاف الملك رجال هذه البعثة مدة طويلة من قبيل التحية ورعاية العوائد المغولية ، أما البعثة الفارسية — فنظراً لعظم مركز من تمثله — اذ كان يعتبر من أكبر ملوك العالم — فقد قوبلت بكل تبجيل واحترام وزينت لها كل الشوارع التى مرت بها واصطفت الفرسان على الناحيتين ولازم موكبهم كثير من أمراء الهنود بموسيقاهم وطبولهم وأطلقت لهم المدافع تحية عند قدومهم وقابلهم الملك بالاحترام واستلم رسائلهم بيده ، وقدموا هديتهم وهى عبارة عن خمسة وعشرين حصانا منقطعة النظير فى حسنها وعشرين جملا يكاد يبلغ الواحد منها حجم الفيل وصناديق مملوءة بماء الورد وكميات من الأقمشة المطرزة وبعض مشروبات من أرقى صنف وأربعة سيوف وأسلحة أخرى مكللة بالجواهر وستة أغطية للخيل تزينها اللآلىء الثمينة ونالت اعجاب الملك الشديد فكرر شكره العظيم للشاه على سخائه الزائد وأظهر احتراما شديدا لسفير فارس وأطال معه الحديث قبل انصرافه وطلب منه أن يأتيه يوميا ومما رواه برتيير الفرنسى أن الشاه أرسل رسالة يعاتب فيها ملك الهند على حجزه والده ومعاملته لاخوته وعلى تلقيب نفسه عالم جير (أى ملك العالم) . ولكن وصف المقابلة ينطق بعدم صدق هذه الرواية اذ هذا لا يكون الا عند ما يريد حربا لا عند تقديم هدايا ثم قبولها بالسرور . وكانت علاقات عالم جير بالدول الأجنبية قليلة الأهمية اذ كان كل انهماكه منحصرا فى هندستان ومن أهمها تنظيم الحكم فى الولايات وقد اختار « مير جملا » واليا لبنغال وقائدا لجيشها ولكنه أبقى ابنه ضمن حاشيته ليكون كرهينة فان الملك من عادته شدة

لحذر وقد أنعم على جملا بلقب « خان الخانات » ولـكنه لم يعش طويلا بل
مات سنة ١٦٦٢ وهو الذى غزا ولايات أسام وكانت هـذه أول مرة يدخل
مسلمو الهند فى هذا الاقليم وهو يقع الى الشمال الشرقى من هندستان ويخترقه
نهر عظيم ، وبها غابات كثيفة وأمطارها شديدة ومواصلاتها سيئة وأهلها هندوس
تختلف طقوسهم الدينية عن اخوانهم فى الهنـد ومما قاله كافى خان المؤرخ إنه متى
مات أمير من أمرائهم أو كبير من كبرائهم فتحوا مقبرة متسعة تتـكون من
عدة أقسام ثم لا يـكتفون بدفن الميت بها بل يئدون زوجاته وجواريه ليدفنوا
معه ، وكذلك يدفنون خيوله وكثيرا من أمتعته كالأوانى الفضية والذهبيـة
والمجوهرات والمفروشات والحبوب وكثيرا من الأشياء التى كان يستعملها فى حياته
وكانوا يضعون عنده فاكهة وأقوات بمقادير تـكفيه عـدة أيام وهى المدة التى
يقولون انه سينتقل فيها الى الدار الآخرة وروى المؤرخ أن « خان الخانات »
فتح بعض هذه المقابر وعثر فيها على أشياء ذات قيمة ثمينة ، وعادة وضع الأشياء
الثمينة فى المقابر كانت شائعة فى بلاد كثيرة ومنها القطر المصرى ، وفى أحوال
متعددة فتحت هذه المقابر فى بلادنا وعثر فيها على كنوز غالية وأهمها ما اهتدى
اليه اللورد كارنارفون فى مقبرة الملك توت عنخ آمون كما عثر الأستاذ الشهير سليم
حسن بك على مقابر ذات آثار قيمة تاريخية بجوار الاهرام

لم تـكن غزوة أسام صعبة بل دخلها المسـلمون دون كبير مقاومة إنما الذى
عجز عنه السـكان قامت به الطبيعة بالنيابة إذ تدفقت الأمطار والسيول التى لم
يألف احتمال مثلها جيش الأمير جملا فلجأ الى بعض المدن وأقام بها الجند فى
جو لم يلائم أجسامهم ففتـكت بهم الأمراض القتالة وقد أضر بهم أيضـا نفاذ
القوت وعدم توفره لديهم فتذمر الجند وفـكروا فى التمرد على قائدهم وتركه هناك
فلما علم بذلك وجد أن التسـليم فى الظروف القهرية فضيلة وخضع لارادتهم

وأمرهم بالانسحاب فانتهز أهالى أسام هـذه الفرصة وهاجموا الجيوش الهندية ولم تـكن ضعيفة بالدرجة التى تعجزها عن المقاومة وقاتلهم مير جملا وصد الأساميين فاضطر الراجا رئيسهم أن يطلب الصلح من المسـلمين وقبل أن يتنازل لعالم جير عن عدة بلاد واقعة على حدود أملا كه مع دفعـه لجزية فادحة كما تعهد بتقديم خمسين فيـلا وأن يقدم أيضاً واحدة من احدى بناته (القبيحات كما يقول كافى خان) الى الملك . وقد مات الأمير جمـلا فى الطريق أثناء عودته الى الهند فى حدود كوج بيهار .

وكان وقتئذ لا يزال محبت خان واليا على كابل وطالب بحسن معاملة شاه جهان الذى كان محجوزا عند ابنه الملك وكان الاحتجاج سـببا فى تخفيف وطأة العزلة على سيده السابق و بعد وفاة مير جملا عين ابنه أمين خان واليا لحـكومة كابل ولـكنه ما وصل الى ممر خيبر حتى تلقفته القبائل القاطنة هناك وكادت تفتك به لولا تمكنه من الهرب وتخليه عن جيشه هناك ، ولم يمت محبت خان الا قبل ملـكه بمدة قصيرة ومات بموته آخر رجل عظيم من عهد شاه جهان وكان موته وموت مير جملا خسارة لا تعوض على الامبراطورية إذ كانا من أقوى الحـكام وأ كفأ القواد الذين حفظوا للمغول صولة حكمهم

حروب عالم جير

وقع فى عهد عالم جير ثلاثة حروب كبيرة ذات معارك متعددة وهى :

١ — حرب قبائل الراجبوت

٢ — حرب الولايات الاسلامية ببيجا بور وجولـكندا

٣ — حروب قبائل الماهراتا

أما ما يختص بالحرب الأولى فـكانا سببها يرجع الى رغبة عالم جير فى نشر

الديانة الاسلامية ببلادهم ، والثانية وقعت بينه و بين الحكام المسلمين بولايتى بيجابور وجولكندا وقد انتصر فيهما وأخضع هاتين الولايتين ، أما الثالثة وهى حرب الماهراتا فقد بدأت فى حكمه وظلت مشتعلة بينهم وبين المسلمين بعد موته الى سنة ١٧٦١ حيث سحقهم الأفغان فى سهل بانيبات بعد ما كانوا يطمعون فى سلب العرش من المغول وتأسيس امبراطورية ماهراتية على انقاضه وقد ذكر المؤرخ كافى خان وصفا لزعيمهم « سيفاجى » فقال انه يقيم فى بلاد بها جبال تناطح السماء ارتفاعا وغابات كثيفة بالأشجار والنباتات وبلاد هذه طبيعتها تجعل العنصر الذى ينشأ فيها حربيا إذ أن العيشة القاسية تنمى فيهم الروح الحربية لتعودهم على احتمال الشدائد وقد التحق فريق كبير منهم بولايات الديكان ومنها الولايتان الاسلاميتان بيجابور وجولكندا وقد كان سيفاجى زعيمهم ابن رجل من « أودايبور » راجبوتى واتصل بامرأة من طبقة دون طبقته وعلى أثر ذلك هاجر من مسقط رأسة الى الديكان وكان جده ربى له مركزا بها من قبله فقد التحق فى خدمة ملك احمد ناجور قبل أن تحتل هذه الولاية بجيش الملك أكبر وهناك كون جده ثروة ويقال انه كان معتنقا لمذهب مهاريو (مذهب هندوسى) وجاء فى قصة رواها رجل من الماهراتا أن زوجته كانت عاقرا لم تلد لمدة سنين طويلة فذهب الى رجل من أولياء المسلمين ورجاه أن يدعو له أن يرزق ولدا فولد له ابنان فسمى الأول « شاهجى » وهو لقب تشريف باللغة الهندوسية فزوجه والده وهو فى سن الخامسة من طفلة لأحد أعيان أحمد ناجور وقيل أن أحدى (وليات) الهندوس قالت لوالده إنه سيعثر على ثروة كبيرة وانه سيكون من نسله من سيعين ملكا حيث يقيم العدل فى بلاد الماهراتا ويزيل كل من يقف فى طريقه من البراهمة وإنه سيعتدى على بيوت الله وان حكمه سيعود بالسعادة على شعبه وسيحكم سبعة وعشرين عاما ، وقد ذاع صيت

شاهجى فى أحمد ناجور بعد موت مالك عنبر الحبشى وصار يلعب بدسائسه بين ملكى أحمد ناجور و بيجابور وأحيانا لدى الامبراطور وأخيراً نجح وعين قائدا ثانيا لحملة ضد ولاية الكارنتك وفى نهايتها حصل هناك على أملاك واسعة وأقام بها الجزء الأكبر من حياته . وقبل أن يتوجه الى هناك سبق أن تزوج مرة ثانية ، وكان قد رزق بولدين من زوجته الأولى وهما سمبهاجى وسيفاجى فأخذ الأول معه وترك الثانى مع والدته وكان بينه وبينها نزاع ولهذا نشأ سيفاجى لا يعرف والده لأنه عاش بعيدا عنه وقد ولد سنة ١٦٢٧ ، ومن سنة ١٦٣٠ الى سنة ١٦٣٦ أقامت أمه مع والدها إلا أنها فى السنة الأخيرة قابلت والد سيفاجى ليحضر معها زواج ابنه الذى تم وهو طفل و بعد ذلك عادت لمنزلها وتوجه سيفاجى حيث أقام مع والدته فى أملاك والده الواسعة وكان يقيم معهما رئيس طائفة شاهجي فعلم سيفاجي حمل السلاح واستعماله وحفظه لدينه ونشأ سيفاجى محاربا شهيرا و بدأ فى ممارسة أعماله وهو لم يزل صغير السن واتصل بطبقة من الأشقياء واحتل بمعاونتهم بعض الحصون التى لم يكن لها شهرة ولكنه حصن بعضها تحصينا تاما حتى صارت عقبة من أشد العقبات فى وجه من يحاول اقتحامها وأشهرها قلعة « تورنا » واستولى بعدها على قلاع أخرى وكان معظم وسائله فى تحقيق ذلك الرشوة والخيانة وعلا مركزه حتى صار رئيسه يحسب له حسابا وخشى أن لا يستطيع حكمه فى المستقبل إلا أن هذا الوالى شعر بدنو أجله فدعا سيفاجى وأوصاه أن يحافظ على حقوق الهندوس وأن يدافع عن معابدهم وكرامتهم وأن لا يضيع المستقبل الزاهر الذى ينتظمه ثم انه وصله خطاب من والده يطلب إيراد الأملاك التى يديرها فلم يجب مطلبه وكان سنه فى هذا الوقت عشرين عاما إلا أن جسمه نما بسرعة ، ولم يكن حاكم بيجابور يفكر فى شأن هذا الشاب الخطر النشأة وحصر اهتمامه فى

اقامة المبانى والانغماس فى اللهو والشهوات ، أما شؤون الحكم فقد أهملها بينما كان سيفاجى يقوى نفوذه فى أطراف المملكة شيئا فشيئا واستخدم بعض حاشية الملك بطريق الرشوة فى التستر على أعماله مع موافاته بما يهمه من الأخبار وقد وصفه كافى خان فقال انه كان فى المكر والخداع كأبناء الشياطين وكان رأس الغش والدهاء فقد استطاع الاستحواذ على ثلاثة ضياع كانت ملك رجل عربى غائبا لزيارة شاه جهان وكانت هذه المسئلة بدأ سلسلة اجراماته التى استولى بها هو وسلالته على كثير من أملاك الغير حتى انتشرت سطوتهم وخافهم كل من فى الديكان والكونكان وكان كلما سمع على بلد رائجة اغتصبها واستولى على ما بها وكان قبل أن يتقدم أصحاب الأملاك بالشكوى يسبقهم هو بالرشوة مشفوعة بأضاليله فيعود الشاكون بالخيبة وزاد نفوذه ولم تقف مطامعه عند حد واستفحل ضرره واستمر فى طغيانه والموظفون يؤيدونه لدى الحاكم وفضلوا مصلحتهم الآجلة وبذلك وضعوا فى يده بلطة استطاع أن يقتلع بها نفس الموظفين وغيرهم من أساسهم وذهبت أملاكهم وكل شىء لهم فى مهب الرياح اذا انتقلت السلطة فى يده وصار أكبر الثوار فى الأمبراطورية وقد استتر أمره طويلا عن الهيئات الحاكمة لوسائله الخادعة وأهمها الرشوة ولبعده عن مقر الحكم ولكن لم يدم الحال على هذا المنوال الى النهاية ، ولما شرع فى وضع يده على بعض الثغور البحرية وجدت حكومة بيجابور أن لا مناص من القضاء عليه فقبضت على والده وأحضر الى الملك حيث أمره أن يخابر ابنه فى العدول عن تمرده فاعتذر مؤكدا أن ولده لم يثر على العرش فقط بل ثار عليه أيضا واغتصب أملاكه فلم تصدق روايته ولما حاول الاتصال بابنه ليعدل عن خطته لم يفلح فاعتقل الوالد فى السجن ولم يكن به غير نافذة صغيرة وأفهم أنه اذا استمر ابنه فى عصيانه الى وقت معين فسيسدون عليه النافذة ويترك من

غير طعام ليموت جوعا ولما علم سيفاجى بما حصل لوالده لم يكترث بل استمر فى
طريقه وذهب الى شاه جهان الذى لم تكن علاقته مع بيجابور والتحق بخدمته
وأطلقت حكومة بيجابور سراح ابيه وبقى هناك شبه أسير وبعد قليل أطلق
سراحه ورجع الى الكارنتك حيث كان بها اضطرابات قتل فيها ابنه الأكبر
سمهاجى ولما تخلص شاهجى من حكومة بيجابور عاد سيفاجى ثانية للتمرد
وأول خطوة جريئة كانت ضد راجا سندر راو التابع لمملكة بيجابور وكان
دعاه سيفاجى لكى يتعاون معه فى الثورة فرفض فأرسل بعض أعوانه فذبحه
جزاء رفضه كما أنه طعن أخاه وفى حالة الاضطراب الذى وقع أثناء الاعتداء
على الأخوين هوجمت مقاطعتهما فتحرك عالم جير قاصدا مملكة بيجابور
وكان سيفاجى ملتحقا بالجيش المغولى فهجم على مدينة جونير لايقصد بذلك
خدمة المغول بل صالحه الخاص كما أنه هاجم أحمد ناجور دون جدوى
ولكن اشتداد الحروب فى ذاك الوقت بهندوستان الشمالية اضطر عالم جير
الى ترك الديكان والزحف شمالا وكان يحكم ولاية بيجابور فتى قاصر
فوقعت فيها نزعات وانقسامات بين الذين يديرون دفة الحكم وفى سنة ١٦٥٨
كانت الفرصة سانحة لسيفاجى لاستبقاء ما وضع يده عليه أثناء هذه
الحروب ووجه نظره بعد ذلك لامتلاك الكونكان والثغور الواقعة على سواحلها
وبالأخص ميناء جنجيرى وكان يملكها رجل أفريقى الجنس اسمه سيدى فتح خان
فأوقع على سيفاجى أول هزيمة صادفها من يوم أن ظهرت شخصيته وكانت
الهزيمة شديدة ولم يجرأ أن يعاود مهاجمة هذا الثغر الا بعد مدة طويلة وانتظم
الحكم فى مملكة ببيجابور ورأت حكومتها أن سيفاجي استفحل أمره وأن الوقت
قد حان لتأديبه فاختاروا لهذه المهمة ضابطا جريئا يسمى أفضل خان ولكنه كان
مستهترا بمثل سيفاجى وكان يفخر بأنه سيأتى بهذا الثائر الحقير مقيدا فى الاغلال

ويرميه تحت أرجـــل العرش وقد نجح أفضل أولا فى مطاردة بعض جنود
سيفاجى ولـكن كان الوصول الى هذا الزعيم الثائر عسيرا بسبب طبيعة المـكان
المقيم فيه كما أن بعض رجال الماهراتا ضلل أفضل وأفهمه كذبا وخداعا بأن
سيفاجى سيقدم خضوعه فأرسل أفضل كاهنا برهميا لمفاوضته واقناعه بالتسليم
ولـكنه فى صميم الليل زار سرا هذا الـكاهن البرهمي وأطلعه على حقيقة نواياه
وأنه يريد بهذه الثورة خدمة قضيه الهندوس وخدمة دينهم وان نفس النبى بهوانى
الهندوسى هى التى أوحت اليه بهذه الأوامر لـكى يعاقب المعتدين على معابد
البراهمة وآلهتهم وأن ينتقم من خصوم دينهم لذلك يدعوه للتعاون معه على هذا
الواجب الدينى والوطنى حتى تستطيع طائفتهم أن تعيش فى سعة وسعادة ولم
يكتف بترغيب الـكاهن من الناحية الدينية بل أثار فيه روح الجشع المادى
بوعده إياه بمقاطعة يعطيها له ملـكا اذ أحسن التعاون معه ولذلك مهد هذا
الـكاهن الطريق لمقابلة سيفاجى لأفضل سراً كى يتفاهما على شروط التسليم
والضمانات التى ينالها الأول مقابل خضوعه وقد وقع أفضل فى الشرك الذى نصب
له اذ توجه لسيفاجى ولم يكن فى صحبته غير جندى واحد ودون أن يكون معه
سلاح خلاف السيف الذى كان من عادة كل مسلم حمله أثناء سـيره فى الطريق
وترك جيشه المـكون من ألف وخمسمئة جندى فى مكان بعيد ، وكان سيفاجى
قد رسم خططه من قبل للقضاء عليه وتقابل الاثنان وكان سيفاجى يخفى فى كمه
خنجرا وسلح أصابعه بسلاح ماهراتى اسمه واجناك وهو عبارة عن عدة مشارط
صغيرة حادة تحيط بأصابع اليد فيستعملها عند ما يريد افتراس أحد ، وأحاط
مكان المقابلة بجنوده وأمرهم بالهجوم متى نفخ فى بوق معه ، وبمجرد أن دخل
أفضل انقض عليه وأنشب أظافره فى مكان قاتل وابتدره أفضل بالسـيف
ولـكنه لم يؤثر حيث كان لابسا درعا وسـقط أفضل وتحول بعد ذلك على

الجنـدى وأطاح رأسه ثم نفخ فى النفـير فخرج جيشه وانقض على رجال أفضل بغتة ولم يكن لهم قيمة لغياب قائدهم وكان جمعهم مضطربا فقتل منهم الـكثير وفر فريق منهم مشتتا فى كل الجهات ولجأ البعض الى سيفاجى طلبا للرحمة فنالها وعلى أثر هذا الغدر المنظم ارتفع صيته بين الماهراتا ، وكتب بعض المؤرخين الانجليز عن هذا الملك يعجبون بسيفاجى ويلتمسون له الأعذار فى غدره معتبرينه كحيلة تبررها الحروب وهل الخيانة إلا حيلة ؟؟! واستشهدوا بالتاريخ وقالوا إنه مملوء بمثل هذه الحيل ، وعلى العموم فان الانجليز لم يشاءوا أن يجدوا فى عذر سيفاجى وحقارة وسائله سببا مبررا لنقده (لأنه وأمثاله مهدوا السبيل لهم فيما بعد لامتلاك الهند) .

ودامت بعد ذلك الحرب بين بيجابور وسيفاجي لمدة ثلاث سنوات وكانت بوادرها فى صالحه اذ هزم جيش بيجابور الذى كان يقوده رستم خان وأحتل سيفاجى على أثر ذلك بعض الحصون وقال كافى خان ان الحظ لازم هذا الخائن فازداد قوة وابتاعا يوما بعد يوم وبنى كثيرا من الاستحكامات وعكف على مناوءة بيجابور وصار يهاجم القوافل ويغتصب ما فيها حتى النساء ولـكنه جعلها قاعدة وأمرا محتما أن لا يتعرض جنـده لـكتب المسلمين ولا مساجدهم ولا نسائهم وكان كلما وقعت نسخة من القرآن فى يده أعطاها لأحد رعاياه من المسلمين ، وكان كلما أسر امرأة هندوسية أو مسلمة أبقاها عنده حتى يحضر أحد أهلها لاستلامها بعد دفع فديتها ، وعند نهب أى مدينة كان يجعل كل شىء من نحاس حصة لجنده وأما الفضة والذهب والمجوهرات فـكان يخصص جانبا منها لضباطه والباقى له ، وكان النهب عنده له قوانين وقواعد يرعاها أعوانه لأن هذا النهب جعله الدعامة الأساسية لسياسته وظل سيفاجى موفقا فى حروبه الى أن توجه الى محاربة سيدى جوهر وكذلك ابن أفضل خان

فضل محمد وقد طوق الأول سيفاجى وحصره لمدة أربعة أشهر فلجأ الى الحيلة كعادته وقابل سيدى جوهر ليفهمه أنه يقصد التسليم ، ولما أزال الشك من عنده انسرق ليلا من وسط المحاصرين وفر الى حصن له ولكن عرف مكانه الذى قصده قبل أن يصله فتحاشاه وقصد الراجا الخائن الذى سلم أباه للحكومة وقتله انتقاما فسر أبوه واصطلح معه ومشى عدة أميال للتحية والتسليم على أبيه وتوسط والده فيما بعد للصلح مع الحكومة فقبلت أن تعطيه البلاد الواقعة ما بين كونكان وجوا وكان هذا الصلح مفيداً لسيفاجى إذ بدأ المغول فى مطاردته واحتلوا بعض بلاد الماهراتا فتفرغ لهم وانقض بجنده على كل شىء يقابله فى الطريق من مؤون وأمتعة وذخائر تابعة لأمير الأمراء الذى لما سمع بذلك أرسل أربعة آلاف خيال للمحافظة على هذه الأشياء ولكن مباغتات جند سيفاجى من حين الى آخر كانت ناجحة و بعد مشاق شديدة تجمعت قوى مغولية وتوجهت الى بونا وعسكرت فيها ولما تم عقد الصلح بين سيفاجى و بيجابور تفرغ الى المغول وكان كدأبه يعول على الحيلة أكثر من تعويله على القوة ، وكان مما احتال به للتنكيل بخصمه أن دس جموعاً كبيرة من أعوانه بعد أن ألبسوا غلاما لبس عروس وأخذوا تصريحاً بالدخول الى بونا على مقربة من المعسكر للاحتفال بفرح هذه العروس المزعومة ولا زالت جموعهم تتقاطر عزلا عن السلاح الذى كان قد خبأه قبل ذلك فى مكان بالمدينة ولما انتصف الليل ذهبوا الى المكان المتفق عليه وتسلحوا واختاروا منفذا للوصول الى السراى التى يقيم بها أمير الأمراء فنقبوا نقباً فى حائط ودخلوا منه ، فوجدوا أنفسهم فى المطبخ صدفة وكان الطباخون يشتغلون ليلا حيث كان شهر رمضان فصاحوا ولكن تكاثر عليهم أعوان سيفاجى وقتلوهم وتوغلوا داخل المكان يذبحون كل من قابلهم وعلا الصياح من بعض الجوارى واستيقظ أمير الأمراء وأخبروه بما حصل فتسلح وأقبل

عليه ثلاثة سقط اثنان منهم فى خزان كان فى طريقهما وضرب الثالث ولكنه انقض قائما وقطع ابهام الأمير فعاد وطعنه فخر قتيلا وتحول على من بالخزان وقتل الذى بقى على قيد الحياة بحربة ولما رأى خصومه تتكاثر فر الى مكان أمين ووصل فيما بعد جند سيفاجى وباغتوا الحرس الذى كان يقيم فى فناء كبير وأبادوا جميع رجاله وكانوا يسخرون من الكيفية التى يحرس بها الجند سيدهم إذ كانوا نائمين حيث تحجب اليقظة وتنبه بعد ذلك أبو الفتح ابن الأمير وقتل بعض المهاجمين ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه وفر بعد ذلك أعوان سيفاجى قبل أن تدركهم القوة الكبيرة التى بالمعسكر وكانوا قد قتلوا زوجة لأمير الأمراء وأحدثوا فى زوجة أخرى ثلاثين جرحا ولكنها لم تمت وعلى أثر هذا الحادث نصح جزونت سنج لأمير الأمراء بالتفاهم مع سيفاجى فلما علم بذلك عالم جير سحب القائدين وعاد فأبقى جزونت فى الديكان ونقل أمير الأمراء الى البنغال واستلم قيادة الديكان الأمير معظم خان ابن الملك وعاونه « جاى سنج » و « ديليرخان »

وكان سيفاجى قد اشتبك ثانية فى حرب مع بيجابور وصار يعبث فى بلادها فساداً ، وبلغ من جرأته أن ركب سفينة وهاجم أحد ثغور الشاطىء الغربى ولاقى أهوالا شديدة فى الحرب اذ هاجت عليه العواصف وكاد اليم يبتلعه ، وفى سنة ١٦٦٤ احتل ميناء سورات وكانت تابعة للمغول ، وباغتها ونهب ما بها ولم يقاومه فيها غير الانجليز والهولنديين وسلموا من أذاه وأرسل مراكبا فاعتدت على حجاج المسلمين المسافرين بحرا الى الحجاز فأسخط بذلك عالم جير ولما علم قائد المغول الهندوسى جاى سنج باعتدائه على الحجاج تحول عن محاربة بيجابور وذهب لقتال الماهراتا واحتل عدة حصون ثم توجه الى سيفابور التى شيدها سيفاجى فسلمت وسلم أكثر الحصون وان كان قاسى فى ذلك جيش المغول أشد الاهوال الا أن النصر حالفه وانتقل جاى سنج وطرق

بارندهور وبها يعسكر سيفاجى ويقيم معه أولاده ونساؤه فعرض التسليم
الى جاى سنج ولم يكن ليصدقه لسابق ألاعيبه ولكنه قبل على حذر
واحتاط بالجند ضد أى مباغتة أو خيانه وقبل مقابلة سيفاجى عرفه جاى سنج
الشروط التى سيعاملونه بمقتضاها وكانت تسليم كل الحصون التى فى يده
والتوجه لتقديم فروض الطاعة للامبراطور وفى الوقت نفسه قطع له
عهدا على تأمينه على نفسه وأن لا يصيبه بسوء فى شخصه أو حريته وعند
المقابلة قبل الراجا جاى سنج سيفاجى وأظهر له البشاشة التامة التى تتفق مع
الطبع الراجبوتى وصافح سيفاجى يد جاى سنج وقال له « إنى جئت مقرا
باجرامى طالبا منك الصفح عنه ولك أنت اذا شئت أن تقتلنى بذنبى أو تعفو
عنى بفضل منك ، وأنا على استعداد لتسليم قلاعى بالكونكان الى ضباط
الامبراطور وأن أرسل ابنى ليلتحق بخدمته كما وانى أرجو بعد مضى عام أن
يرخص لى أن أحتفظ بقلعة أو اثنين لأقيم مع أولادى وزوجتى وباقى عائلتى ،
وكلما طلب منى تأدية خدمة سألبى الطلب باخلاص متى صدر الى أى أمر »
واستقر الأمر على أن يسلم ثلاثة وعشرين حصنا من التى تحت يده ويستبقى
اثنى عشرة ، ويصحب ابنه البالغ سنه ثمانية أعوام الى الامبراطور حيث
تكون إقامة الأب مؤقتة واقامة الابن مستديمة ويوضع فى مصاف الأشراف
ضمن حاشية الملك ففى سنة ١٦٦٦ ذهب سيفاجى وابنه ومعهما حاشية صغيرة
الى دلهى وبدلا أن يقابله شخص من ذوى المراكز العالية وقع الاختيار على
رام سنج بن جاى سنج ومخلص خان وهو مغولى فى الدرجة الثانية وعين سيفاجى
فى مركز دون مقامه فعد ذلك اهانة لشخصه ، ثم انه لما قدم للامبراطور لم ينل
منه أى التفات ووضع بين طبقة دون طبقته ولم يكتم سيفاجى غيظه بل أظهره
بصوت عال وخرج حانقا ولم تسلب حريته عملا بالوعد السابق لكنه كان تحت

مراقبة شديدة فصار يفكر فى الرجوع الى الماهراتا ولجأالى الحيلة كعادته فادعى أنه مريض ولم يبارح فراشه لمدة طويلة ثم ادعى أنه نقه وعمل سلالا كبيرة ليضع فيها هدايا الشكر على النقاهة وهى عادة شائعة فى الهند فلم يثر ذلك أى شك أو ملاحظة وأحضر شخصا ووضعه تحت الغطاء فى الفراش حتى اذا ثار شك وجاء أحد ووجده فى فراشه زال شكه ، ثم جىء بسلتين ووضع سيفاجى فى واحدة وابنه فى الأخرى وحملا على عربة الى خارج دلهى كما لو كانا هدايا الى النقطة التى انتظره فيها بعض أعوانه ، ولما شاع أمر هربهما أعدت الخيل السريعة لتتبعهما ولكنهما كانا وصلا الى مكان بعيد ، واتخذ سيفاجى مظهر الفقراء المسلمين تضليلا لمن يقتفى أثره ووصل الى بنارس وزار فيها الأماكن المقدسة و بعد مضى شهور من هروبه وصل الى جبال الماهراتا وترك ابنه وديعة فى الله أباد عند أحد كهنة البراهمة وحافظ الرجل على أمانته الى أن سلم الأبن الى الأب ...

و بفرار سيفاجى فقد عالم جير أحسن الوسائل المؤدية الى تهدئة الديكان ولو كان عالم جير على بينة تامة من حقيقة مركز هذا الرجل لما أحجم عن ارضائه حينما ذهب اليه فمثله لو ذهب فى صحبة أمير مغولى على رأس جيش لاخضاع الديكان لتم ذلك بسهولة ، ولكن الترضية لم تحصل ، وعلى هذا توجه سيفاجى الى بلاده وأعلن استقلاله فيها ومن هذا الموقف تبدو أخطاء عالم جير السياسية فانه سلك مسلكا من الخطر بمكان اذ أنه تغالى فى خطته الدينية دون تقدير للعواقب ولم يكتف بمحاربة الهندوس مع أنهم كانوا قوة لا يستهان بها و كيف لا يحسب لمثل هؤلاء حساب مع أن نسبتهم للمسلمين كانت ثمانية الى واحد ، ومما زاد فى حرج عالم جير وخلق له المتاعب التى لم تنتهى حتى بعد وفاته بل كان لها أثر سىء امتد الى من حكم بعده من سلالته فانه فتح على نفسه

بركان حرب باثارة الهندوس وكان فى وسعه وقتئذ أن يعتبر الشيعة إخوانه فى الدين وان انحرفوا عنه قليلا فيكسب معاونتهم ويأمن عداوتهم لكنه لم يفعل ذلك بل أغضب هؤلاء وهؤلاء شيعة وهندوسا وكان يجدر بمثله أن لا تفوته هذه الملاحظة إذ كانت السبب الأساسى لتوسيع الخلاف بين مذهبى الأخوين فى الدين فألحق بهما مضار زائدة فى الهند وخارج الهند وحبذا لو تدارك عقلاء المسلمين وهيئاتهم الحاكمة علاج هذه المسئلة التى تعتبر فى مقدمة الأمراض للمجتمع الاسلامى والتى يجب الفصل فيها بحزم وعزم وهل يوجد أحزم من أن يكونوا يدا واحدة ؟ والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وحبذا لو أن بوادر التفاهم التى بدت من مقابلة الشيخ الأجل رئيس علماء النجف وفضيلة الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر تتبعها مجهودات أخرى حتى لا تنام هذه الفكرة المباركة فان من ينجح فيها يؤدى خدمة للعالم الاسلامى لا تقل قيمة عن أى خدمة قام بها أكبر خدامه اذ يكون أول من يضع أساس عصبة أمم اسلامية تتصل بعضها ببعض وتتعاون على فعل الخير لهذا العالم الاسلامى المغلوب على أمره المحكوم لغيره المسخر لارادة الأجانب فها هى فرنسا واسبانيا تزجان بجنودهما من المسلمين فى وجوه المدافع عند وقوع أى حرب فيكون نصيبهم الفناء وها هى انجلترا تنكل بالعرب جنوباً وتجليهم عن أوطانهم شمالا وتخلى بلادهم منهم ليحل مكانهم العنصر الصهيونى البغيض وهى التى أباحت دم الهنود فى حرب البوكسر فى الصين وفى مقاتلة اخوانهم المسلمين بتركيا وفى حرب المانيا بأوروبا وكم كانت خسارتهم بليغة حتى قتل منهم مئات الآلاف ولا نظن أن قراء التاريخ ينسون ما وقع بين الترك والفرس من حروب دينية لم تقم على أسباب يقرها عقل عاقل ولا قلب مؤمن ولا تجيزها ذمة إذ كيف يساق مسلم ليحارب مسلماً ودم المسلم على المسلم حرام وقتاله كفر ، فلعل القائمين

بفكرة المؤتمرات الاسلامية التى ظهرت بوادرها بالمؤتمر الاسلامى الذى عقد فى القاهرة للنظر فى مسئلة فلسطين يتلوه مؤتمر للنظر فى هذه المسألة الهامة حتى يقضى عليها باعتبارها خرافة من خرافات الأجيال السابقة ومن حسن الحظ أن مصاهرة أمبراطور ايران لملك مصر تساعد على انجاح هذه الفكرة ، وان كان الاسلام أجل وأعظم من أن يحتاج الى مصاهرة ملكين فى ربط طوائفه ببعضها ، والاخاء الاسلامى وهو معجزة من معجزات المجتمع يعتبر خير وسيلة من وسائل السلام لما يزرعه من المحبة والمودة بين الشعوب الاسلامية وهو السفير الذى لا يفشل فى ايجاد الروابط المتينة التى تصير أمتين أو أكثر كأمة واحدة . من أجل ذلك يتضح أن عالم جير أساء الى قضيته كل الاساءة لما لم يستخدم الاخاء الاسلامى بينه وبين المسلمين الشيعة بل حاربهم فأضعفهم وشتت شملهم وأضعف نفسه وأعطى فرصة للماهراتا أن تتقوى به عليه الى أن صارت من القوى التى ساهمت أكبر مساهمة فى هدم الحكم الاسلامى بالهند وكيف لا يكون الأمر كذلك وكان فى الوقت الذى يضم فيه سيفاجى شتات الهندوس ويخلق منهم قوة كان جاى سنج الهندوسى قائداً فى الجيش المغولى الذى يقاتل به المغول مسلمين آخرين فى بيجابور وجولكندا حتى انه وصل الى عاصمة المملكة الأولى بينما قواد هذه المملكة صاروا يحتلون أرضاً مغولية و يتلفون كل شىء بها حتى صيروها خرابا بينما تحول فريق منهم الى محاربة الراجا والقضاء على أمتعته ومؤونته وتسميم الآبار وقطع الأشجار وهدم المبانى التى يعسكر بها حتى لم يبق منزل ولا حديقة الا وتناولتها الفؤوس بالهدم وحولتها الى أنقاض مجاورة للقلعة ومما زاد الموقف حرجا أن أحد الأغوات من جيش الملك عادل (حاكم بيجابور) عاد بستة آلاف فارس بينما أمده قطب الملك بخمسة وعشرين الف جندى ، فلما خرج بعض الجنود المغولية للاحتطاب وجمع الأعشاب للدواب قابلتهم هذه الامدادات واسرتهم وبدأ جيش

المغول يشعر بالمجاعة بسبب ما يحيط به من خراب وتدمير مما اضطر جاى سنج الى التقهقر واستدعى الامبراطور هذا القائد ومساعده ويلد خان بسبب فشلهما وأرسل ابنه معظم ليكون واليا على الديكان ، وجزونت سنج مساعداً له وكان هذا التغيير فى صالح سيفاجى الذى بدأ يظهر ثانيا وقد ادعى أنه يحارب باسم ملك جولكندا الذى لغفلته أمده بالأسلحة والمدافع بينما كان فى الواقع يعمل لحسابه الخاص مستغلا الخلافات الواقعة بين الملكين المسلمين ووجود حرب طاحنة بينهما وكانت عواطف جزونت سنج معه سرا بخلاف جاى سنج الذى سلك طريقا مستقيما فى خدمة المغول ، ورأى معظم خان أن يسترضى سيفاجى فمنحه رتبة راجا ووهب ابنه أملاكا فى بيرار ، وقد فهم سيفاجى الغرض من هذه المعاملة ورجح أنهم يريدون ايقاعه فى الفخ فاتخذ حذره ولذا نشط فى بناء القلاع وزيادة الجند ولما تم استعداده قفل الطرق الموصلة لقلعته ولم يترك الا طريقا واحدا ، ثم بدأ حروبه بمهاجمة سورات واغتصب كل ما فيها حتى متاع أمير من أمراء ماوراء النهر كان عائدا من الحج بمكة ، وكانت هذه نقطة حساسة جدا عند عالم جير اذ الاساءة الى أتباعه فى أداء فريضة الحج أمر لا يحتمل عنده وظهر غضبه فى جزونت سنج قائده هناك إذ عزله (لأنه هندوسى) وعين بعده خان جهان بهادر وكان فى هذا الوقت احتل سيفاجى جنجيرا إذ حوصر هناك فتح خان ولم تصله مساعدة من جيرانه من مملكة بيجابور اذ كان ملكها مات وقتئذ ، وترك على العرش ولده الصغير اسكندر وسنه خمس سنوات وانقسمت الأحزاب هناك على بعضها فزادت المملكة ضعفا حتى قربت من آخر أيامها .

وفى الشمال أغلق عالم جير المعاهد الدينية الهندوسية فى بنارس وهدم معبد شناه فى سنة ١٦٦٩ وعلى أنقاضه بنى مسجد أورنك وصارت واجهة المدينة لا يظهر فيها إلا مساجد المسلمين لا معابد الهندوس ، ثم إنه هدم فيما بعد معبد

مترا فأساءت هذه الخطة الى راجاوات الهندوس وتولدت من يومها روح الانتقام لدينهم والتنكر للحكم الاسلامى ، ومما زاد فى سخطهم على عالم جير إرغامهم على دفع الجزية وكان لهم من هذه الناحية عذر قوى اذ أن الوقت الذى كان فيه يفرض الحكام الجزية على غير المسلمين كانت له مبرراته اذ أن جيشهم كان قاصرا على العنصر الاسلامى فقط ، أما وقد أصبحت العناصر الاخرى تندمج فى صفوف المسلمين وتحارب حربهم وتسالم سلمهم فانه لم يعد يوجد مبرر لفرض الجزية خصوصا وقد صار أكفأ جزء وأ كبر جزء فى جيش المغول من عساكر الراجبوت .

وفى اليوم الذى أعلن فيه اعادة الجزية والبدء فى تحصيلها قامت قيامة الهندوس واحتشدت جموعهم فى الفضاء الواقع بين السراى والجامع وصاروا يتظلمون ويطلبون من الملك انصافهم وكانوا خليطا من التجار والصناع والعمال حتى غصى بهم المكان وتعسر المرور رغما عن الأوامر التى صدرت لهم بالتفرق وصار من المستحيل على عالم جير أن يصل الى المسجد وفى كل لحظة صار العدد يتزايد حتى تعطلت أداة نظام الحكم وصار الجند لا يستطيع تنفيذ الأوامر وفى النهاية صدر الأمر باخراج فرقة من الأفيال لتوجيهها ضد الجموع المحتشدة وتساقط الكثيرون تحت الأفيال فدهستهم واستمر الهندوس عدة أيام على هذا المنوال يتجمعون أمام السراى ويحتجون إلا أنهم تحت ضغط القوة اضطروا فى النهاية الى دفع الجزية فزادت فى استيائهم ومما جعل الاستياء يصل الى قمته اتفاق موت جزونت فى هذا الوقت (جزونت والى كابل) فظن الهندوس أن الملك دس له السم وصارت بيئاتهم فى هم وحزن ودخل عليهم بسبب عجزهم عن الدفاع عن معتقداتهم الدينية وأسكتت أجراس معابدهم وطبولها ، وكثير منهم أعتنق الدين الاسلامى تحت تأثير الضغط وتاريخ صدور الأمر باعادة الجزية كان

سنة ١٦٨٠ ، وكان سيفاجى على رأس المناوئين لعالم جير وأخطرهم شأنا ، وكان بعد دخوله ميناء جنجيرا قد ناوأه فيها بعض الأشراف ولكن ظهر له خصم أقوى وأخطر فى شخص والى بمباى والذى انتقلت مدينته من حكم البرتغال الى حكم الانجليز حيث أخذوها كمهر لكاترين أميرة براجنزا بمناسبة زواجها لشارل الثانى وقد احتج هذا الوالى الانجليزى لاعتدائها على أملاك الفاوريقات الانجليزية وأصر على أن تقدم له تعويضات عن الخسائر بالرغم عن أن سيفاجى أنكر هذا الاعتداء إلا أنه رضخ فى النهاية ودفع التعويض المتفق عليه وقد جلس سيفاجى على عرش راجحار وصار يحمل لقب راجا ، وحضر الاحتفال بجلوسه بعض الانجليز الذين كان يهمهم توسيع هوة الخلاف بين الهندوس والمسلمين ليستفيدوا من هذا الظرف وعند تولى سيفاجى الحكم بدأ يمنح ألقابا لأعوانه تقليدا لحكومة دلهى ولكى يظهر لنفسه شأنا كبيرا ، ومضى سيفاجى الستة السنين الباقية من عمره فى حروب مستمرة ، وكان ينافس حكومة المغول فى مملكة بيجابور اذ كان يحاول امتلاكها مثل عالم جير والذى أطال دفاع بيجابور متانة حصون عاصمتها وكانت جولكندا فى هذا الوقت أقوى قليلا من جارتها بيجابور وقد عقد سيفاجى معها محالفة ضد عالم جير وكان من الزعماء المجاورين لسيفاجى أمير هندوسى اسمه قنكاجى ، وهذا الأخير اعتدى على بعض رجال الزعيم وسلبهم فأرسل اليه سيفاجى خطاب عتاب بين له فيه خطأه وكيف أنه جعل الهندوس يتنازعون مع اخوانهم فى الدين ويسلبون متاعهم ، فأثرت فيه المكاتبة وأسف على ما كان منه ورد كل ما اغتصبه سابقا مما كان دليلا على ما صار لسيفاجى من المكانة التى صارت تنمو شيئا فشيئا الى أن بدأ يرفع السيف للمطالبة بحقوق الهندوس ويحض طائفتهم على بذل التضحية فى سبيل قضيتهم العامة ولقد أرسل خطابا ، الى أحد أصدقائه يستطيع

الانسان أن يفهم من خلاله شعوره نحو قضية الهندوس وقد قال فيه ، « لم تصلني أخبارك لمدة طويلة ، لذلك أجد نفسى مشغول البال وقد أخبرنى أحد أصدقائك أنه يشاهد أنك صرت كسيف البال لا تهتم بشؤون نفسك ولا تقيم أى الحفلات الدينية وقد أصبح جندك عاطلا ولا توجه أى التفات الى مصالحك العامة حتى كدت تصبح ناسكا ولا تفكر الا فى الانقطاع الى أبعد الأمكنة المقدسة وتجعل وقتك يقطعك وبما أن حالتك تهمنى كثيرا ، لذلك أرانى فى دهشة من أنك لا تتخذ والدى قدوة وتتذكر كيف أنه صادم وتغلب على كل المتاعب وقام بأعمال عظيمة وتلافى كل الأخطار الداهمة بروح وعزم وأحرز شهرة استطاع أن يحافظ عليها لآخر أيامه وكل ما عمله فهو معروف لديك وقد اختلطت به كثيرا واستفدت من حكمته وقدرته ولعلك تذكر أيضا موقفى الذى أنا فيه الآن وكيف خضت الأخطار وكونت مملكة فهل بعد كل هذه الأمثلة يجوز أن تسلك مسلك المتقاعد وتطلق أمور الدنيا وتنقلب زاهدا فتتنحى عن ادارة أملاكك لأشخاص يبتلعونها فتسىء الى نفسك وأى حكمة أو عقل فى خطتك هذه والى أى نهاية تسوقك فخذ نصيحتى وانتفع بها ولا تصبح زاهدا واترك التواكل ونظم وقتك جيدا وباشر أمور دينك ولا تهمل ما يؤدى الى راحتك وأنظر الى أعمال قومك والى نظام جيشك والتفت الى الأمور العامة فى موقفك الحالى وأفرض على من حولك واجبات يؤدونها وأجر وراء ما فيه حسن سمعتك وشهرتك ، وكم أكون سعيدا لو سمعت الثناء عنك قريبا وبجانبك بنديت وهو ليس غريبا عنك فاستشره فى كل ما غمض عليك من الأمور وستجده كشخصى وقد وضعت كل ثقتى فيه فضع أنت كل ثقتك فيه أيضاً ولا تكن مترددا ولا تدع الفرصة تفلت منك دون الاستفادة من كل ماحولك وخصوصا جيشك وهذا وقت التقدم الى الأعمال العظيمة فهلم اليها قبل أن تصيبك الشيخوخة وهى سن

التقاعد والزهد فتيقظ — وتحرك — ودعني أرى ما ستفعل — ولماذا أطيل الكتابة لك وأنت رجل عاقل ؟ » .

ولا يمكن أن يقرأ أحد هذا الكتاب الا ويجد فيه ما يدل على روح عالية وحكمة سامية . وقد مات سيفاجى بعد كتابة هذا بزمن قصير . ولا يمكن لرجل آخر أن يصعد بأمة الماهراتا بنفس الصفات البارزة فى تاريخ سيفاجي اذ كانت كلها سلسلة من المباغتات والسطو والسلب والنهب والهجوم والفرار المقرون بأعمال شيطانية وشجاعة جنونية وغدر فظيع ولو كان سيفاجى متصفا بهذه الصفات فقط ما استطاع النهوض بشعبه مهما ساعده الزمن والظروف اذ أن هذا لا يكفى ولا ينفع لتكوين رجل عظيم بل لابد من وجود صفات وكفاءات نادرة حتى يصل الى ما وصل اليه والذى يريد أن يفهم حقيقة هذا الرجل فعليه معرفة الوسائل التى اتبعها فى حكمه فقد كانت سرا من أسرار عظمته وقد كان أهم ما اتصف به العدل التام بين أعوانه .

أما فى الخارج فكان سيفاجى أسوأ مثل فى طباعه بينما كان فى داخل بلاده المثل الأعلى فى العدل والتنظيم وكان جيشه مدربا خير تدريب وكل جندى مثلا للطاعة والأمانة والاخلاص لرئيسه وكان قلم مخابراته السرية لا تخفى عليه خافية ولم يسمح للنساء بالاختلاط مع الجند خلافا للمغول وكان أول اهتمام لسيفاجى منحصرا فى جيشه فقد أعطى لكل واحد منهم أرضا بجانب الحصن أو الجهة التى يدافع عنها أو يقيم بها ، وذلك ليعيش منها أبناء الجند ونساءهم ومنع اعطاء أى قرية التزاما لموظف اذ كان يعتبر هذا النظام شديد الضرر والخطر على الفلاحين فكان يصرف المهايا نقدا وكان يحصل خمس الايرادات كضرائب ويعرف بذلك الفلاح تماما ما سيدفع وكان من ايراداته الثابتة ما يأتى من ضياعه الخاصة والسطو على جيرانه وعلى القوافل فى الطرق العامة اذ كان

يعتدى على كل عابر طريق غير ماهراتى ولقد كان المؤرخون المسلمون يكرهون سيفاجى الا أنهم اعترفوا له بمحافظته على شرف كل من حكمهم وكان يثابر على السطو على القوافل لكنه لم يسىء الى النساء والأطفال الذين يقعون فى أسره وكان كل من خالفه فى ذلك ينزل به عقابا صارما وصدور هذا المسلك من مثله يعتبر عجيبا لما اشتهر به من الصفات السيئة .

أما المؤرخون الهندوس فقد نسبوا غلطاته الى الزمن إذ قالوا ان هذه العيوب كانت شائعة بين الجميع فى زمنه ، وسيفاجى أول من سلك الطريق الذى أنهك به قوى المغول وأضعفهم وسيبقى اسمه خالدا ومشهورا فى الشرق ولو أن مثله عاش فى عهد الملك أكبر لاستغل مواهبه كضابط عظيم أو ادارى خبير و بدل أن يكون آفة فى بلدة يصبح نعمة لها (وقد يكون بعض الظن إثماً)

وقد صار هذا الرجل آفة لحكومة دلهى فى حياته و بعد مماته عاشت مبادؤه وقام بعده ابنه سمبهاجى وكان شابا طائشا لم يرث من صفات أبيه غير شجاعة جنونية مما أعاد الراحة الى حكومة دلهى وجعلها تسترد مكانتها وتعيد سلطتها على الديكان ومكنها من أن تتفرغ مؤقتا الى الهندستان الشمالية التى كان يعتبر جزونت من أكبر الشخصيات الحاكمة بها وكان يقيم بكابل ، فلما مات بقرب حصن آتوك صممت زوجته أن تحرق نفسها يوم وفاته عملا بعوائد الهندوس ولكنها كانت حاملا بسبعة أشهر فمنعت عن ذلك بالقوة وتقدمت زوجته الأخرى وسبع من جواريه وحرقن أنفسهن ، ولما ولدت زوجته الأولى غلاما لم ترد أن تبقى بعد زوجها رغما عن وجود رضيع لديها مفروض عليها العناية به فحرقت نفسها ، ولما قام بعض رجال أبيه بارسال المولود (واسمه آجت سنج) الى الراجبوت كانت قد صدرت أوامر الى الحرس بمنعهم من نقل الطفل لكنهم توصلوا الى غايتهم بمساعدة بعض المخلصين لأبيه من المسلمين واعترضهم الحرس مرة أخرى عند

دلهى ولـكنه هرب فى سـلة بعد ماجرت الدماء فى شوارع دلهى بين جنود الراجبوت والمغول من أجل تهريبه ووصـلوا بالطفل الى تلال راجبوتانا التى كان من الصعب الوصول اليها ور بى هناك ، ورفض عالم جير الاعتراف بهذا الطفل كابن شرعى لأبيه ولـكن الراجبوت فيما بينهم اعترفوا بصحة المولد وزوجوه فيما بعد لأميرة أودايبور الصغيرة ، وكان عالم جير يود أن يستبقيه عنده رهينة ليمنع عشيرته من الثورة اذا فـكروا فيها ، فلما تحدوه فى ذلك أخذ العدة لاخضاعهم له نهائياً فجمع جيشاً كبيرا من كل أنحاء الامبراطورية ليقضى على خصومتهم العنيدة وكان راج سنج زعيما لميوار التى كانت تعتبر مركز قوى الراجبوت وحضر جيش عالم جير واشتبك معه قسم من الراجبوت من الذين عقدوا النيـــة فى سبيل الدفاع عن بلادهم ولـكنهم انهزموا وكانت الموقعة فى سهل ، فدخل بعدها الأمير أكبر مع قائد آخر من خلال التـلال الى سهل آخر توجد فيه مدينة ميوار فلم يتعرض أى شخص للجيش كما أن كل الأهالى بقيت فى أماكنها حتى أنه لم ير أحدا منهم فعسكر أكبر هناك ولـكن على حين فجأة وفى يوم عيد وكان بعض جنده يصلى والبعض الآخر يتزاور و يلهو بأشياء متنوعة باغته ولى عهد ميوار فتشتت جيش المغول ، ولم يتمكن أن يشق له طريقا لوعورة الجبال ولم يسمح له بالخروج الا بعد أن أعطى وعداً بأن لا يعود الى محاربة الراجبوت وفى الوقت نفسه تشتت جيش مغولى آخر كان اخترق المرتفعات ونزل الى السهل نجدة لأكبر وتخليصا له من ورطته وهذا الانتصار بعث فى الراجبوت حماسا جعلهم يهاجمون جيش عالم جير نفسه ، و بعد قتال شـديد اضطروه أيضا أن يتقهقر وأخذوا علما امبراطوريا وفيلة ومركبات ملـكية كثيرة وفى الوقت ذاته سيطرت جيوش الراجبوت على ولايتى راجبوتانا وملوا وأخذوا قضاة المسلمين وحلقوا ذقونهم وجمعوا نسخ القرآن ورموها فى الآبار مما اضطر عالم جـير الى

استدعاء جيش معظم خان من الديكان ولكن هذا الجيش لم ينقذ الموقف ولم يثبت أمام الراجبوت فغرهم انتصارهم وفكروا أن الوقت قد حان للذهاب الى دلهى وامتلاكها وكانت مثل هذه الافكار تساور الراجبوت وفكروا فى تنفيذها أيام بابر شاه وأن يضعوا أميرا هندوسيا فوق عرشها ، أما الآن فكانوا يفكرون فى أن يختاروا للعرش أميراً مسلماً غير متعصب ، وعرضوا هذا على معظم خان ورفضه وقد خامر والده الشك فيه وأرسل يستدعيه لحضر طائعا فذهب عنه شكه ، ولكن ابنه أكبر كان بعكس أخيه ووقع تحت غواية الراجبوت وسار فى نفس الخطة واندفع وراء نفس الغرض الذى كان عند الوالد نحو أبيه شاه جهان ، وعلى أثر ذلك هجر أكبر جيش أبيه ووضع نفسه قائدا على جيوش الراجبوت وذكر كافى خان أن الأمير أكبر انتدب طهاور خان وهو من أتباعه للتوجه الى عالم جير بمطالب من قبله فذهب ومعه بعض حرسه قاصدا خيام الملك فلما وصلها طلب معه أن يتجرد عن سلاحه فلما رفض اشتعل الملك غيظا ومسك سيفه فى يده وأمر بادخاله واتفق أن أحد الحاشية تجاسر ووضع يده على جسم طهاور تعرضا له فعد هذا إهانة وضرب هذا الموظف فى وجهه بقبضته وتراجع الى الوراء فتعثر فى حبل من حبال الخيام ووقع فعلا الصياح من كل ناحية بضربه وذبحه فانكب عليه الكثيرون وقتلوه ووجد بعد قتله أنه كان لابساً درعا تحت ثيابه .

لم يكن لدى الأمير أكبر مهارة والده أو دهاءه وقد ابتكر عالم جير طريقة خداع فى افساد خطته فأرسل اليه خطابا يفهم القارىء من عبارته أنه على وئام مع والده وكلف أحد السعاة أن يتوجه بالخطاب اليه وأن يثير فى طريقه شكوك الراجبوت نحوه فيفتشونه حتى اذا وجدوا الخطاب وقرأوه استنتجوا من عبارته تواطؤ أكبر مع أبيه عليهم ولما سار الساعى فى طريقه وقابله أحد الضباط الراجبوت اشتبه فى أمره وفتشه

فعثر على الخطاب وقرأه وقامت قيامة الراجبوت على أكبر الذى صار يتنصل من أى اتفاق فلم يصدقه الا القليل وانقسمت القوة على نفسها ورأى أكبر أن قضيته أصبحت خاسرة فركب سفينة انجليزية وفر الى مسقط ومنها الى بلاد ايران حيث أقام هناك ومات قبل أبيه بمدة قصيرة ، ولم يشأ عالم جير أن يحاول مالم ينجح فيه ملك آخر قبله وهو اخضاع الراجبوت تماما فعقد محالفة بموجبها أعاد لهم مدينة شيتور والأماكن الأخرى التى احتلها . وتعهد أن لايهدم معابدهم على أن ماهدم منها لايجوز لهم تجديده وأهمل ذكر الجزية وهم أيضا لم يدفعوها فيما بعد المعاهدة وحينما انتهى من الراجبوت حول وجهه نحو جولكندا و بيجابور فى سنة ١٧٨١ ومما دفعه نحو هذه الجهة ثقته أن ابنه أكبر اتجه الى هناك وثانيا لأن سمبهاجى بن سيفاجى اعتدى على بعض أملاك الامبراطورية عند مدينة برهانبور وكان قائد المغول فى الديكان هوجهان خان واشتهر بالرشوة والضعف فلما ذهب ليقطع على سمبهاجى خط الرجعة تباطأ ، ولما حانت له الفرصة لم يشأ انتهازها مما أنزل عليه غضب عالم جير حتى أنه جرده من رتبته ووصل الملك الى مدينة برهانپور سنة ١٦٨٢ومن هذا التاريخ الى نهاية حياته كان يصرف وقته خارج المدن فى معسكرات وكان معسكره متسع المساحة لايقل فى حجمه عن مدينة متوسطة ، وكان يقيم فيه الامبراطور وحرمه الأشراف الذين يلازمونه وعائلاتهم و بطانة الامبراطور وحرسه وعليه فقد أقام الامبراطور وقتا أعاد الى ولاته فى الديكان نشاطهم فبعد تباطئهم فى تحصيل الضرائب تغيرت أطوارهم وصاروا يعملون بنشاط وهمة ، ثم وجه الامبراطور نظره الى حصن ساليرفى كونكان على مقربة من البحر وهذه المنطقة لم تكن بها الأقوات الكافية فمات الكثير من الخيل وجمال الجيش ، حتى ان الأمير أعظم اضطر أن يمشى على رجليه ، وصارت حياة الجند هناك لا تطاق مما اضطرهم الى الانسحاب وذهبت قوة وجاءت قوات لاحتلال هذا الحصن واخضاعه

فلم تنجح ، ولـكن حيث فشلت الجيوش نجحت المفاوضات وسلمت ساليرومن المسائل الجديرة بالذكر ما قام به سمبهاجى من مهاجمة الانجليز والبرتغال فى أملاكهم ومحاولة البرتغاليين مهاجمته ثم اضطرارهم الى التراجع بخسائر فادحة ، حيث تركوا كل مدافعهم ومستودعاتهم وخيامهم غنيمة فى يد سمبهاجى ودامت الحروب بينه وبينهم عدة سنين وكانت الغلبة له غالبا عليهم ، وكثيراً ما هاجم أملاكهم ولـكن قوته لم تكن كافية لاجلائهم جلاء تاماً واستمر عالم جير يعد العدة لاحتلال بيجابور وجولكندا لاعتيادهما مساعدة الماهراتا ضده ، وقبل أن يبدأ فى قتال ملك جولكندا أرسل له رسالة طلب بها متأخرات الضرائب الباقية عليه وفى حالة عدم القدرة على دفعها يرسل بدلها ماستين لهما شهرة عنده ، وجاء الرد بالرفض فزحفت جيوش المغول على هذه المملـكة وتولى القيادة الأمير معظم وجهان خان ولم يتقدم الجيش الا تقدما جزئيا ، وطلب القائدان مدداً فلم يصلهما ففاوضا حكومة جولكندا فى ايقاف الحرب مقابل تسليمها لبعض أملاكها الواقعة على الشاطىء الشرقى، فجاء الرد بأن هذه الأملاك أخذت بحد السيف وأسنة الرماح ولا زالت جولكندا على استعداد للدفاع عنها بنفس السيوف والرماح فاشتعلت الحرب ثانية وتراجعت جنود هذه المملـكة الى مدينة جولـكندا وكان ملـكها يسىء الظن فى اخلاص قائد جيشه محمد ابراهيم فحاول القبض عليه فانضم الى جيش الامبراطور ، ولما علم ملـكه بخبره فر الى القلعة وحينما اشتهر هذا الأمر هجمت جيوش المغول والجماهير على مخازن أبى الحسن الملك وعلى أمتعته وأمتعة بعض رعاياه وكان شقاء السكان عظيما ، حيث هرب الـكثيرون بنسائهم ولم يتمكنوا من أخذ أرزاقهم معهم . وقبل طلوع الفجر وصل جيش المغول الى القلعة وهاجمها ويقول المؤرخ ان مصاب هذا المـكان يجل عن الوصف فـكثير من أملاك أبى الحسن وجواهره وفرشه وكل ثمين لديه ذهب نهبا وأما شقاء نسـاء المسلمين

وأطفالهم فكان يدمى القلوب ولما رأى ذلك الأمير شاه عالم بن عالم جير أمر ضباطه
بايقافها فورا فعملوا كل ما فى وسعهم ولـكنهم لم يستطيعوا احداث التأثير المطلوب
ورجا الملك المهزوم فى عقد الصلح حيث تم فى سنة ١٦٨٦ وكانت شروطه قاسية
إذ سلم أراضى الساحل الشرقى وفرضت عليه غرامة ماليه فادحة وطلب منه
تسليم وزرائه الهندوس كما فرض عليه أن يتوجه الى عالم جير ويطلب عفوه
وصفحه ، واتضح أن الشرط الخاص بتسليم الوزراء الهندوس لم يكن لازما إذ
قتلوا أثناء الاضطرابات . ولما تم اخضاع جولـكندا تحولت الجيوش الى بيجابور
فلم تجد مقاومة الا عند العاصمة وكانت شديدة مما اضطر الجيش الى التراجع
خصوصا وان الماهراتا وجدوا فى ذلك فرصة سانحة لهم فهاجموا أملاك المغول
واحتلوا برهان بور فى نفس سنة ١٦٨٦ . وتقدم جيش أعظم ثانيا ولـكن قوة
من جيوش بيجابوو حالت بينه و بين معسكره ولم يمـكن تخليصه الا بصعوبة
وبمساعدة نظام الملك ، الذى سر منه عالم جير لدرجة أن قدم له الشكر مراراً
للخدمات الجليلة التى أداها ، وتجمعت جيوش المغول ثانيـة وانضمت لها بعض
القوات من جولـكندا وانضم اليهم أيضا عالم جير بنفسه ولـكن حرس المدينة
أظهر رجولة فائقة الا أنها لم تدم أمام هذه الجيوش المتدفقة فسلمت الحامية وسجن
الملك الصغير ولبث فى سجنه ثلاث سنين مات على أثرها ، ومما ذكره مؤرخو
الماهراتا عن حالة مدينة بيجابور أنها لم تعد عاصمة للمملـكة وهجرها سكانها وقد
كانت حيطانها من صخر منحوت وعلى ارتفاع شاهق ، ولا زالت الى يومنا هذا
باقية على حالها ، ولا زالت قبابها ومآذنها موجودة و بعض مبانيها العامة ، و يمكن
مشاهدتها من الخارج ، ولـكن من يدخل المدينة لا يجد إلا وحشة وسكونا
وقفرا ولا زال الخندق العميق والأبراج وانقاض السرايات الـكبيرة والقلعة
تشهد بسابق عظمة هذه المملـكة ، ومن أشهر مبانيها المسجد ومقبرة ابراهيم عادل

شاه ، وهى وان كانت خالية من الزينة فهى تملأ عين الناظر بمنظر العظمة الحزينة وكثير من علماء الآثار اعتبر مبانى بيجابور الأثرية أرقى من أى مبان أخرى فى أوروبا مع العلم بأن جو هذه المدينة من الأجواء التى لا تعمر فيها المبانى طويلا بل يسرع اليها الفساد وقد بلغ من شدة تقدير الحكومة الانجليزية لهذه الآثار الاسلامية ما دفع اللورد كرزون والى الهند سابقا الى المحافظة عليها والعناية بها .

وجاء دور جولكندا ثانيا فان عالمجير شدد على أبى الحسن كثيرا اذ كان يمقته وأثبت كافى خان المؤرخ خطابا أرسله الأمبراطور عن أبى الحسن الى بعض الأمراء فقال فيه ، « ان الأعمال السيئة لهذا الرجل الخبيث تفوق حدود الوصف ولكن اذا ذكرنا واحدا من مئة منها وسردنا القليل من كثيرها فيمكن أن نكون عنه بعض الرأى وهذا الرجل بدأ فوضع مقاليد الحكم فى يد بعض الكفرة المستبدين فظلموا وأهانوا الأشراف والمشايخ وأولياء المسلمين وانقطع ملكهم الى الفجور وانغمس فى الدعارة وغرق فى بحر المسكرات والخبائث ليلا ونهارا وصار لا يميز بين مسلم وكافر ولا بين الظلم والعدل ولا الصلاح أو الفجور ويثير الحروب فى سبيل الدفاع عن الكفار ولم يأتمر بأوامر الله ولم ينته بنواهيه خصوصا تأييد الكافرين ضد أمته واستهتاره بكتاب الله أمام الله والناس ولم تفده النصائح ولم تجد معه التحذيرات المتكررة التى أرسلت اليه وكان على عكس ذلك يرسل مئات الآلاف من النقود الى الماهراتا اعانة لهم ضدنا وظل يتخبط فى غفلته ووقاحته حتى ضمن لنفسه سوء الحال والمآل » وقد حصن مدينته تحصينا شديدا ولكن حصارها لم يمكث أكثر من شهر واحد فى خلاله وقع الأمير معظم تحت شك أبيه ولكن لما استدعاه ومع أنه ذهب اليه طائعا قبض عليه وعلى كل ما تحت يده وكان سبب هذه المعاملة القاسية سعيه لدى

الامبراطور فى الحصول لأبى الحسن على شروط سهلة مخففة أثارت الظن عند والده فحجزه لمدة ست سنوات ثم أرسل الى كابل حاكما حيث أقام بعيداً عن والده طول حكمه ومع ما شاهده عالم جير بنفسه من المجاعة الشديدة التى قاساها الجيش لم يجد ذلك سبباً كافياً يشفع لابنه الذى عومل هذه المعاملة وقد دافع أبو الحسن عن المدينة دفاعا مجيداً حتى أن كل محاولة حاولها المغول أفسدها عليهم ولم يتمكن منها جيشه وقد نسف الجند الامبراطورى بعض الحصون فهذا القسم الذى نسفه عاد ضرره على المحاصرين أكثر من المحصورين وإنما وقعت خيانة من بعض ضباط الحامية وتسللوا من المدينة واحداً بعد واحد وانضموا الى عالم جير فكان ذلك سببا لسقوط هذا الحصن وانتهى كل شىء وسلم أبو الحسن دون أن يطأطىء رأسه خضوعا وحافظ على عظمته وأرسل هذا الملك المخلوع الى دولت أباد أسيرا وتغيرت العاصمة وصار اسمها حيدر أباد بالقرب من العاصمة السابقة وجلس على عرشها عائلة جديدة ومن هذا العهد خضعت مملكتا الجنوب الى المغول ولكن كان بهما نحو مئة إمارة صغيرة من الامارات المستقلة وأخذت هذه وقتا طويلا حتى تم خضوعها ولم يكن انقياد الجنوب تاما كالبنجاب أو ولاية أودا فى الشمال حتى ولا كالبنغال أو بيرار وبقيت بلاد الماهراتا كشوكة فى جانب الامبراطورية ولكن عالم جير كان مخدوعا فى حقيقة أمرها إذ اعتبر أن أهلها كفيران الجبال وأجل الاهتمام بأمرهم الى حين الانتهاء من مملكة بيجابور ولكن كان تقديره بعيداً كل البعد عن الصواب وقدر لفيران الجبال هؤلاء فيما بعد أن خاضوا عدة حروب دامية زعزعت امبراطورية هندستان الكبيرة وصيرتها فى حالة فوضى وخراب ولم ينقذ الهند من أن تصير ماهراتية فيما بعد الا عنصر أجنبى عن الهند وهم الأفغان والشاه أحمد عبدلى ملكهم والانجليز فيما بعد الذين قضوا على أحلام الماهراتا وكان الماهراتا متغلغلين

فى كل شؤون عالم جير بواسطة دعاتهم الذين يعملون فى الخفاء وكثيرا ما لجأوا
الى وسائل الرشوة فأفسدوا بها خلق الضباط فى الجيش والحكام فى الولايات
وقد نظموا لهم عصابات فى أغلب أجزاء الامبراطورية وأطلقوها للسلب والنهب
ونشروا بها الفوضى فى طول البلاد وعرضها وأزكي البراهمة روح الخلاف بين
العائلات الاسلامية لأنهم كانوا ينوبون عنهم فى مباشرة أعمالهم فزادوا فى
ارتباكات المجتمع الهندوسى وتسلط لصوص الماهراتا على ضياع كبار الملاك
وصغارهم من المسلمين فى الجنوب حتى صاروا يشكون من الجوع ونقص الأرزاق
وغرسوا فسادهم فى كل مكان وحالة كهذه لا يمكن أن تؤدى الا الى ضياع
الامبراطورية وقد كان إذ تزعزعت أركانها وكانت تسير بخطى سريعة الى طريق
الزوال — وكان يظن أولا أن حركة الماهراتا وحكومتهم لن تعيش طويلا بالنظر
الى فساد أخلاق زعيمها وانحطاط ابنه سمبهاجى بعده وانحطاط أخلاق وكيله
كالوشاه البرهمى ، ولم يكن باقى رؤساء الماهراتا الا من نوع زعيمهم وابنه فى
الخلق الدنىء ولكن اقرأ ما كتبه كافى خان عنهم إذ روى أنه بينما كان يقيم
عند صديق له اسمه عبد الرازق على مقربة من حصن بناه سيفاجى كان يسمع
من الناس حوله تقول أن سيفاجى وان كان كافرا وثائرا فانه كان رجلا عاقلا ،
وقد كانت البلاد حولنا أشبه بالجحيم لأنها جبلية وحجرية وفى فصل الصيف
تقل المياه كثيرا وتسبب متاعب جمة للسكان فحفر سيفاجى بئرا على مقربة من
محل اقامته وأحاطه بحاجز ووضع بجانبه حجرا للجلوس عليه وسار يأتى الى البئر
ويجلس على الحجر حين كان النساء يقبلن لأخذ الماء فيكلمهن بنوع الأدب الذى
يراعيه مع أمه وشقيقاته ثم يعطى أولادهن جانبا من الفاكهة والحلوى ويلاحظهم
مما جذب اليه القلوب فلما آل الحكم الى ابنه سمبهاجى صار يأتى الى البئر وبدلا
من أن يحسن الى الأطفال ويلاطفهم صار يمزح مع النساء ويغازلهن فيقبل واحدة

أو يضع يده على خصر أخرى فلم تعد امرأة مقبولة الشكل تقبل على البئر إلا وتلحقها منه اهانة فاستاء مزارعوه وهجروا موطنهم وقصدوا مزارع الأفرنج المجاورة له ، وان أميرا بهذا الخلق غير كفيل بالاحتفاظ بمركز والده ، ومما زاد الحال سوءاً أنه اتصف بخصال أخرى ذميمة ولم ينقذه من وهدة السقوط طويلا الا انتشار وباء الطاعون الذى حماه من مهاجمة عالم جير لأنه اضطر أن يخلى المدن القريبة من سمبهاجى وذهب بعيدا فى الخلاء حتى خفت وطأة الوباء وقد أسر سمبهاجى بحيلة ماهرة إذ كان من عادة هذا الراجا أن يخرج ومعه وزيره البرهمى فى وقت معين الى مكان يسكر فيه و ينصرف الى اللهو فتربص لهما ضابط اسمه مقرب خان ومعه ابنه اخلاص خان وفريق صغير من الجنود البيادة والخيالة وصاروا متسترين لا يشعر بهم أحد حتى باغتوا سمبهاجى ووزيره فقبضوا عليهما وعلى ابن سمبهاجى ساهو وسنه سبع سنين واشتبكوا هناك فى قتال مع حرس صغير فغلبوهم وأتوا بهم أسرى وأحضروا أمام عالم جير فى حفلة كافأ فيها ضابطه ورفقائه على عملهم العظيم الجرىء وعلى أثر حادث أسر سمبهاجى ومن معه . اجتمع رؤساء الماهراتا لينظموا أعمالهم المشتركة فى المستقبل ومن بينهم « نيراجى » الشهير وكان ذا رأى سـديد ومعه الرجل العملى « سنفاجى » فانتخبوا رئيسا على الماهراتا راجا رام الابن الأصغر لسيفاجى واتفق مستشاروه على أن لا يبقى فى مـكان واحد بل ينتقل من جهـة الى أخرى حتى اذا خيف عليـه أرسلوه الى مدراس البعيدة عن المغول ورممت جميـع القلاع وملئت بالمؤون والذخائر واقتفيت تعاليم سيفاجى الحربية وقطعت الأعشاب وصار تخزينها فى القلعة للخيل وأزيلت كل الأحطاب والحشائش من حول القلاع وجاء جيش المغول وصار يحتل قلعة بعد قلعة ومن بينها قلعة سيفاجى الخاصة « ريجار » وقد وقع الاتفاق بين الماهراتا على اسناد القيادة الى « رام شندر تنت » وأن ينحى

الراجا رام الى جنجى . ولم يكن وصوله الى هذا المكان سهلا اذ كان يعترضه فى طريقه جنود كثيرة ولكنه لبث ثياب كاهن برهمى ووصل ومن معه دون أن يكتشف أمرهم أحد وبمجرد وصوله جلس على العرش وصار يصدر الصكوك والهبات والمنح ويوزع الأراضى لا التى فى داخل ملكه فقط بل وفى خارجه أيضا على أعوانه والعطايا التى كانت من هذا النوع لم تكن ذات قيمة فى أول أمرها ولكن فى النهاية صار لها شأن آخر عند ما أخذوا صكوكا بها أو عند ذريتهم من بعدهم وبدأ عالم جير يستعد فى جهاده للهندوس من كل ناحية حتى أنه غير الأسماء الهندوسية وأصدر عدة أوامر ضد هذه الطائفة منها : أنه لا يصرح لأحد منهم أن يركب خيولا عربية أو عربة إلا باذن خاص وان أسماء المدن التى تنتهى عند الهندوس بحرف الهاء يجب أن يزال منها هذا الحرف فمثلا مدينة ملواه تصير ملوا و بنغاله تصير بنغالا ، وكانت هذه التصرفات فى أواخر أيام عالم جير ومع ذلك كان يباشر كل شىء بنفسه ونظراً لشيخوخته كان ذلك فوق الطاقة من أجل هذا لم يستطع تنفيذ خطته ولم يتقدم فيها كثيرا فانه أرسل جيشا مكث أمام مدينة جنجي سبع سنين دون طائل ، وأما باقى جيوشه فقد وزعها فى جهات متفرقة ببلاد الماهراتا ، فصارت تحتل حصنا وراء حصن ثم تعود فتفقد البعض ثم تسترده بعد عناء شديد وتكبد خسائر جسيمة مما جعل المهراتا يخرجون لمحاربة جيش المغول وجها لوجه وقد جعل عالم جير مركز جيشه العام فى مدينة « براهماپورى » على نهر البيما فى سنة ١٦٩٨ وبنيت هناك محلة كبيرة وصارت هذه القرية لعدة سنين مركزا لامبراطورية المغول وصارت تخرج منها التجريدات الى جهات مختلفة ولكن بدون نتيجة تستحق الذكر غير مجرد مرور الجيش على الأرض التى يختارها للمسير وصارت كل بلاد الديكان لا تأمن الماهراتا اذ كانوا يجتاحونها جزءاً جزءاً ومن حين الى حين وصاروا

يفرضون على الأماكن التى يمرون بها ضريبة (العلوفة) وهى أكل خيل جيشهم يضاف اليه مقدارا من النقود وكان كل شىء خارج حكم الماهراتا يتناوله الدمار والهدم وقد كتب كافى خان المؤرخ وصفا لأعمال سيفاجى فقال ، « ان سيفاجى » اشتهر بتخريب العامر من المزارع ومهاجمة كبار قواد المسلمين ولم يتقابل مع واحد منهم الا وظفر به قتيلا أو جريحا أو أسيرا واذا صادف وسلم أحدهم فانما يكون بحياته فقط مع تضحية جيشه وأمتعته حتى أنه صار اذا هاجم مكانا لم يوجد له الضابط الذى كان يجرؤ فيخرج للدفاع عن حوزته وكانت الخسائر التى ينزلها بخصومه تزلزلهم من الجزع حتى أن اسمعيل خان وكان يعتبر من أشجع ضباط المغول فى الديكان لم يقو عليه بل وقع جريحا وأسيرا فى أول مصادمة حصلت له مع سيفاجى ولم يتمكن من فكاك نفسه من الأسر إلا بعد أن دفع مبلغا جسيما من المال وكذلك كان الحال مع رستم خان وقد كان يعتبر رستم الزمان حيث فاق السباع فى شجاعته ومع ذلك هزمه سيفاجى فى اقليم ستارا وفقد كل ما معه ولم يتخلص الا بدفع مبلغ كبير أيضا وكذلك على مروان المشهور بحسينى بج الحيدر أبادى فانه هزم ، ووقع أسيرا ولم يفك من أسره إلا بغرامة كبيرة وتوالت الأخبار تباعا على عالم جير بهزيمة قواده وأسرهم فأزعجته كثيرا وكان يخاطب الناس بقوله ان المخلوق لا يعمل شيئا وكل شىء بيد الله وفى الوقت ذاته بدأ هذا الملك الشيخ حروبه مع الانجليز والبرتغال وكان يكره الآخرين كثيرا لعدة أسباب أهمها اكراه المسلمين من رعاياه على اعتناق الدين المسيحى ولامتلاكهم جزءاً كبيرا من مملكة بيجابور السابقة وكانت قواهم البحرية تتفوق على قوته ولكن الانجليز على عكسهم لم يتداخلوا فى المسائل الدينية ولم تكن سياستهم وقتها التوسع فى داخلية البلاد بل الاكتفاء ببعض الثغور البحرية الا أنهم كانوا ملجأ للقرصان الذين يعتدون على مراكز الهنود

وكان الانجليز أنفسهم يحترف بعضهم القرصنه ومما كتبه كافى خان ملاحظته أن ايراد جمرك بمباى من التجارة وأهمها جوز الهند والتوابل لم يتجاوز ثلثمئة ألف روبية بينما كل أرباحهم من تجارة وزراعة تقل عن مليونى روبية ولم يكن هذا المقدار بمفرده ليكفى جاليتهم اذ كانت كبيرة العدد ولذا يتساءل كافى « من أين لهؤلاء الكفار المبالغ الكبيرة التى يحصلون عليها ؟ » ثم يقول انهم جهزوا مراكب للقرصنة ويسطون بها على السفن التى تقصد رأس الرجاء الصالح وينتظرون الحجاج المسلمين أثناء عودتهم من بيت الله فيسلبون كل ما تقع عليه أيديهم من ذهب وفضة وأشياء ثمينة .

ولم ينكر المؤرخون الانجليز عبارة كافى خان بل اعترفوا أن بعض المجازفين من بحارتهم كانوا يمارسون القرصنة فى بحار الشرق حيث لم تكن للقوانين الدولية رعاية وقتئذ ، حيث أسروا السفينة « جانج سواى » التابعة للامبراطور وهى أكبر مراكبه ، وكانت مبحرة من سورات قاصدة ميناء موكا باليمن . عندئذ طفح الكيل لدى الامبراطور فأمر بالقبض على أصحاب فاوريقاتهم والاستحواذ على نفس الفاوريقات ، فتراخى والى سورات ولم ينفذ هذا الامر كما يجب لما سيكون له من سوء الأثر على ايراد الجمارك التى كان يتقاضى منها ايرادا وافراً وكم خدم كثير من الموظفين الهنود مصالحهم الخاصة فنفذوا ما فيه المصلحة للأجانب الأوروبيين على حساب المصالح العامة مما كان له أسوأ الأثر على استقلال الهند السياسى ، بل مما أدى فيما بعد الى خروج الحكم من أيدى الهنود والمغول الذين صاروا هنودا بمضى المدة ولتزوجهم من الهنديات ، حتى انتقل الحكم الى الانجليز ، ولقد كان الأجانب فى أول الأمر تجارا عاديين ، لا بأس لهم ولا قوة ، ولا شأن لهم بالسياسة والحروب فأطمعهم الهنود أنفسهم ووجهوا أنظارهم للناحية السياسية لما استخدموا فريقا منهم فى الجيش وفريقا آخر فى استحضار

الأسلحة ولقد كانت الجاليات الأوروبية قليلة العدد فأخذت تتزايد شيئا فشيئا حتى أن بمباى ضاقت بهم و بنى الانجليز بها قلعة لا ترام وأتقنوا تحصينها ولذلك حينما أمر المغول عماله بالاعتداء عليهم لم يجد اصغاء تاما لأن الانجليز وقفوا فى وجههم فحسب الأمبراطور لقوتهم حسابا وتغاضى عما صمم عليه أولا وفيما بعد قبل الصلح مع البرتغال نظرا لتعهدهم له بتقديم مدافع قوية لمحاربة الماهراتا بها وكان حصار جنجى قائما على غير هدى وقد أناط بامره « ذا الفقار خان » وابنه الأمير « كوم بكس » وقد انقض عليهما فجأة سمبهاجى من الخارج رغبة فى تخليص مدينة جنجى أو تخفيف الضغط عنها ثم انه اغتصب مؤونة الجيش وحال دون تموينه وفى الوقت نفسه أشاع اشاعة خبيثة كاذبة وقال أن الامبراطور قد مات فكان أثرها سيئا للغاية اذ فكر « كوم بكس » فى الاستيلاء على عرش أبيه فلما آنس منه ذلك « ذو الفقار خان » و « والده أسعد » اضطر الى عقد هدنة مع الماهراتا وقد استاء عالم جير من هذا الخبر وأطلق سراح الأمير إلا أنه لم يرجعه الى قيادة الجيش وأمر القائد باعادة تطويق مدينة جنجي ثانية فلبى الأمر مع كثير من التلكؤ والتراخى كسابق عادته الا أنها لم تقاوم طويلا وسقطت فى سنة ١٦٩٨ وأشيع عن هذا القائد أنه قبل الرشوة من أعداء الامبراطور واستولوا على ذلك مع أن المدينة كان بها مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجواهر، وكان يقيم بها أيضا كثير من الراجات ومع ذلك بعد احتلالها اختفى كل ذلك ولم يظهر أثر لا للثروة المكدسة ولا لأغلب الأمراء الهندوس ولكن مما يمدح عليه القائد ذو الفقار أنه أعطى تصريحا لزوجات رام سنج وأولاده وأسرته بالخروج دون تعرض لهم ، فبارحوا المدينة وسافروا بحرا الى بلاد الماهراتا ولكن مع انتصار جيش الامبراطور فى هذه الناحية فانه قاسى هزيمة كبرى فى ناحية أخرى اذ هاجم الماهراتا بعض ولايات بيجابور فخرج اليهم

أحد القواد هناك (وهو قاسم خان) بجيشه ليضع حدا لاعتداءاتهم على أملاك الامبراطورية ، فلما أدركه الخصوم وكاد أن يطوق من كل ناحية لجأ الى حصن هناك فدخل فيه بنصف جيشه وبقى النصف الآخر خارج الحصن ووقع الجند فى مجاعة شديدة ولكن همت خان أسرع لنجدته وكان يقود الماهراتا فى هذه الموقعة سمبهاجى ولكن همت خان هزمه هزيمة شديدة فاضطر الى الفرار وفى أثناء مطاردته للماهراتا أصابت قنبلة همت خان فقتل فى الحال ولما رأى جنده ما وقع لقائدهم تفرقوا الى كل النواحى وسلم باقي جيش قاسم خان الذى انتحر من أجل هزيمته أما باقى أعوانه من الضباط فقد أطاق سراحهم بغرامة دفعت عنهم وصارت كل أمتعة الجيش المغولى غنيمة فى أيدى الماهراتا وكانت قيمتها تقدر بستة ملايين من الروبيات ولم يعش سنتاجى طويلا بعد سقوط جنجى ، ومما يؤثر عنه شدة وفقه فى النظام وافراط فى العقوبة حتى أنه على أصغر هفوة كان يأمر بطرح المخطىء على الأرض لتدهسه الفيلة . ولم تكن الماهراتا تحبه بل تخافه ، وكان أشدهم كرها له رام سنج لأن شخصيته اختفت أمام شخصية سنتاجى البارزة ولم يستطع المغول ايقاع سنتاجى الا بواسطة ناجوجى الماهراتى لأن سنتاجى سبق أن قتل أخاه دهسا بأرجل الفيلة ، وقد تتبعه ليأخذ ثأر أخيه وذبحه بينما كان يستحم فى نهر صغير بمفرده وهو أعزل عن السلاح وحمل رأسه ناجوجى الى عالم جير فعفا عنه اذ كان من الثوار وأعاده الى وظيفته السابقة وأخلى المغول معسكر براهما بورى حيث دعى الجميع الى الجهاد (الحرب الدينى) فتوجهوا الى ستارا ، وكان وصولهم اليها فجأة ولكنها قاومت الى سنة ١٧٠٠ ثم سقطت وأثناء حصارها ألغمها المجاهدون مرة فتطايرت صخرة من سورها وبدل أن تسقط داخل الحصن كما كان يظن سقط فوق رؤوس المحاصرين للقلعة فزاد ذلك فى غيظ عالم جير وهجم بنفسه كما لو كان يبحث عن الموت فيشتريه وأمر أن تجمع

جثث القتلى وتوضع فوق بعضها حتى صارت تلا احتمى فيه المجاهدون فى وقت الاقتحام وسلمت ستارا بشروط ؛ ومات دام سنج قبل تسليمها وتولت كبرى زوجاته ترابای ولاية العرش وصية عن ابنها القاصر وقد أظهرت هذه السيدة مهارة فى الحكم فاقت مهارة سمبهاجى ورام سنج زوجها وزادت حالة جيش المغول سوءاً على سوء وقد حاصروا بعد ستارا حصن « بارلى » وأسقطوه وفاضت الأنهار ، وكانت دواب جيش المغول عظاما على جلود وفقدت وسائل النقل ولما عبر الجند النهر فى حالة فيضانه تناقص حجم الجيش كثيرا بعد العبور لغرق عدد كبير من العسكر ومع توالى الصدمات وتتابع النكبات لم يفقد عالمجير أمله وكان كل جنده وضباطه ينحصر أملهم فى موته ولكنه عاش بعد ذلك ست سنين لجأ فى خلالها الى طريقة جديده ، اذ صار يساوم قواد حصون الخصوم على مشترى ما بأيديهم من القلاع بالمال فكان من دهائهم أنهم يبيعونها ويبنون قلاعا جديدة بدلا عنها وأحدث منها وزادت ثروة الماهراتا بينما كانت تتناقص الأموال عند المغول ، وقد سعى خصومه لديه أن يطلق سراح ساهو بن سمبهاجى الذى سبق وقوعه فى الأسر ، وبعد أن مال عالمجير الى إجابة ملتمسهم عاد فرفض ذلك فى النهاية ، ولم يكن هذا الامبراطور مادام فيه عرق ينبض ليترك طريقه القديم وهو الاستمرار فى الحرب ومباشرة كل عمل بنفسه ، وكل ماوقع فى السنين الأخيرة كان حصارا يتلوه حصار وربحا فى يوم وخسارة فى آخر ، وانهزاما وانتصاراً ، فيوما يكسبه المهراتا ويوما يخسره المغول ، وقد امتلأت الظروف بالمخاوف فحينا يقع سطو وحينا يهرب سكان مدينة ، وفى آونة يشب حريق ، وكانت كل أدوار الحياة آلام ومجاعات وفجائع متنوعة واختتم هذا العهد الغريب فى سنة ١٧٠٧ بمدينة أحمدناجور حيث مات عالم جير عن تسعين عاما وسواء سعدت الهند فى عهده أو شقيت ، علت أو انخفضت ، قويت أو ضعفت فلا يمكن لأى منصف

أن يعادل به ملكا آخر فى سمو أخلاقه ، وطهارة نفسه فانه لم يعش لشهوة ولم يطلب الملك لثروة أو جاه ولا لتمتيع نفسه بنعيم هذه الحياة ، بل عاش لعقيدة وعمل من أجلها ومات فى سبيلها ، وهذه العقيدة التى سعى لها ، وإن قاست الهند من أجلها أهوالا وخاضت بسببها حربا ، وفقدت رجالا . و بذلت أموالا فان الدافع لهذا كله كان شريفا عظيما ، وهو سعيه فى نشر الدين الذى يصدق فيه ويؤمن به لهذا كله كان شريفا عظيما . وقد كان فى وسعه أن يعيش هادئا لايقطع الفيافى والقفار ولا يقتحم الحروب والأخطار ويجمع حوله الغانيات ويسمع الأغانى المطربات ولا يحمل نفسه هموم الأفكار والحياة ، ولا يواجه الحصون المانعة أو السيوف القاطعة ، ولكنه رحب بالشدائد وكان يجرى وراء الموت ليحيي دين الله الذى آمن به وبرسوله وبكتابه وسواء أخطأ أو أصاب فى نظر المؤرخين الذين ربما عدوا ضحاياه جسيمة إلا أنه ماتعرض انسان لأمر عظيم أو جرى وراء غاية كبرى دون أن تبذل الضحايا أو تخاض الأهوال والمنايا وحسبه حتى ولو أخطأ صدق نيته وزهده فى دنيا يسيطر فيها على وسائل الأغنياء ويعيش راغبا عيشة الفقراء ، وحسبه أنه لم يخلق ملك فى الهند مثله يستطيع قهر نفسه ليدفع عنها شيطان الشهوة ويتقى الله فى حقوق الضعفاء والفقراء ، فلا يبعثر فى الأموال العامة على مايسمونه فخفخة الملك وأبهة العرش فكل هذه خيالات غير صائبة ووسائل يوسوس بها بعض المنافقين والمتملقين والخير كل الخير والحق كل الحق أن يقتدى بمثل عالم جير وأنى لهذا العالم أن يخلق فيه مثله :

هيهات أن يأتى الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لضنين

رحمه الله فقد أتعب من بعده إذا شاء اقتفاء أثره فلا روح مثل روحه ولا ارادة فى الخير مثل ارادته ولا طباع مثل طباعه ، وهذا الملك الذى ملك كنوزا من أكبر كنوز الأرض عاش يأكل خبز الشعير ، ألم ينم على الأرض ؟ ألم يخلع

ثوب الملوك الثمين ؟ ألم يلبس بردة الفقراء ؟ ألم يجلس بين الجائعين يطعمهم ؟ — ربما سخر قوم وقالوا ليست هذه طباع الملوك ولا عاداتهم فأقول حقيقة هذه ليست أخلاق الملوك بل أخلاق الملائكة .

فهل الملك الذى يسع قصره مدينة ؟

وهل هو الذى تكثر ملايينه وتتسع أملاكه حتى يفوق المرابين ثروة ؟

وهل هو الذى يدخر الجواهر ويكنز الذهب والفضة ؟

وهل هو الذى يصرف ذات اليمين وذات الشمال ولا يعمل للمال حسابا ؟

وهل هو الذى ان جاعت أمتة شبع وان عطشت ارتوى ؟

وهل هو الذى تحيط به الحدائق الغناء وحوله الآلاف من الخدم ؟ بعضهم يخلع ثيابه ، وبعضهم يلبسه ، و بعضهم يؤنسه ، و بعضهم يشى له ، و بعضهم يخدعه و بعضهم يغويه ، و بعضهم يلهيه .

اهذه صفات بعض الملوك على وجه الأرض وفى أغلب الممالك ؟ حتى اذا صلح منهم واحد فهو النادر . ولئن كان الأمر كذلك فعالم جير هو الأندر بل انه لم يكن من ملوك الأرض ، ولعله كان كالوحى وهبط من السماء وها قد انقطع الوحى ولم تبق إلا الذكريات ، فما أحسن ذكراه !

كتب عالم جير لابنه الأميرأعظم كتابا طويلا حينما شعر بدنو أجله ،ومماقال: أرجو لك الصحة ، وقلبى معك ، فقد بلغت من العمر أطوله ، ووصلت الى قمة الشيخوخة ، وأخضعنى الضعف وهجرت القوة كل أعضائى ، ولقد دخلت هذا العالم غريبا وغريبا منه أخرج . وهاهى نفسى أرانى أجهلها ، ولا أدرى من أنا ، ولا ما الذى خلقت من أجله وها قد ذهبت أيام السطوة والقوة وخلفت وراءها حزنا وكأنى لم أكن ولى أمر هذه الامبراطورية ولا حاميها ، وقد ذهب

وقتى سدى ولقد كان فى ضميرى مرشدا ولكن جلال نوره احتجب عن بصيرتى المظلمة ، ولقد ماتت معى آمال الصبا وخمدت فى حرارة القوة ، ولم يبق منى غير عظم وجلد .

رأي المؤرخين المسلمين

فى عالم جير

أجمعت لغة المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن سيرة هذا الامبراطور العظيم أنه لم يوجد ملك من سلالة تيمور ولا من أى عائلة أخرى اسلامية جلست على عرش دلهى من عادل عالم جير فى تقواه وعدله وشدته فى الحق أو شجاعته وقوة احتماله للمشاق فى سبيل أداء واجباته العامة أو فى سداد الرأى ، ولم يسىء الى حكمه الا الخلافات والمنازعات التى قامت بين أفراد عائلته وأشراف الأمة لمنافسات بينهم ، فكان كل عمل نافع يقوم به عالم جير لا يثمر ثمرته المطلوبة بسبب هذه الطبقات ، وكان حافظاً لقواه العقلية ولحواسه الخمس، إلا حاسة السمع فقد تأثرت تأثرا بسيطا وكان يصرف ليله فى التهجد والعبادة .

ملخص رأى المؤرخين الاوروبيين :

لقد كان رأى المؤرخ الأوروبى رأى الشامت الكاره وقد أجمع المؤرخون الأوروبيون على أن الملك أكبر هو الذى وضع دعائم قوية يقوم عليها عرش المغول فى الهند واعتبروه خير حكام البلاد من ملوك المسلمين ، ومنشأ هذا التقدير جاء من أنه كان يحسن معاملة الأوروبيين ولأنه اعترته نزعة فى رأيه كانت تدفعه الى السعى لتوحيد أديان الهنود باقتباس دين من خلاصة تعاليمها. فأما من الناحية

السياسية فقط تكون الفكرة حسنة وصالحة لو انه ضمن نجاحها ، ولو انه حينما بدأ في تنفيذ هذه الفكرة كان العنصر الاسلامي أغلبية لعدت هذه الفكرة راجحة ورشيدة لأنه يكون بذلك أبدى منتهى التسامح والاحترام للأقليات الدينية ولا بأس من أن يتسامح الأقوى للأضعف ، أو صاحب الكثرة لدى القلة - أما والأمر بالعكس فتكون فكرته من أخطر الأفكار لأنها اذا لم تنجح في زرع التسامح الحقيقي بين الأجناس والعقائد المختلفة وفي اجتثاث الضغائن التي في صدورهم فانها كانت ستكون وبالا على المسلمين فيما بعد إذ تمكن لأغلبية من السكان في أقلية منهم لأن خطة أكبر كانت ترمي الى الاكثار من اسناد الوظائف للهندوس ولا شك أن إسناد الوظائف ما كان لينسيهم أن هذه الأقلية المغولية أجنبية عنهم ولن ينسوا أنها خلعت أمراء منهم عن عروشهم وهدمت معابدهم وحطمت أصنامهم وقتلت كثيراً من أبنائهم ، ومثل هذه الأعمال لا تطفأ نارها أو يذهب أثرها بوظائف أو رتب ينالها عدد صغير من الهندوس ، وعليه فان عالم جير لم يهدم الأعمال الصالحة التي يقول الافرنج إن أكبر أوجدها ، بل الاصح انه كان يداوي الآثار السيئة التي خلقها الملك أكبر ، خصوصا اذا علمنا واعتبرنا عالم جير حاكما مسلماً مسئولا عن مصالح المسلمين الذين أجلسوه على عرش دلهي وأجلسوا آباءه وأجداده عليه من قبل رغما عن ارادة الهندوس أما اذا اعتبرناه تجرد عن كل عاطفة دينية وتقاليد اسلامية (وهذا بالطبع لم يحصل) وصار هندياً أكثر من الهنود فانه لن يعدم من الهندوس من ينازعه الحق وينافسه في العرش ويجد نفسه أجدر به وأكثر هندية منه وأقرب الى قلوب الهندوس لنشأته على دينهم وعوائدهم من أجل ذلك لم تكن سياسة أكبر الا خرقاء. ولم يكن رأيه إلا طائشا وعلى العكس منه كان عالمجير فانه رأى أن حزازات النفوس لم تمت وان التسامح يكون سابقا لأوانه ويعرض المسلمين للطرد

كما وقع لهم فى اسبانيا ، واذا كانت سياسته لم تؤد الى الغرض المنشود فلم يكن الذنب ذنبه إذ لو هادنه نفس المسلمين ولم يخرج عليه بعض أمرائهم لكان الأمر عكس ذلك. ومن أكبر الشواهد على حسن رأيه أن ولاية أسام فى عهد شاه جهان والده أى من عهد غير بعيد كانت تهاجم ولايات البنغال وتعتدى على السكان وكانت البنغال هذه ولاية تحكمها المسلمون فلما جاء عهد عالم جير انقلبت المسئلة فبعد أن كانت أسام تهاجمها صار عالم جير يهاجم أسام بواسطة قائده مير جملا ، ثم انه غزاها ، وبسبب دخول المسلمين فيها انتشر الدين الاسلامى ، وهذه فائدة عظيمة اسداها عالم جير لاللهنود فقط بل لكل العالم الاسلامى فان المسلم أكثر ارتباطا بالمسلم وهم أشد عطفا على بعضهم وتعاونهم يعود عليهم بالمصاحة من كافة وجوهها سياسية كانت أو غير سياسية ، والذى يرجع الى الاحصاء المدرج بدائرة المعارف البربطانية يجد أن سكان ولاية أسام طبقا لاحصاء سنة ١٦٠١ بلغ عددهم ٦١٢٦٣٤٣

الهندوس منهم	٣ر٤٢١ر٠٩٩
الأوروبيون والمهاجرون منهم	٧٧٥ر٨٤٤
والمسلمون منهم	١ر٥٨١ر٣١٧

فالذى يدرك أن عدد المسلمين فى بلاد لم يكن بها مسلم واحد يصبح فيها نسبة المسلم الى الهندوسى كنسبة واحد الى اثنين أى أن المسلمين اصبحوا بنسبة لا يستهان بها بين السكان ولا شك ان مثل هؤلاء سواء بقوا مع الهند أو بتروا منها كما هو حاصل الآن فلا يخلو وجود مثل هؤلاء المسلمين من فوائد كبرى للمسلمين الآخرين لا تحتاج الى شرح أو توضيح . من أجل ذلك كان

عالم جير مذموما لدى الأفرنج ، وهم أكثر تعصبا منه ، والروح التى عمل بها
عالم جير فى القرون الوسطى لازال أشد منها يتأجج فى صدور الفرنسيين والانجليز
ونظرة سطحية تلقى على مساعيهم فى بث معتقداتهم بين المغاربة فى تونس
ومراكش والجزائر وجمعيات التبشير فى السودان وما يبذل لها من المساعدات
الحكومية يشهد بما عند هؤلاء القوم من التعصب الذى لم تخمد جذوته .

بهادر شاه

١٧٠٧ — ١٧١١

مات عالم جير فى سنة ١٧٠٧ وترك ثلاثة أبناء وهم شاه عالم ، وأعظم شاه والأمير كوم بكس وقد تربع الأول منهم على عرش أبيه وتسمى بهادر شاه وكان بهادر أيام امارته قد وقع تحت سخط أبيه قبل وفاته بعشرين سنة فحجزه مدة ثم عاد فعفا عنه وولاه الحكم فى كابل فبقى بها حتى مات والده ، فانضم له منعم خان مؤيدا ، وكان من أكبر رجال الدولة فى لاهور ، فلما صار تحت سلطته جيوش الولايتين وهما لاهور والأفغان زحف بهما الى عاصمة الامبراطورية وكان له ولدان أحدهما عينه جده حاكما على ملتان والثانى على البنغال ، فعززا مركز والدهما ، وكان أخوى بهادر ينازعان على العرش وكان الأمير أعظم وهو الابن الثانى لعالم جير حاكما على مقاطعة ملوا فلما علم أن والده لفظ نفسه الأخير ، جعلهم يتلون الخطبة باسمه واعتلى العرش وكان الأخ الأصغر كوم بكس حاكما على مملكة بيجابور ، وقد أوصى والده له بها قبل وفاته ، كما أوصى بباقى الديكان الى الأمير أعظم ، وأن يكون شاه عالم (بهادر شاه) امبراطورا على الجميع ، وقد ذكر هذه الوصية كثير من المؤرخين الشرقيين وقالوا بصحتها . وقد قيل فى المثل انه لا توجد مملكة مهما اتسعت مساحتها تكفى ملكين ، ويظهر أن الأمراء صمم كل واحد منهم فى نفسه ، أو حرضه البعض ممن حوله على أن يستأثر بالملك ولكن فى الواقع كان الأخ الأكبر بهادر شاه أسهلهم طبعا وأكثرهم ميلا للوئام ، علاوة على صدق نيته فى احترام وصية أبيه فقبل أن يبقى لأخويه حكم الديكان وأن يستلم كل واحد منهما ما خصصه له والده ، ولكن هذه الرغبة الصادقة لم تفد فى التوفيق بين الاخوة

وأسرع الأمير أعظم محاولا الوصول الى أجرا قبل أخيه شاه عالم ولكن الأخير حاز قصب السبق فى الوصول وحاز العرش أيضا . اذ كانت نية قائد القلعة هناك ترمى الى تسليمها لأول من يصل منهما ولم ينل بهادر شاه العرش فقط بل وضع يده على الكنوز الكثيرة التى خلفها عالم جير بأجرا ، ولم يثنى ذلك عزم الأمير أعظم من الاستمرار فى المسير الى العاصمة ولكنه وصل متأخرا وتنحى عنه أكثر أعوانه لما بدا منه من شح النفس وغطرسة الطبع التى نفرت مؤيديه ، وحينما وصل أطلق سراح ساهو حفيد سيفاجي الذى كان قد أسره عالم جير ، ليكسب بذلك عطف الماهراتا وحصل صدام بين الأخوين بجيوشهما وكانت بوادر القتال تبدو فى صالح الأمير أعظم ، الا أنها فى النهاية صارت ضده . فلما رأى ذو الفقار قائد جيش أعظم أنه سيخسر الموقعة وأن الكثير من أعوانه قد قتل وأن الأمل فى الخلاص صار ميئوسا منه توجه الى أعظم وقال له « ان بعض أسلافك قد قاسى نفس موقفك الحاضر ، ووقع فى الهزيمة وتخلت عنه الجيوش والرأى عندى أن تخضع لحكم الظروف القاهرة ، وان أسلم طريق لك الآن أن تترك الموقعة وتذهب بعيدا حتى يعود لك الحظ من جديد ، فعندئذ تحاول أن تسترد فى المستقبل ما خسرته اليوم » . فبدلا من أن يصغى أعظم الى النصح ليدفع عن نفسه الخطر ، اندفع فى الغضب وقال لقائده . « اذهب أنت بشجاعتك وانقذ نفسك بأى طريقة تحلو لك . أما أنا فمن المستحيل على أن أبرح هذا الميدان ولا يوجد لأمير مثلى غير واحدة من اثنتين، التخت أو التخته» ولكن لم يطل الأمد فقد غربت شمس حياته اذ أصابه سهم فقضى عليه . ولم يظهر شاه عالم القسوة التى اعتادها غيره من بيت تيمور فى المدة الأخيرة اذ لما قبض على أولاد أخيه لم يقتلهم كما أنه عفا عن ذى الفقار والحقه بجيشه وفى سنة ١٧٠٨ انتهت الحرب الداخلية وكان الامبراطور يريد أن يبقى بيجابور

تحت حكم أخيه كوم بكس وأن يضم اليها باقى ولايات الديكان ولـكن هذا الأمير الذى كان متغطرسا قاسيا رفض هذه المعاملة الطيبة ولم يصغ الى عبارات الترضية التى صدرت من أخيه بسخاء ورقة ، وعادت الحرب بينهما وقد أظهر فيها الأخ الأصغر جسارة جنونية ولـكنه سقط مع ابنه فى عداد الجرحى وخسر الموقعة ووقعا أسيرين ، فاعتنى بهما الملك وأرسل أطباء أوروبيين لتضميد جراحهما والعناية بهما ، ولـكن كوم بكس رفض كل معالجة كما رفض تناول الطعام وتوجه الملك لزيارته فى المساء وواساه كثيرا وكان يلبس عباءة فخلعها ووضعها على أخيه الجريح وصار يسقيه المرق بيده لتغذيته وأظهر نحوهما كل عطف وحنان وقال لهما معتذرا « انى لم أكن أود أن يقع لـكما ما حصل من مكروه » فرد كوم بكس قائلا . « كذلك لم أرد أن فردا من عائلة تيمور يسلم نفسه دون قتال فيوصم بالجبن وقد ودعهما الملك والدموع تجرى فى عينيه رحمة بهما ولـكن لم تمض أربع ساعات حتى مات الجريحان ونقلت جثتاهما الى دلهى حيث دفنا فى مقبرة همايون وصفا الجو لبهادر شاه وصار لا ينازعه أحد فى العرش ، ومع ما طبع عليه الملك الجديد من صفات الرحمة والاعتدال اللتين تحببانه الى الناس فانه لم يكن يصلح للقيام بأعباء الملك ، وقد جاوز كرمه حدود التبذير وقد قيل عنه انه لم يرفض طلب طالب واستمر على ذلك السخاء حتى أفنى الـكنوز العظيمة التى خلفها له والده فى وقت قصير حتى قيل انه لم يتبق مالا احتياطيا للطوارىء التى تستهدف لها كل مملـكة ، ومما شهد به المؤرخون لهذا الملك كرمه وفضائله وحسن طويته ومداراته للعيوب وعفوه عن الذنوب وقليـل من الملوك من كان يوازى شاه عالم من هذه الناحية الاخلاقية وخصوصاً من كانوا من سلالة تيمور

ولـكن من ناحية أخرى كان شديد التواكل والاهمال فى المسائل الخاصة

بحماية المملكة ، وكيفية ادارة أحكامها ، وكان من عادته النوم بالنهار واليقظة بالليل فكان متعبا لمن يباشرون الأعمال معه وبالاختصار فانه لم يكن يصلح لحكم هذه الامبراطورية المغولية خصوصا فى أوقات الاضطرابات التى بدأت تظهر وممن أيده فى ادارة الأحكام ذو الفقار خان ووالده أسعد ومنعم خان الذى ارتقى الى رتبة خان الخانات ، ومع أن أسعد صار وزيرا الا أنه كان متقدما فى الشيخوخة ورغما عن مركزه الأدبى لم يكن يصلح للعمل وكان الحمل الأكبر يقع على عاتق ابنه وخان الخانات الذى كان صوفيا وقد تأثر به الملك حتى قيل انه قرب من الشيعية ان لم يكن صار شيعيا بالفعل لأنه أوصى أن يقال فى خطبة الجمعة انه صار وصى الامام على وهذا أهاج السنين من المسلمين وجعلهم يرفعون السلاح فى وجهه ، ووصلت اليه تقارير تنبىء بقيام الهياج فى أجرا ولاهور واحمد أباد ، حتى أن خطيب جامع احمد أباد الذى تلا اسم الامام على قام عليه المصلون وجذبوه من أعلا المنبر واستمروا يطعنونه بالخناجر حتى فاضت روحه وفى مدينة لاهور حيث يقيم شاه عالم هب أساتذة الشريعة هناك وتوجهوا الى الملك وأظهروا له اعتراضهم على خطته فسلم اليهم الامبراطور لا بسبب اعتقاده كما يقول المؤرخ بل خوفا من الاضطرابات ، وكان مسلموا لاهور يدا واحدة حتى اضطر الملك الى سحب هذه الكلمة وفى النهاية أمر بأن تتلى خطبة الجمعة طبقا للنص القديم الذى كانت تلقى به أيام والده عالم جير ، ولكنه أظهر استياءه فيما بعد من بعض العلماء البارزين وسجنهم ، وكان خان الخانات فى حكمه يتوخى طريق الرحمة والعدل وقد شكى اليه بعض الموظفين من أنهم كانوا يكلفون بمأمورية تغذية المواشى الامبراطورية حتى صارت حاصلاتهم لا تكفى إذ كان بعض الضباط لا يكتفون باطعام الدابة بل يطلبون مالا علاوة على ذلك ، فأدى الأمر الى جلد وتعذيب من كان يخالف هذه الطلبات من

الموظفين ، فنظر رئيس الخانات فى أمر هـذه الشكوى بعين العدل ورفع الظلم الواقع عن المشتكين ، وقد مات هذا الوزير المنصف قبل سيده بمدة قصيرة ، وقليل من الوزراء فى أواخر العهد المغولى من كان يصلح للوزارة ، وكان هو فى مقدمة هذا القليل ، اذ كان ذا سـيرة طيبة وقال عنه كافى خان انه يميل الى التصوف و يصادق الفقراء ولم يتسبب فى ايذاء أحد طول حكمه ، ولـكن النوايا الحسنة التى كان يظهرها هذا الرجل كثيرا ما ساء تنفيذها ، فقد قام بذهنه مرة أن يبنى فى كل بلد جامعا ومدرسة وخانا احياء لذكره بعد موته وتقربا الى الله بعمل صالح ، فـكتب الى كل الولاة والحـكام لتنفيذ هـذه الرغبة ومشترى الأراضى اللازمة لهذا الغرض ، كما أنه أرسل مبالغ جسيمة الى الجهات المختلفة للصرف منها على هذا المشروع فلما وصل الأمر الى الولاة هبط عليهم كما لو نزل من السماء فاشتروا الأرض اللازمة وجاد بعض أهل الخير بها صدقة منهم ، أما فى الجهات التى لم يتوفر فيها الطلب أو لم يحصل الاتفاق بخصوصها على الثمن الذى يرضى الطرفين صار الموظفون فى هذه الحالة يستعملون سلطتهم و يضطرون من يقع عليه اختيارهم الى اخلاء مسكنه أو تسليم أرضـه لهذا الغرض حتى أنهم أخرجوا سكانا من مساكنهم وملاكا من أملاكهم عنوة واقتدارا وعلى ذلك تولد الشر من الخير الذى أراده خان الخانات بما ارتـكبه الحـكام من المظالم فى تنفيذ ارادته .

أما فيما يتعلق ببهادر شاه فقد خلف له والده مركزا سياسياً دقيقاً اذ تولى العرش والهندوس تغلى مراجل غضبهم من معاملة والده لهم وظهر فيهم روح التمرد والانتقاض ، فمثلا الراجبوت وكان يرأسهم الراجا آجيت سنج الذى على أثر موت عالم جير أصـدر أمراً بمنع ذبح الأبقار التى يعتبرونها حيوانا مقدسا وهذا الأمر بطبيعة الحال كان يسرى على كل سكان الولاية فلم يكن يقصد

سريانه الا على الأقلية المسلمة فان الأكثرية الهندوسية لاتجيز شريعتها ذبح الأبقار كما أنه منع المؤذنين فى الجوامع من تلاوة الأذان . وأمر فوضعت القاذورات فى مساجد المسلمين و بدأ فى بناء معابد للهندوس ، فلم يجد شاه عالم مفرا من الزحف على راجبوتانا فزحف بجيشه واخترقها عدة مرات لمنع هذه المصادرة التى وقعت على المسلمين فى عقيدتهم وحمايتهم وانتقلت جيوشه فيما بعد الي منطقة السبك حيث ظهرت بها اضطرابات

وعلى أثر خروج الجيش المغولى من راجبوتانا أصبحت هذه الولاية شبه مستقلة حتى لم تعد الامبراطورية تتدخل فى شؤونها ولم تعد تعتمد عليها فى تموين المغول بجنود للحروب التى تقوم بها الدولة ، وعقد الراجات الثلاثة — وهم راجات ميوار ومروار وعنبر — وهم الذين عرفوا حديثا براجا أودايبور وجايبور وجودبوره اتفاقا ثلاثيا بينهم بموجبه يتعاونون و يتولون الدفاع عن أملاكهم وأن لا يصاهروا أمراء المغول ، واتفقوا أيضا على أنه اذا تزوج أحد الراجات ابنة راجا آخر فيكون الابن الأكبر من ثمرة هذا الزواج ولى عهد ، ويخاف والده (لأن الراجات يتزوجون أكثر من واحدة وقد تلد زوجة ليست ابنة راجا ولدا فان كان هو الأكبر فلن يكون ولى عهد بموجب هذا الاتفاق وذلك كله رغبة فى تدعيم الرابطة بينهم وتقويتها) الا أن هذا الاتفاق أثار شقاقا فيما بعد بين الاخوة كانت نهايته الاضرار باتحادهم الراجبوتى لأن قانون الوراثة لم يكن محترما ومرعيا فى أى بلد مثل ما كان فى راجبوتانا .

ظهور عنصر إضطراب جديد

فى الامبراطورية

فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس عشر ظهر فى الهند مذهب جديد يسمى مذهب السيك ويوجد أكثر أعوانه فى ولايات الهند الشمالية وأهمها البنجاب وكشمير والسند وتنحصر تعاليمه الأساسيه فى الاعتقاد بوحدانية الله الذى ليس هو (رام) . . . (رام هى الكلمة التى تعادل لفظة الله عند الهندوس) ولا هو الله الخاص بالمسلمين بل هو الرب رب العالم بأجمعه وليس إله المسلمين بمفردهم ولا رام الهندوس بل رب كل النوع البشرى ورب كل الأديان وعلى ذلك فكانوا ضد فكرة الأصنام وتقمص الأرواح للأجسام على الطريقة الهندوسية وضد فكرة وجود طبقات بين الناس كما هو عند الهندوس ، فهى تعاليم ثائرة على عبادة الأصنام ، وتحتم المساواة بين الناس ولا تجيز حرق الأرملة إذا مات زوجها إذ كانوا يعتبرون أن التى تموت بسبب الصدمة على الزوج أكثر إخلاصا من التى ترغم على أن تحرق بعده . كذلك كانوا يحرمون الخمر والدخان والحج إلى الأنهر المقدسة فى الهند ، وتحرض تعاليمها على الفضيلة والوفاء وعرفان الجميل ، وتعترف بتناسخ الأرواح بشرط أن تبقى الروح متقمصة فى الجسم الجديد الى أن تكفر عن ذنوبها وخطاياها حتى اذا تم ذلك عادت الروح ثانية الى ربها ولم ينتشر هذا الدين ولا تعاليمه مرة واحدة ، وكان ينسب خرافات الأزمنة المتوالية التى لحقت بالأديان الى العمى الروحانى ، ثم انتقلوا خطوة فى تعاليمهم فصاروا يحاربون الفوارق الطائفية التى كانت بين الهندوس وخصوصاً عدم أكلهم أو تكلمهم سويا ، ثم اتجهت أنظارهم الى محاربة الأصنام والتقاليد

الخرافية كحرق الأرامل ثم صاروا ينشرون بين الناس أن الله واحد حى باق أبدى لم يلد وهو عظيم كريم ثم حرموا أن يكون لرجال الدين ملابس خاصة إذ كثيراً ما أدى ذلك الى خلق امتيازات لهذه الطائفة علاوة على أنها تثير حولها شيئاً من الأوهام والتضاليل وكانوا يقولون عن الذين يذهبون الى الأنهر المقدسة إنه وأن كان نزولهم بها ينظف أجسامهم فانه يزيد فى عدم صفاء عقولهم وقالوا ان أهم من عبادة الله من المعابد والمساجد عبادته فى أى مكان آخر بروح حقة وصدق نية دون إطلاق البخور واحراق خشب الصندل والضحايا (عادة هندوسية) . وكان فى كل زمن يعين لهذه الطائفة رئيس يسمى « الجورو » ففى عهد السادس منهم وهو « هارجوفند » أدخل أنظمة على هذه الطائفة بمقتضاها تصير حماية المتفرقين فى الجهات فسلحهم جميعاً حيث اعتقد أن لا بقاء لهم بدون سلاح . ومن عهده بدأت الروح العسكرية فيهم تأخذ شكلا حادا وقد كان مبدأهم من قبل أنه اذا أساء لك أى واحد فاحتمله فاذا احتملته ثلاث مرات فالله يحارب من أجلك ويهين أعداءك . ولا شك أن تخليهم عن التسامح وكان من بين تعاليمهم والتجاءهم الى الروح العسكرى سواء أكان قصدا أو اضطرارا فقد غير من طباعهم كثيرا فصاروا وحوشا كاسرة وقد تعددت منهم الثورات . وما طبعوا عليه من انقيادهم الأعمى لأستاذهم الدينى (الجورو) فكان اذا دعاهم الى قتال عن الطائفة تفانوا فى تلبيته وكان رئيسهم الدينى يعتبر نفسه نبياً ، ولكن لم يقل فى يوم من الأيام انه نبى بالوحى أو أنه يأتى بالمعجزات وكان يحترم اعتقاد الهندوسى القائل بوجوب احترام الأبقار كما انه احترم فكرة بعض المسلمين للخنزير كحيوان نجس ولكنه كان على نقيضهم (كما يقول) فلا يهتم بهذه التوافه بل كان يجعل جل اهتمامه باقتفاء المثل الأعلى فى كل شىء فلم يهن البقرة ولم يتحبب الى الخنزير انما حرم أكل اللحوم بتاتاً .

والآن وقد ذكرنا الوصف المختصر لعقيدة هذه الطائفة ورجعنا الى تاريخهم السياسى فنراهم تغيروا كثيرا عن نشأتهم فى أول الأمر اذ انتشرت فيهم الروح الحربية كانتشار النار فى الهشيم . حتى أنهم بدأوا يعصون أوامر الحكومة فى عهد الملك جهانجير الذى سجن ابن رئيسهم لعصيانه عن دفع الضرائب ، ثم أنهم فى عهد شاه جهان ثاروا عليه ثلاث مرات ، وفى مرة منها هزموا جيوشه وفى عهد عالم جير اضطر أن يتتبعهم و يقتنصهم لما تكرر منهم من كثرة الأذى والمشاغبات حتى أنه سجن زعيمهم الدينى وقد رويت عنه رواية جاء فيها أن عالم جير سجنه فى دلهى ثم اتهمه بأنه كان ينظر دون احتشام الى الناحية التى يسكن فيها حرم الملك بأن أطل عليهم من فوق سطح السجن فقال ، « يا عالم جير ، انى كنت حقيقة فوق سطح السجن وكنت أنظر الى الناحية الغربية حيث يوجد سكن نسائك ولكنى لم أكن أنظر اليهن بل كنت أنظر نحو الغرب لأنه المنفذ الذى صار يتقاطر فيه الأوروبيون الذين يأتون من ناحية البحار ليستحوذوا على أملاك رعيتك والقضاء على عرشك وسلطانك »

ولما جلس بهادر شاه ساءت العلاقة بينه و بين (بندا) رئيس السيك وقد وجد الملك فيه خصما عنيدا إذ ادعى أن رئيسه السابق تقمصت روحه فى جسم بندا لتنتقم من المسلمين لأن واحدا منهم قتله ، ولما أذاع بندا على قومه أمر تقمصه ثار كل أعوانه وزادهم ثورة طرقه السحرية التى وصفها فى شكل معجزات تغريرا لسخفاء العقول ، فلما شقوا عصا الطاعة ، تجمعت جموعهم واتجهوا نحو مدينة « سيرهند » فدافع عنها حاكمها (وزير خان) ولكنه هزم وذبح ووقعت المدينة فى قبضة السيك وكانت من الأماكن العامرة حيث يكثر بها التجار الأثرياء ويوجد بها عدة مصارف مالية وفريق كبير من الأعيان الأغنياء وكانت مركزا كبيرا للتعليم وأخصه الدينى ، ولم يتمكن أحد سكانها من انقاذ نفسه من

هذا البلاء الذى حل بهم فأريقت دماؤهم وذهبت ثرواتهم نهبا مشاعا واستمرت المذابح بها ثلاثة أيام ، فلم يرحم السيك أحدا حتى الأطفال والنساء وزادوا فى بغيهم حتى كانوا يخرجون الأجنة من بطون أمهاتهم ثم حرقوا كل المساكن وكانوا كلما وجدوا مسجدا أو مقبرة أو أى مكان محترم عند المسلمين هدموه وحرقوه ولقد بعثروا عظام الأموات وكثيرا ما وقع بين المسلمين والماهراتا أو غيرهم قتال ولكنه لم يصل فى وحشيته الى ما وصلت له هذه الطائفة من القسوة والبربرية التى لم يعرف بها التاريخ الا اذا استثنينا عهد جنكيز ، ثم انهم تسلطوا على المنطقة الواقعة بين لاهور ودلهى فصاروا ينهبون ويفتكون بأهلها وقد انضمت اليهم فصيلة من أهل هذه الجهة تسمى (الجات) وكانوا غالبا يتجنبون المدن المحصنة وينقضون على الأماكن الخالية من التحصين فيعيثون فيها فسادا ويسلبونها . وقال كافى خان « ان هذه المنطقة كانت هدفا لهذه الطائفة الكافرة فطوقوا البلاد وخربوها وذبحوا الآلاف من سكانها وفى مقدمة البلاد التى نكبت بهم مدينة لاهور وشاه دارا وكارنال وأسروا مئات من الهندوس والمسلمين معا فقضوا عليهم ذبحا . وقد انضم الى السيك كثير من طبقات الهندوس المنبوذة ووضعوا أنفسهم تحت تصرف هذه الطائفة وقد أبطأت حكومة المغول فى فهم هذه الحركة أو وضع علاج لها حتى زاد شرهم وتفاقم ضررهم لأن الحكومة لم تقم لهم وزنا ولا حسابا كما كان الحال مع الماهراتا الذين عدوهم فئرانا فصاروا فيما بعد أسود وكان اهتمام شاه عالم منصرفا وقتها الى الراجبوت ، لكنه كان لظهور طائفة السيك بمظهر القوة الزائدة فى قلب الامبراطورية ضرر بليغ ، وأخيرا وفى سنة ١٧١٠ فقط استيقظ شاه عالم من نومه فأوفد اليهم جيشا تحت قيادة أمين خان وكان من أكفأ قواده فزحف عليهم وطوقهم فى وسط منطقة من التلال ثم حاصرهم فى حصن لوجارا وطال أمد الحصار فنفذت مؤونتهم

شيئا فشيئا ولكن من تدهور حال المغول فى الحكم صار أعداؤهم يشترون المؤون من نفس التجار المتعهدين للجيش المغولى ولا شك أن وقوع مثل هذا التدليس لايجىء الا من تراخى النظام العسكرى اذ كانوا يدلون سباتا مربوطة فى حبال من أعلا الحصن فيملؤها التاجر بما يلزم ويرفعها المحصورون الى سور الحصن فعاونتهم هذه الحيلة على طول المقاومة . فلما ازداد يأسهم اخترقوا صفوف المحاصرين وفروا الى جبال الهملايا ، وقد قلد أحد رجال السيك زعيمهم بندا وبنى فى الحصن فسر لأسره المسلمون ولكن لما اتضح لهم تزييف الشخصية سخطوا كثيرا وأسروا راجا الثلج (أى راجا الهملايا لوجود ثلج بها) انتقاما منه لايوائهم عنده ووضعوه فى قفص . واقتفى أثر السيك وهزموا إلا أن بندا زعيمهم لم يزل طليقا ، وبدا على هذه الطائفة الضعف المؤقت إلا أنها فيما بعد قويت واشتد ساعدها حتى صارت من أقوى قوات الهند التى ستحارب نفس الانجليز طويلا . وكان مما ساعد هذه الطائفة على الظهور ضعف الحكام المغول فى أواخر أيامهم ولو كان فيهم مثل عالم جير أو شاه جهان لما تمكنوا من ذلك .

ولقد بدأت الامبراطورية المغولية تتحلل وتذهب هيبتها ، وتضعف قوتها بسبب سوء الادارة وإن من أغرب الأمور أن يساهم فريق من اللصوص وتكون له اليد الطولى فى اسقاط امبراطورية لها تاريخ مجيد مع أن هذا العامل الذى يهددها كان يكفى فى معالجته الضرب على أيدى الأشقياء ، والقضاء عليهم أولا بأول قبل أن ينموا شرهم ويستفحل أمرهم . وها هو باب راى كان رجلا حقيرا يبيع عرق النخيل فى الشوارع ، وزاد طمعه فاغتصب أموال أخته ثم تقدم خطوة أخرى فى الاجرام فجمع عصابة صغيرة من الأشقياء وصار يهاجم الآمنين ، ويقطع الطريق على المسافرين وكبر شيئا فشيئا حتى بنى قلعة يعتصم بها وقت الخطر ، فجدد عهد سيفاجى وسمبهاجى وبلغ من عظم شأنه فى القوة .

أن حاكم الديكان زحف عليه بجيش وحاصر قلعته ، فلم يستطع اخضاعه قبل انقضاء تسعة أشهر مضاها فى حرب طاحنة ولو أنه حزم أمره وعالج مثل هذه الصغائر قبل أن يكبر شأنها لوفر كثيرا من الضحايا التى بذلها ، والتى زادت الأمبراطورية ضعفا حتى أصبحت الحالة السائدة فيها أن الحكم للأقوى فكل من رأى نفسه أكثر جاها وأعز نفرا استعمل هذا التفوق على جيرانه وصار حاكما بأمره فضربت الفوضى أطنابها وتلاشى الضعيف وازداد القوى فجورا وتمردا مما كان مقدمة لسقوط هذه الدولة ذات التاريخ الغنى بمجد ملوكها الأولين وأثرهم العظيم فى نشر الاسلام وثقافته واحداث المبانى العظيمة التى لا زالت تشهد بما وصلت اليه الهند من مدنية ورفاهية ورقى فى الفنون والصنائع ولقد مات شاه عالم فى سنة ١٧١١ بمدينة لاهور وكان آخر حاكم مغولى يستطاع أن يسند اليه شيء من المديح فى أيام حكمه .

جهان دار شاه

— ١٧١١ —

تولى هذا الأمير العرش بعد أبيه وكان له ثلاثة من الاخوة نازعوه أمر التاج والذى يرجع الفضل اليه فى حصوله عليه هو موت أحد أخوته غريقا فى نهر راوى وأن آخر منهم أصيب خطأ بطلق نارى ، وكان يؤيده فى الجلوس على العرش أكبر قائد فى الدولة وهو ذو الفقار خان الذى أجهد نفسه كثيرا حتى رآه على عرش أبيه ، وقد قيل عن هذا الملك انه لما علم بوفاة أخويه صدفة وقتل الثالث وانه صار امبراطورا تلقى كل هـذا وهو فى حالة سكر ولم يدم حكمه إلا عام واحد و بضعة أشهر مضاها فى الدعارة هو وحاشيته ، وكان مغرما باحدى جوارى القصر واسمها لال كوار ، وقد كانت ذات دل وسلطان عليه ، وكان كثيرا ما يرافقها و يخرجان معا فى شوارع دلهى . وقد رجع بها مرة وهو لا يعى من السكر فترك فى العربة حيث لم يجرأ أحد على ايقاظه حتى الصباح ، وهذا التبذل منه أغضب كثيرا من كبراء الدولة ، وكم عبثت جاريته لال كوار بالشؤون العامة حتى أحضرت رجلا يبيع الخضر فى الشوارع ، و بعض خدمها وأسندت اليهم بعض الوظائف الكبيرة ، مما أخل بالنظام وزاد الحالة ارتباكا ، واتفق مرة أنها خرجت راكبة فى الشوارع فقابلها موكب « نظام الملك » حاكم الديكان فى المستقبل فأصدرت أمرها الى رجال هـذا القائد العظيم — لكن بطريقة خشنة منافية للآداب — أن يخلوا لها الطريق ، فأمر القائد رجاله بالانصياع لأمرها ولكن لمامرت عليه هذه المرأة تلفظت بعبارة وقحة وجهتها للنظام بنفسها فلما رآها لم تحترم شخصها بسبب مسلكها الذى سلكته معه ، أمر رجاله بضرب أعوانها ، كما أنه

طرحها وألهبها بالسياط تأديبا لها ، فذهبت وشكت أمرها للامبراطور ولكن ذو الفقار وكان صاحب السلطة والكلمة أشار على الملك بصراحته المعهودة أن يتغاضى عن هذا الموضوع لكيلا يجلب على نفسه خطر الخروج من العرش نظرا لما للنظام من قوة و بأس .

ومما روى أيضا أن الامبراطور عين أخاً للال كوار محافظا وكان موسيقيا ولكن ذو الفقار رفض تنفيذ القرار الخاص بتعيينه فى هذا المركز ولما سأله جهان دار شاه قال له بصراحته المعهودة « نحن رجال الحاشية لا نقدم خدمة لأحد إلا اذا أعطانا الرشوة التى ننتظرها أزاء الخدمة التى يراد منا انجازها » فابتسم الامبراطور من قوله وقال له « وما هى الرشوة التى تطلبها منه حتى نؤديها لك ؟ » قال « عليه أن يحضر لى ألف عواد بأعوادهم . وما دمت ياسيدى تعطى الموسيقيين الوظائف التى تسند لأمثالنا ، فيجب علينا والحالة هذه أن نختلط بهم ونحفظ عنهم صنعتهم » فابتسم الامبراطور وفهم الغرض من كلامه فى هذا الموضوع ، فسكت .

وكم كان فى الهند من الملوك الذين اشتهروا بالدعارة والتهتك ، ولكنهم لم يصلوا الى حد جهان دار إذ كان لا يعرف التستر على فضائحه ، وكان فى هذا الوقت فاروق سيار والياً على البنغال بالاسم ، ولما تولى جهان دار العرش أرسل الى جعفر خان الذى كان والى البنغال بالفعل أن يعتقل فاروق و يرسله أسيرا وقد كاد جعفر أن ينفذ ارادة الامبراطور لولا ما رآه من أن فاروق كان تحت رعاية والى « بتنا » الشريف « حسين على خان » ، وقد كان أحد أشراف بارا وقد كان هو وأخوه من أقوى أشراف هندستان فى وقتهم وكان ثانيهم قومندانا لجيش الله أباد فجهز الاخوان جيشاً وتوجها به نحو نهر الجانجيز و بمجرد أن التحمت جندهما مع جيوش جهان دار وولده انهزمت القوى الامبراطورية حيث أظهر

الامبراطور جبنا فى الحرب ولم يكن مؤيدوه عندهم النية الصادقة لتأييده فهرب جهان دار الى مدينة أجرا وتوجه لمخاطبة أسعد خان الذى ما زال رئيس الوزراء بالاسم فأراد الوالد أن يقبض عليه و يسلمه لخصمه ولكن رأى ذى الفقار كان المقاومة لأنه لم يكن ينتظر من فاروق خيرا ، ولكن لما بارح ذو الفقار مكانه بعد المقابلة قبض عليه وذبح وأخذ والده وصودرت كل أملاكه وأودع السجن ، وحل محل هذين الوزيرين الأخان السيدان شريفا بارا ، فكان هذا التصرف سببا فى ضياع الملك فاروق سيار لأنه رغما عما أداه لهذين الشريفين لم يثقا به ، وعلاوة على ذلك فقد ارتمى فى أحضان رجال من الحاشية لا كفاءة لهم ولم يعرف عنهم غير الخبث والمكر مما جعل عهد فاروق مشهورا بكثرة الحوادث الجنائية من ذبح وقتل ومما أدى فى النهاية الى سقوط فاروق نفسه وضياع دمه

وقد كان فاروق هذا لا ارادة له وكان صغير السن ناقص الخبرة وقد نشأ فى البنغال بعيدا عن والده وجده ، وكان دائما يعول على آراء الغير وكان فاقد العزم والتمييز ولكن ساعده الحظ ، وكان ضعف أخلاقه لا يتفق بالمرة مع أخلاق عائلة تيمور وكان يخدع بكلام المخادعين المحيطين به ، فجلب الشقاء على نفسه من أوائل أيام حكمه . ومن ناحية أخرى فاذ كان واقعا تحت ضغط الشريفين ، وكان مركزهما قويا و يؤيدهما كثير من رجال حاشية الملك وصار السيد عبد الله خان وزيرا ، وأما الأخ الثانى وهو حسين على خان فلم يكن بت فى تعيينه ، وكانا يرأسان حزبا يسمى حزب هندستان وهو يعارض فى خطته حزب الرؤساء التورانيين الذين كان يرأسهم نظام الملك (ـ التورانى ـ اسم ينطبق على الأتراك الذين استوطنوا الهند بعد هجرتهم من أواسط آسيا وما وراء النهر) وعين فيما بعد الشريف حسين على خان فى الديكان ، فعد النظام هذا التعيين اهانة له وكان يشغل هذه الوظيفه ، ويعتبر بالديكان أكبر شخصية ، فنشأ التنافس بينه و بين الأخوين مما أدى الى سقوطهما فيما بعد .

وقد افتتح فاروق حكمه بارسال جيوش لاختراق سهول الراجبوت مما أدى الى انهاء النزاعات الدينية فى هـذا الجزء من المملـكة . ثم وقعت حروب بين الملك والسيك ، أدت الى انهزام الأخيرين ، وكانت العداوات الدينية منها ما هو بين المسلمين كفريق والهندوس كفريق آخر ، ومنها ما هو بين المسلمين السنيين والمسلمين الشيعة ، وكانت العداوة بين الفريقين الأخيرين ينفجر بركانها على أوهى سبب طائفى . وقد وقع قتال فى سنة ١٧١٣ حينما كان الهندوس يحتفلون بعيد دينى فى مدينة أحمد أباد ، وكانت ترتـكب فى هذا العيد أمور مخلة بالآداب ويكثر فيه السكر وغيره . ومن أجل هذا قام نزاع بين المسلمين والهندوس وقد انضم فيه الحـكام المسلمون الى خصوم دينهم ، إذ اعتبروا الهندوس أحراراً فى احتفالاتهم ، فأثار ذلك حقد المسلمين ولجأوا الى بقرة وقتلوها أمام منزل أحدهم فهجم الهندوس وقتلوا ابن الرجل الذى ذبح البقرة وكذلك بعض زملائه وأوفد المسـلمون وفدا الى عاصمة الامبراطورية للشكوى وبمجرد وصولهم وشرح شكاياتهم أودعوا السجن بطريق السعاية من كبار الهندوس ، حيث قدموا رشوة لموظفى السراى وظهرت اضطرابات أخرى فى ولاية كشمير أثارها السنى الشهير محبوب خان الذى جمع فريقا من أتباع مذهبه وطلب من القاضى والحاكم عدم التصريح لهندوسى بركوب الخيـل أو لبس العباءة أو العمة وهما من شعار المسلمين ، الى غير ذلك من المطالب ، وعزز طلبه بفتوى ولا يعرف كيف حصل عليها وربما كانت أسبابها سياسية أكثر منها شرعية ، خصوصا وان حكام المغول كانوا يركنون الى الأحكام السياسية أكثر من ركونهم الى الوسائل الشرعية ، وعلى ذلك فان الوالى والقاضى لم يعبآ بالفتوى ولم يأمرا بتنفيذها فقامت قيامة محبوب خان وجموعه وأفهمهم علانية أنه يعرف كيف يؤدب هؤلاء الهندوس بنفسه ، ولم يكذب فى تهديده ووعيده ، إذ ذهب فوجد فريقا منهم مدعوين

عند رجل كبير من الأعيان فى حديقة — وكان أكثرهم من البراهمة — فى يوم عيد لهم ، فاقتحم عليهم المكان وقتل بعضا منهم وخرج يدعو قومه للجهاد الدينى ضد هؤلاء الكفار ، وهاجم أيضا أماكن الحكومة حيث أظهر ولاة الأمور تحيزا للهندوس إذ جمع مير احمد خان الوالى قوة من الجند ليكافح بها أعوان محبوب ولكن جموعهم كانت تزايدت فلم يستطع تشتيتهم من شوارع سرنجار ، وقد أشعل المتظاهرون النار فى عدة شوارع ، وأحاطوا برجال الحكومة وصار ينهال على الآخرين الطوب وغيره من المقذوفات وأخذ الاضطراب شكلا حادا ، وقتل فريق من الناحيتين ، واضطر احمد خان الوالى فى نهاية الأمر أن يطلب الرحمة من المتظاهرين ، ولم يستطع أن ينقذ نفسه الا بكل صعوبة ، وفر هربا بين سخرية الجماهير الظافرة ، و بقى محبوب حاكما لعدة شهور قتل فيها فريق كبير من الهندوس ، ولما وصل الوالى الجديد الذى بعثته الحكومة لاخضاع الفتنة ووجد محبوب أن المقاومة أصبحت لا تجدى سلم نفسه لأحد الموظفين التابعين للوالى السابق ، ولكن فى أثناء خروجه ومعه ابنيه من منزل الموظف بوغتوا وقتلوا ، ويقال ان الذى انتقم منه كان من طائفة الشيعة الذين أساء اليهم كما لو كانوا هندوسا ، وقام على أثر ذلك قتال جديد بين السنيين والشيعة سالت فيه الدماء ، ولم يوقف إلا بعد أن حضر الوالى المبعوث من دلهى فاخضع الثائرين وأعاد النظام الى نصابه بما اتخذه من الاجراءات الشديدة الرادعة ومات الملك فاروق سيار فثار السيك ثانية ووقع بينهم بعض الاعتداءات واتخذوا مركزا لفتنتهم حصن جارداسبور فى ولاية البنجاب ومنه صاروا يوزعون جموعهم فيجتاحون الجانب الغربى من هذه الولاية ، وقد جرد عليهم ديلير جنج حاكم لاهور قوة من الجند حتى اضطرهم أن يتقهقروا و يعتصموا فى حصنهم وطلبوا أن يسلموا الى القائد على شرط أن يعفوا عنهم و يؤمنهم على

حياتهم ، ولكن القائد نصح لهم أن يطلبوا هذا الطلب من الامبراطور فلما امتنعوا عن الانقياد لرأية ، هجم عليهم وأوقع فيهم مذبحة عظيمة ، قتل فيها الآلاف حتى أن القائد حنط ألفى رأس من ثوار السيك وأرسلها الى مدينة دلهى ليثبت حقيقة النصر الذى أحرزه وأرسل معهم أيضاً ألف أسير من بينهم زعيمهم المشهور (بندا) وابنه الصغير وكان سنه ثمانية سنوات وطيف بالأسرى و بالرؤوس على جمال فى داخل المدينة أمام الأمبراطور الذى أصدر أمره باعدامهم فبدأوا بالتنفيذ فيهم . ومن أفظع ما وقع تكليف بندا أن يتولى قتل ابنه بيده ، وقد ظهر من هؤلاء الثوار تضامن وارتباط غريبين يدعوان الى الاعجاب والدهشة ، ومما ذكره كافى خان عن ذلك القصة الآتية : بينما كان يجرى تنفيذ الأعدام فى الثوار ذهبت أم واحد منهم بواسطة أحد ذوى الجاه والنفوذ وأمكنها أن تقابل الامبراطور وتشكو له متظلمة أن ابنها لم يكن من طائفة السيك وأنه سبق اعتداؤهم عليه حتى أنهم اغتصبوا ممتلكاته وأنه وجد بينهم حيث كان مسجونا عندهم وقاسى كثيرا من الأهوال منهم ، والآن فقد أخذ بين الأسرى وسينفذ فيه حكم الاعدام فرق الملك فاروق لشكواها وأرسل ضابطا بالعفو عن ابنها وايقاف تنفيذ الحكم فوصل فى آخر لحظة وقد كاد ينفذ فيه فلما علم الابن بعفو الامبراطور احتج قائلا أن أمه كذبت عليهم وأنه يتضامن بروحه و بقلبه مع أبناء طائفته ويتفانى فى الاخلاص لزعيمه بندا ورجاهم أن ينفذوا فيه حكم الاعدام ولقد كان لهذه الموقعة أشد تأثير على طائفة السيك حتى كادت تتلاشى من عظم ما وقع عليهم من قتل وتأديب صارم وكان يظن أنه لن تقوم لهم قائمة ولكن البقية الباقية من أفرادهم تماسكوا واستمروا فى اخلاصهم للمذهب فرعى واشتد ساعدهم ، وسيظهر بأسهم فيما بعد فقد صاروا يزيدون يوما بعد يوم حتى أصبح أحد شيوخهم واليا على البنجاب وكون لطائفته قوة صارت أقوى خصم فى المستقبل

للانجليز بالهند — واذا تركنا أطارف الامبراطورية الآن ورجعنا الى العاصمة نجد أن شريفى بارا السابق ذكرهما صارا قوة فى الامبراطورية وتقلدا أكبر وظائفها فهما اللذان وضعا فاروقا على العرش وكان كلعبة فى يديهما فان شاءا عزلاه وجاءا بغيره وكان بعض رجال الحاشية يساورهم القلق على مركز الملك منهما ، حتى أن مير جملا (ابن جملا الأكبر) كان ينصح له سرا أن يتخلص منهما ولم يكن بمفرده على هذا الرأى . بل كان يؤيده فيه نظام الملك بالنظر الى تعيين الشريف الصغير بالديكان . وبدأ النضال بين الحزبين يشتد . ومما عقد العزم عليه فريق الشريفين أن لا يتيحوا الفرصة لحاشية الملك المستاءة أن تقوى عليهم ، وعلى ذلك فقد أرغموا الملك فاروق أن يرسل مير جملا الى بتنا لكى يكون بعيدا عنه ، ويقال أن حسين على خان الشريف الذى عاد من الديكان قريبا ، خاطب الأمبراطور بلهجة شديدة وقال له « انك اذا استدعيت مير جملا الى جانبك أو اذا عاملت أخى بمثل المعاملة السابقة . فثق أنى اذا علمت بذلك بعد رجوعى الى الديكان ، فانى سأعود اليك فورا فى ظرف عشرين يوما . » ثم انه أشار الى تعيين بعض الضباط فى القلاع وأملى ملحوظته على السراى املاء . وقد فكر نظام الملك فى أن يعصى الأوامر ظاهرا ولا يخلى الطريق للشريف الذى عين بالديكان ، ولكنه فى النهاية فضل أن يستتر الى أن تسمح له الظروف بالظهور ، واكتفى بأن أوعز الى داود خان وهو ضابط أفغانى شجاع أن يقاوم حسين على خان عند حضوره . وقد أظهر داود شجاعة نادرة ، ولكنه أصيب بقنبلة فقتل ، وقد مات فى هذا التاريخ أسعد خان والد القائد الشهير ذو الفقار الذى ذبح ، وكان فاروق يحاول الاستفادة من معلومات أسعد فى المدة الأخيرة إلا أن ذلك جاء متأخرا فقد كتب له أسعد كتابا قال له فيه « إن الغلطة التى ارتكبتها تخالف تقاليد عائلة

تيمور ولكن ماحصل كان بارادة الله ، وأنا كنت على يقين أن الوزارة متى خرجت من بيتى فان الدمار سينزل بعائلة تيمور ، ولكن بما أنك وضعت نفسك وجلعت تقاليد أمورك فى يدى الشريفين فخير شىء للحكم أن تبقى معهما على وئام بقدر جهدك ولا تثر بينك و بينهم عداوة أو خلاف فانك ان فعلت فستفقد عرشك ولكن العلاقات انتقلت من سىء الى أسوأ بين الامبراطور والشريفين وقد مضى حسين على خان المدة ما بين سنة ١٧١٧ وسنة ١٧١٨ فى قتال مع الماهراتا ، ثم تفاوض معهم وأما أخوه عبد الله فانه اذا لم يمضى وقته فى الملاذ والمجون لجأ الى الشحناء مع حاشية الملك ومكث عدة شهور لا يوقع على الأوراق الحكومية بسبب سوء علاقته مع الملك ،وقد وقع أخوه اتفاقية مع الماهراتا عدتها حاشية الملك مهينة وجارحة لكرامة المغول ، فجعل فاروق يفكر فى الخلاص من الشريفين فاستدعى بايعاز من كشميرى أحد وزرائه بولاند خان والى بتنا ونظام الملك والى مراد أباد وراجا آجيت سنج الى دلهى وطلب منهم القضاء على سيادة شريفى بارا ولكن لما أظهر الملك رغبته فى اسناد رئاسة الوزارة الى كشميرى وكان رجلا حقير الطبع لم يظهروا ميلا لتنفيذ خطة فاروق . وكان حسين على خان سمع بذلك فقام بجيشه من الديكان قاصدا دلهى ، وكان يؤيده فريق من الماهراتا وصار يحتل حصنا بعد حصن فى طريقه ، وكان نظام الملك قد بارح دلهى قاصدا مراد أباد ساخطا ، وأما بولاند خان فقد فكر أن يطلق الأحكام و يصير فقيرا ، ولكن عبد الله خان عينه فى كابل ، وأما آجيت سنج فقد تراضى مع الشريف ولذلك لما وصل حسين على خان الى دلهى لم يجد أى مقاومة من قائد من القواد ، وكان القصد الذى أتى من أجله هذا الشريف خلع الملك فاروق ، وأكبر دليل على ذلك أنه حينما قرب من العاصمة جعل يدق طبوله عالية ، وقد كانت تقاليد

المغول لاتجيز لأحد أن يقرع طبله على مقربة من مكان الملك فلما سمع فاروق أصوات الطبول عالية اعتبرها تحديا لشخصه وسلطانه فانفعل وظهر عليه الضعف وأظهر استعدادا للتسليم ، ثم عاد فاستعد لمقابلة الخصومة بمثلها ، فلما جد الجد ورأى الأمر محفوفا بالخطر ، رجع اليه خلقه الضعيف ودفعه جبنه الى المفاوضة بدل المعارضة واظهار المحبة بدل الخصومة ، ولم يكن لهذا المسلك المتقلب غير نتيجة واحدة وهى خلعه عن العرش ، وقد دخل حسين على خان قلعة دلهى وانتهى حكم فاروق ، وكانت الليلة التى وقع فيها العزل مملوءة بالمخاوف ولكن لم يحصل غير اضطراب بسيط .

حكم رفيع الدرجة

١٩٧١

وجلس على العرش بعده الملك رفيع الدرجة ، وقد اختلف فى أمر فاروق فقائل أنه قتل على أثر عزله ومن قائل انه مات سجينا بعد ذلك بقليل إلا أنه على كل حال كان بين العرش والقبر خطوة واحدة اذ لم يره أحد عقب خلعه ، وكان الذى خلفه أمير من بيت تيمور ومات بعد ستة شهور من بدء حكمه

حكم رفيع الدولة

كان هذا الملك الجديد من نسل عالم جير لكنه لم يرث شيئا من صفاته بل كان ألعوبة فى يد من حوله من الحاشية وتسمى باسم محمد شاه وطال حكمه وظل على العرش تسعة وعشرين عاما قضاها مشاهداً لانحلال هذه الامبراطورية وتفكك أجزائها وعاش حتى رأت عيناه دخول نادر شاه ملك إيران الى دلهى فى سنة ١٧٣٩ ، وكانت أول سنة حكم فيها محمد شاه انقرضت فيها سلطة شريفي بارا فان تحكمهما صار غير محتمل مما أدى الى استياء الحزب التورانى الذى يرأسه نظام الملك وقد ثار عليهما فى وقت كانا فيه منهمكين فى محاربة أحد أمراء الهندوس واسمه كابيلا رام وكان حاكما فى الله أباد ولكنه مات وقام مكانه أخوه وتملك قلعته وتمرد ورفض تسليمها للشريفين رغم مابذلاه من الوعود ، واستمرت الحرب ثم عادا ثانية واتفقا على الصلح وأقسم الراجا على ماء الجانجيز أن يحافظ على عهده ومن مقتضاه تسليم القلعة الى الامبراطور الذى حول وجهه نحو نظام الملك حيث جمع جموعا عديدة من الديكان وتوجه نحو دلهى . وقد سلمت مدينة برهان بوردون مقاومة وتقدم شمالا وهزم ديلاور على خان أكبر قواد شريفى بارا ، ثم فيما بعد

هزم عالم خان بن حسين على خان بالتبنى ، وقد أحدثت هذه الأخبار انقلابا فى دلهى التى كان أغلب من بها من المسلمين والمغول يكرهون شريفى بارا لما أظهراه من التحيز للهندوس راجا راتان شاند الذى كان يدير دفة الأحكام بالنيابة عنهما يضاف الى ذلك استياء أعوان الملك فاروق الذى قتله الشريفان ، وكان مما قرره الاخوان فيما بينهما أن يهاجم حسين على خان نظام الملك وأن يستصحب معه الامبراطور الجديد وأن يبقى السيد عبدالله خان فى مدينة دلهى توطيدا للنظام ، ولم يكن حسين على قد ابتعد طويلا عن العاصمة حتى فاجأه ميرحيدر على الأفغانى وذبحه فهاج لذلك أعوان الشريف واتهموا الملك بالتحريض وكادوا يفتكون به لولا أن الفريق الذى أيده كان أشد قوة ، ولما وصلت الأخبار الى أخيه السيد عبد الله خان بما حصل أتى بامير آخر من بيت تيمور وأجلسه على العرش وجهزله جيشا وأخرجه لمقاتلة الامبراطور السابق وتقابل الجيشان وهزم الامبراطور الجديد وأخذ أسيرا الى محمد شاه لكنه عفا عنه ، ومات السيد عبد الله خان فى أسره فى سنة ١٧٢٢ . وعاد الامبراطور السابق الى دلهي وعين نظام الملك وزيرا للدولة وفى المدة الأخيرة التى ضعف فيها شأن ملوك المغول لم تذكر حركة الماهراتا بشكل يفى الايضاح ، ولقد سبق أن ذكرنا أن الأمير أعظم بن عالم جير حينما كان ينازع أخاه على عرش دلهى أطلق سراح ساهو بن سمبهاجى وكانت تارابای أرملة رام راجا الابن الاصغر لسمبهاجى جالسة على عرش الماهراتا اسما ولكنها كانت نشطة وذات مطامع كبيرة ، فلم تشأ أن تخلى العرش دون الاقتتال عليه ، وقد شجعها أمراء الماهراتا الذين يخدمونها فقد رأوا خدمتهم لها أسهل عليهم من خدمة رجل كساهو فاضطر الى مناوءة هذه الاميرة وحاربها حتى احتل ستارا عاصمة الماهراتا . ولكن رغما عن ذلك فان تارابای لم تتنازل عن العرش بل جعلت كولابور عاصمة لها وكان معها ابنها الصغير . وفقد ساهو شيئا كثيرا من نشاطه

الماهراتى بسبب بقائه محجوزا فى سراى المغول مدة طويلة . ورغما عن أنه حصل على رئاسة طائفته فان كثيرا من القواد حوله أسسوا لأنفسهم امارات اختصوا بها ولازالت أسرتا «هولكار» «والجايكور» صاحب ولاية بارودا يحكمان الى الآن

وكان أشهر الأسر التى ظهرت فى عهد ساهو «نيمباجى سنديا» وقد رأى من مصلحته أن ينضم الى صف شاه عالم حينما ثار عليه أخوه كؤم بكس ، وقد أفادته هذه الخطة . ومن الزعماء الذين ظهروا تحت ظروف عجيبة عائلة فاتح سنج وهذا الراجا كان طفلا من عائلة بائسة أتت به أمه ووضعته أمام ساهو حينما كان يقاتل قرية تابعة للأميرة «تارابای» ، وقالت للأمير أنها وهبته هذا الطفل لينشأ فى خدمته فقبله ساهو وكفله حتى كبر وسماه فاتح سنج وعامله كما لو كان أحد أبنائه وهو مؤسس عائلة بنسولا التى حكمت فى ناجيور الى سنة ١٨٥٢ ؛ وفى أيام الحرب بين ساهو وتارابای صارت بونا مركزا عاما للراجبوت ، وكان حاكم هذه المدينة يؤيد قضية الاميرة تارابای وحكم هذا المكان باسمها فقصده ساهو فى سنة ١٧١١ ولكنه انتحر بطريقة الغرق قبل وقوع القتال . وكانت عائلة بالاجاى من أشهر الماهراتا حتى أنهم بعد سنين صاروا رؤساء اتحادهم جميعا وأقاموا فى بونا وصارت العاصمة ومات ابن تارابای سنة ١٧١٢ بالجدرى ، وتولى بعده أخوه من أم أخرى على عرش كولابور وحكم بالنيابة عنه وزراء من البراهمة ولكن « تارابای » كانت قد حجزت وفقدت نفوذها ، وفى المدة السابقة صرح ذو الفقار خان للماهراتا فى جباية ضرائب من بعض أجزاء معينة من الامبراطورية مقابل التزامهم السكينة ولكن بعد موت بهادر شاه وانتهاء حكم ذى الفقار فى الديكان عادت الأمور الى ما كانت عليه من الفوضى وصارت الماهراتا تعبث فى كل مكان فسادا وتسرق كل ما صادفها وكثيرا ما كانوا يجبون الضرائب باسم الماهراتا عنوة واقتداراً وكان نظام الملك الذى حكم مدة قصيرة فى الديكان على علاقة حسنة

بعرش « تارابای » فی کولابور ولـكن هـذا المـكان فقد أهميته باندثار حكامه وصارت الـكلمة العليا لساهو ، وكان على شىء من الـكفاءة واشتهر بالـكرم وكان يغدق المال على كل المؤسسات الدينية لجميع الطوائف وأخصها فريق البراهمة ، ولـكن ساهو كان ينقصه بعض صفات الماهراتا وقدرتهم على العيشة القاسية واحتمال المصاعب فانه لم يعش فى الجبال مع حداثة سنه بل كان محجوزا فى دلهى وقد أخذ كثيرا من أخلاق الوسط الذى كان فيه عند عالم جير فـكان يحب الأبهة التى يألفها أغلب أمراء المغول ووزرائهم ، وكان لا يميل الى العمل كثيرا و يسر حينما يتخلص منه ، و يجنح الى اللهو كصيد الأسماك وصيد الطيور بالصقور ، ولم يدرك أنه موكول اليه أمر الماهراتا الطموحين فقبل أن يعترف بسلطة المغول عليه على أن يتقاضى بعض ضرائب من عدة ولايات بـبلاد الماهراتا وفى مقابلها يقوم بايجاد خمسة عشر ألفاً من الخيـل وتدبير شؤونها لتـكون تحت طلب حاكم الديكان ليستخدمها فى أشغال الجيش عند اللزوم ، و بالجملة فقد حصلت عدة اتفاقات لم يوقع عليها فـكان سكان الجنوب فى ظلام وحيرة من حيث معرفة حقيقة موقفهم ومقدار الضرائب التى يدفعونها ومقدار ما يأخذه المغول ومقدار ما يفرضه الماهراتا .

وكان حكم المغول يرعى القانون بعض الرعاية بخلاف الماهراتا فان قانونهم أن لا قانون وقد تراخت الحـكومة المغولية فى فرض سلطتها بينما كانت مملـكة الماهراتا تجتاح الولايات المجاورة لها وترهق أهلها حتى أوصلتهم لدرجة الفقر المدقع إذ كان فى كل مكان يأتى الرؤساء العسكريون و يجمعون لحساب أنفسهم من الأهالى وتأتى بعدهم طبقة دونهم وتجبى لنفسها شيئا حتى أصبحت هذه الجهات قاعا صفصفا . فلما عاد نظام الملك من العاصمة ووجد الفوضى فاشية وأن سلطة الامبراطورية جار عليها الماهراتا بأجمير واستخدموها لصالحهم وتوالت عليه أخبار

كثيرة عن مظالم ارتكبها هؤلاء القوم فى كل مكان فأمل أن يعمل شيئا يعالج به هذه الحالة السيئة ولكنه كان متحققا أن ليس من المستطاع الوصول الى غرضه قبل معالجة المركز الرئيسى بدلهى وادخال بعض الاصلاحات عليه فنصح للامبراطور أن يتشبث دائما بالوقار والحزم أمام الناس،أوفى الحفلات وأن يخصص بضعة ساعات يوميا للنظر فيما يقدم اليه من الشكاوى وأن يقرر العدالة ونصح له أن يطهر حاشيته من أدرانها وأن يعصمها من تداخل النساء المقربات منه ولكن الامبراطور كان صغيرا وتنقصه الخبرة ويميل الى اللهو وكان محاطا ببعض مريديه الذين كرهوا نظام الملك وقاوموه وأخصهم بالذكر « دوران » الذى كان رئيس الحكومة قبل رجوع نظام الملك الذى عاد من أجل الخلاص من دوران خان نفسه وابعاد سيدة من محظيات الملك تسمى لوكي باد شاه اذ كانت تسعى لدى الملك فى مخالفة نظام الملك وقد فكر الملك فى الأمر ورأى أن يعين النظام رئيسا لوزرائه ، وكان متقدما فى السن متحفظا فى الطبع ميالا الى محاربة البدع والملاهى وقد طلب الى الامبراطور اصلاح نظام ضرائب الأراضى وخصوصاً ما تسمى (الخالصة) (هذه الأرض عبارة عن اقطاعيات كبيرة المساحة جدا وموجودة فى كل أنحاء الامبراطورية وكان يمنحها الامبراطور الى بعض الأعيان والمقربين ويعفيها من الضرائب ، ولم يكن هنالك أى معنى لاعفائها اذ كان ذلك يفقد الخزينة موردا كبيرا من موارد الايراد) وطلب الضرب على أيدى المرتشين من الحاشية ابقاء على سمعة العرش واعادة فرض الجزية وقيل أنه نصح أيضا بمساعدة ايران ضد الأفغان التى كانت تحاربها وكادت تتغلب عليها ، ولم يلح فى هذا المطلب بل اعتبره كمالياً ، وفى الواقع أن حالة الامبراطورية الهندية المتسعة المعقدة ما كانت لتسمح بفتح أبواب جديدة والاشتغال بها كمسئلة التدخل بين الأفغان وايران خصوصا وأن الحالة فى ولايات الديكان كانت فى

أشد الاحتياج الى العناية . ولما رأى النظام أن مطالبه لم تحز قبولا طلب الاذن من الامبراطور أن يسمح له باجازة للصيد وخرج وقصد الديكان وأقام هناك لمباشرة الممالك والمقاطعات التى كانت خاصة به وأقام بها الى قرب الوقت الذى حضر فيه نادر شاه لغزو الهند ولما علمت حكومة دلهى بأن نظام الملك قام من الديكان قاصدا نحوها أوعزت الى حاكم برهان بور بمحاربته ، ووعدته أنه اذا نجح يأخذ مكانه وحدثت بينهما موقعة قتل فيها حاكم برهان بور ، وكتب نظام الملك الى الامبراطور متهكما اذ قال له انه وجد الحاكم ثائرا فقتله تأديبا له على ثورته وأرسل كما هى العادة الهدية التى يرسلها كل قائد منصور الى الامبراطور وأرسل معها رأس الوالى وكان من ألد خصوم نظام الملك (باجى داو) الزعيم الماهراتى الجديد الذى ضاعف قوته فى خلال العشرين عاما التى حكم فيها محمد شاه ، وهو أول من حرض الماهراتا وجرأهم على غزو هندستان وايقاعها فى الفوضى التى وقعت فيها ولايات الديكان بسبب كثرة اجتياحهم لها ولكنه لم ينجح أولا فى اقناع ساهو وباقى الزعماء ، لا بعد مفاوضة ولما كانوا يتشاورون تخوفوا أن يكون هذا المشروع كبيرا على قوة الماهراتا اذ قد تتغلب عليهم قوى الامبراطورية ونظام الملك الذى كان يخشى منه اذا اشتبكوا فى الشمال انقض على الاماكن التى غزوها واستردها منهم ولكن باجى راو انبرى لمعارضيه بقوة حجته ولأنه كان فى مقدمة الملمين بأمور الامبراطورية وظروفها أفهمهم أنها سائرة فى طريق الانحلال ، وأنه قد أتيحت لهم الفرصة الآن فى أن يطردوا المسلمين من الوطن وأن يرفع علم الماهراتا من كستنا فى الجنوب الى حصن أتوك فى جبال الهملايا وحرض ساهو قائلا له: «انك ابن شريف لأب مجيد فلا تفكر فى صغائر الأمور ودعنا نضرب فى هذه الشجرة التى ذبلت فتتساقط أغصانها »

وأثناء عودة نظام الملك الى الديكان وقبل وصوله اليها قام بولاند خان من

كابل ليتولى حكومة جوجيرات التى كان حامد خان عم النظام واليا عليها . ولم يقبل حامد خان التخلى عن مركزه دون قتال ، فلما دارت الحرب بين الواليين ساعد الماهراتا حامدا ؛ وكانت النصرة له فى أول الأمر ، ولـكن بولاند خان احتل أحمد أباد زمنا ولم يكن هذا الوالى محبوبا من حكومة دلهى ، فأرسلت الراجا آبى سنج ليحل محله فلجأ الى المفاوضة وأرسل مندوبا لبولاند ولـكنه طرده ، ثم سار بولاند نحو خيمة خصمه وتفاهما حيث كانا أصدقاء سابقا ،وكانت النتيجة أن بولاند خان سلم الولاية الى آبى سنج وهذا الأخير سلمها للماهراتا ، وكانت حكومة ملوا يحكمها راجا هندوسى وقد غزاها الماهراتا ، ولم تصل للوالى نجدة من حكومة دلهى وكان نظام الملك طول هذا الوقت ينظر الى تطورات الأمور دون البت فى الأمر ولـكنه فى النهاية عقد النية على أن يطهر هذه المنطقة الجنوبية من خصومها ، وقد مدحه كافى خان قائلا : « فى وقت قصير استطاع نظام الملك إعادة هذه البلاد الى حكم المسلمين وطهرت من أرجاس الـكفرة الخائنين بعد ما كانت مملوءة باللصوص وقطاع الطرق وكان يغزوها الماهراتا من حين الى آخر حتى عطلت وسائل النقل وتعسر السير اذ لم يكن بها أمن أو ضمان ، وقد كان الماهراتا يعصرون المزارعين عصرا ليدفعوا لهم أتاوات وضرائب كل حين حتى صارت الحال فوق طاقة الاحتمال ولـكن نظام الملك أزال كل هذه المساوىء وقضى عليها وأعاد الأمن والسلام الى البلاد وهى المعروفة بحيدر أباد ، وكان من مهارته السياسية أن أوقع النفور بين ساهو وحكومة كولابور ليصفا لبعضهما ويأمن تضامنهما ضده ، ودارت الحرب بين البشوا ونظام الملك فانهزم الأخير وسلم للماهراتا بدفع غرامة لهم وجعل لهم حقا فى حصة من الضرائب التى تجبى من بعض ولاياته وطلب منه أن يسلم راجا كولابور الذى كان ضمن أعوانه فرفض ذلك كل الرفض ولم يتوطد مركز الماهراتا فى

جوجيرات وملوا إلا فى سنة ١٧٣٢ فلما تقووا بهما فكروا فى غزو هندستان وبدأوا فغزوا بند لكند وهرب حاكمها الى الله أباد حيث ترك الماهراتا أسيادا ودخل الماهراتا بلاد الراجبوت واجتاحوها ولم يظهر من أهلها الشجاعة التى اشتهروا بها ولا الجلد بل ظهر أنهم فقدوا مزاياهم الحربية التى اشتهرت أيام أكبر وشاه جهان وحصل كل ذلك والملك ومن حوله لاهين بملاذهم نائمين عن واجباتهم وكانوا كلما جهزوا جيشا سار قليلا دون أن يؤدى واجبا أكثر من مطاردة بعض قطاع الطرق ثم يعود قائده أدراجه ويدخل دلهى دخول الظافر المنصور ، ولم يفكر أحد فى دلهى فى مواجهة الماهراتا الى أن علموا أن باجى راو زحف الى الشمال فاضطر بت العاصمة لهذه الأخبار وصارت على تمام الاستعداد للتسليم بكل طلباته التى غالى فيها كثيرا ، والماهراتى لايعرف التواضع أو التساهل حينما يكون منتصرا فطلب تسليم الهند الجنوبية ابتداء من « شمبال » ، ولكن بينما كانت هذه المفاوضات دائرة بين باجى راو ودلهى اذا بسعادات خان فى سنة ١٧٣٦ يعبر الجانجيز من أورا ويطرد فريقا كبيرا من الماهراتا حتى عبروا نهر الجمنا ، فلما وصلت أخبار انتصاره الى دلهى قاومت فى التسليم واستصغرت شأن الماهراتا ولكن باجى راو أقنعهم أنهم كانوا واهمين اذا اسرع ومشى رأساً الى دلهى ، إلا أنه كان خائفا من أن ينتهز نظام الملك اشتباكه مع الجيش الامبراطورى ويجتاح أملاكه فى الجنوب فاكتفى بغرامة قدرها مليون وثلثمئة ألف روبية وتحول نحو الجنوب وفجأة ظهر النظام فى العاصمة وطلب ولايتى ملوا وجوجيرات لابنه غياث الدين فأجيب طلبه مقابل طرد الماهراتا منهما ووقعت بينهما معركة فى بهدبال وأخطأ نظام الملك لأنه تحصن ولم يهاجم خصمه الذى لم يكن عنده مدفعية قوية كمدفعية النظام وتكاثر الماهراتا حوله فقلت مؤونة جنده وبعد محاولة ابنه فى الوصول اليه لامداده فشل فى ذلك ، واضطر للتفاوض

حيث تنازل عن ولاية ملوا لغاية شمبال ونهر النر بدا . وقد وقد وافق نظام الملك على هذه الشروط وتعهد باقرارها لدى الامبراطور ومطالبته بغرامة للماهراتا قدرها خمسة مليون روبية وقال باجى راو انه حاول أن يحصل على غرامة من النظام نفسه فلم يمكنه لأنه كان ضنينا بماله ولم يتشبث الراجا .

وفى سنة ١٧٣٨ صارت الامبراطورية لا توجد إلا إسماً وخصوصا فى جنوب الهند وصارت الماهراتا تحكم جزءاً ونظام الملك جزءاً آخر وكان مع ذلك الجزء الثانى الذى تحت سلطة الامبراطورية يحكمه ولاة شبه مستقلين كما كان الحال فى أودا وكابل و بيهار والبنغال وكان ولاتهم من أكفأ الرجال مثل سعادات خان وعلى وردى وظهر زعيم من الجات وجعل مركزه فى بوهارتابور وصار يسرق يميناً وشمالا ما بين دلهى وأجرا ، أما البنجاب فلم يثر به إلا السيك مرة واحدة وظل هادئا مدة عشرين سنه حتى جاء نادرشاه وغزا الهند فقام بعض الهياج وفى نفس دلهي وقعت الاضطرابات مراراً فى أثناء الاحتفالات الدينية واحتلت الجماهير المدينة لمدة أيام ، وهذا وصف مختصر للحال التى كانت عليها الامبراطورية عند دخول نادرشاه ملك فارس فى سنة ١٧٣٨ . وقد احتل العاصمة وأباحها لعسكره لعدة أيام بناء على اعتداء وقع من الأهالى على الجند بعد أن عسكر بها وعلى أثر ذكر نادرشاه يجب أن نرجع قليلا الى التاريخ القديم ففى القرن السادس عشر جلس الشاه اسمعيل كأول حاكم وطنى على ايران بعد قرون عديدة حكمت فيها هذه الأمة إما بواسطة العرب أو حكام من التركمان وقد كان قريبا لمرزا بابر ولما فر همايون الى ايران بعد أن هزمه شيرشاه كان وقتها حاكم ايران يعتبر من أكبر ملوك الشرق ولمدة سنين قليلة ارتفعت إيران فى مركزها ارتفاعاً كبيرا مدة حكم الشاه عباس الذى كان يلقب بالعظيم ، ولم تكن هذه التسمية نتيجة تملق بل عن استحقاق . وقد مات فى نفس الوقت الذى مات فيه شاه جهان وعلى أثر موته

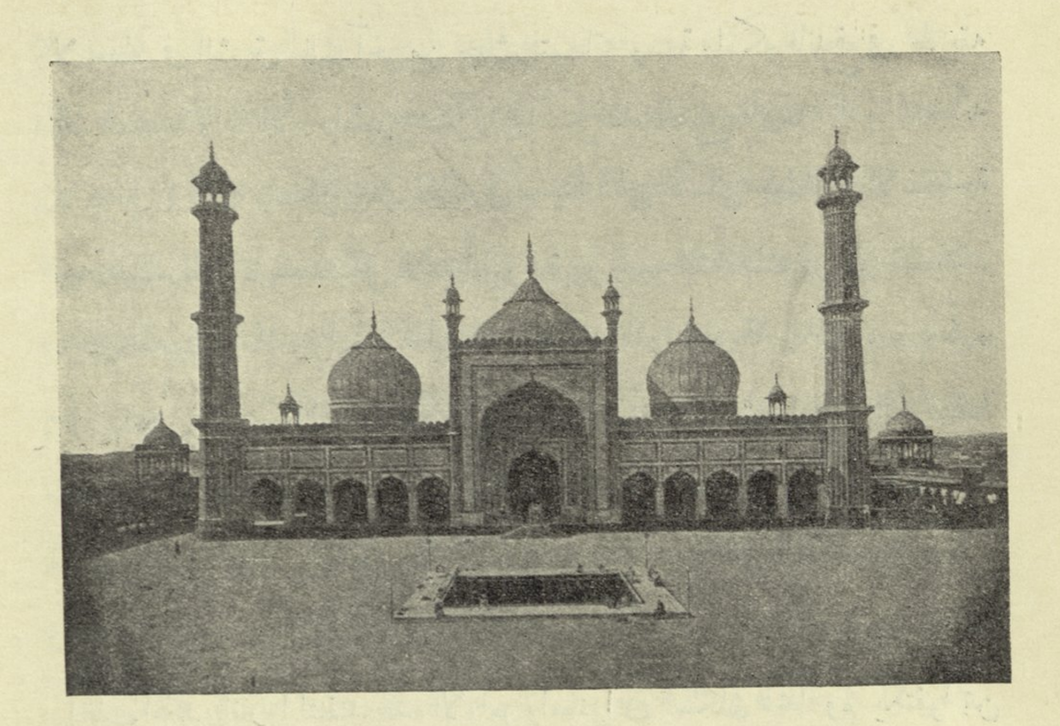
ابتدأت دولة ايران تضمحل وانها و إن كانت احتلت قندهار سنة ١٧٢٣ من شاه جهان فانها كانت تضعف شيئاً فشيئا ، و بعد ذلك هاجم ملك الأفغـان حسينا شاه الفرس الضعيف وهو ابن الشاه عباس العظيم ، وقد هزمه بعد أن حاصر إصفهان لعدة شهور حتى وقعت فى مجاعة ، ولم يكن محمود الأفغـانى الا جزارا ، وكان حكمه سلسلة مذابح ولما مات وجد وريثه وهو ابن عمه أشرف أن البلاد التى تحكم بالدماء لا تلبث طويلا حتى تحرر ، وفى مدة الشاه طهماسب طرد الأفغان منها ولـكن لم يكن الفضل الا لنادرشاه الذى كان الحـاكم بالفعل وكان تركمانى المولد من أبناء القبائل الراحلة التى كانت تنتقل من مكان الى مكان وقد صار فيما بعد نادر الشاه الحقيقى ، وقد استهل حكمه بمحاولة تغيير مذهب ايران الدينى اذ كان يريد أن ينقلها من الشيعة الى المذهب السنى ولـكنه فشل فى كل مرة كان يحاول فيها تحقيق هذه الرغبة وكان لديه شواغل أهم من تغيير المذهب الدينى وهى ارجاع حدود مملـكته الى الحدود الأصلية فأخرج الأفغان كلية من ايران ، ووجد أن من الضرورى احتلال قندهار وقد استتب فيها الحكم لأحد الأمراء الأفغانيين فكان من نصيب هذا الحـاكم أن يصطدم مع نادرشاه فى المدينة المذكورة ودارت الدائرة على هذا الأمير الافغانى فخسر بالسيف ما كسبه سابقاً به وترك امارته فاحتلها نادر شاه وهذه خطوة كبرى فى سبيل ارجاع ايران الى حدودها الأصلية وقد تحققت هذه الأمنية حينما حارب الروس والأتراك فى شمال ايران وغربها وطردهم منها ، ولما عادت ايران الى مكانتهـا الأولى لم يقف عند هذا الحد بل كان هذا الملك كبير المطامع واسع الهمة فصرف عمره فى الحروب الى آخر يوم من حياته ، وقد احتل العراق العربى وولاية أذربيجان وجزءا من القوقاز ، وكاد فى عهده أن يصير بحر قصبين بحيرة ايرانية ، وخاضت جيوشه عدة حروب فى أواسط آسيا واحتل مملـكتى بخارا وخيوا ،

ولم يقتصر على كل هذه الفتوحات الواسعة بل انه حينما فتح قندهار كان قريبا من حدود الهند التى كانت حالتها السياسية كمرجل يغلى ، وقد قامت فيها قيامة الهندوس على المسلمين فى عهد محمد شاه امبراطور دلهى وكان حاكما ضعيفا طمع فيه الولاة ، فصار كل واحد منهم ، يقتطع جزءا من المملكة ويستقل به ورأى بعض الوزراء المسلمين أنه ربما كان من الخير الاستنجاد بنادرشاه وقد طلبوا منه سرا التدخل دون علم من ملكهم الذى كان يقضى يومه فى الخمر ويبدأ ليله بتعاطى الأفيون مما أفقده همته وكثيرا من عقله وقد أخبر الوزراء نادرشاه أنه اذا لم تصل جيوشه لانقاذهم وقعت هذه الامبراطورية فى أيدى الماهراتا والسيك وباقى الهندوس . علاوة على ذلك فقد لوحوا بكنوز الهند المكدسة فى دلهى مما أثار رغبته فى الحرب وقد كان المشروع الذى يطلب منه تنفيذه من الخطورة بمكان عظيم لأن الهند بلاد متسعة حتى أن ولاية واحدة من بعض ولاياتها لتزيد فى السكان عن ايران . وكان جيش نادر من يوم أن جلس على عرش طهماسب الحاكم السابق لم يذق جنوده طعم الراحة ، ولم تكن من عنصر واحد ولا من قبائل مؤتلفة مع بعضها بل كان مكونا من فرس وترك وأفغان وأزبك ، ولم يكن ارتباطه بهذه الأجناس موروثا عن والده بل كان حديثا ولم يكن طال أمد اتصالهم به بل ان أغلبهم انضم اليه طلبا للمغانم والاسلاب وجند هذا دأبه قد يكون خطرا ولكن نادر كان رجلا بمعنى الكلمة فقد جمع مع حسن الادارة ومهارة القيادة وكان منظما للجنود حتى أنه حين استخدمه الشاه طهماسب الضعيف ليثبت ملكه رأى بثاقب بصره أن حالة الجند الأوروبى أصبحت متفوقة على الجنود الشرقية بسبب نظامها أولا وبالأسلحة الحديثة ثانيا . فلم يقف جامدا ازاء هذه الحالة بل دفعه فكره أن يستخدم مثل هذه الأسلحة ويستفيد من هذه النظم حتى أنه استعان ببعض الانجليز فى استيراد الأسلحة وفى

صنعها وصنع المراكب لبحر قصبين وخليج فارس وعلى العموم فقد كان رجلا مجددا نشطا فكل قديم غير صالح أزاله وكل حديث رآه نافعا اقتبسه . وكان جنده شديد الهيبة له اذ كان لا يتردد أن يطوق فصيلة من عسكره بمربع من الجند ويأمر بابادتها اذا عصت أوامره وبهذه الطريقة أدخل النظام على جيوشه وأمن من عوامل الفوضى فيها يضاف الى ذلك أن المكاسب الكبيرة التى عادت على الجند وضباطهم بسبب ما أخذوه من الأسلاب والغنائم كانت مغرية لهم وبذلك جذب الآلاف الكثيرة من المجندين الى جيشه ، ولولا ذلك لكانت كثرة فتوحاته وتعدد غزواته تقضى على العدد الأكبر من جنده بسبب كثرة القتل وتفشى الأمراض خصوصا وأن معاركه كانت لا تنقطع فيصبح الجيش عاجزا ولكن مهارته فى القيادة وبعد نظره عالجتا كل هذه المسائل فتغلب على أكبر المصاعب ودخل الهند نجدة للمسلمين بدلهى الذين استغاثوا به فاخترق جبال هملايا الوعرة ودخل أرض الهند ، ولم يكن بينه وبين الامبراطور محمد شاه سابق اتفاق ، بل كل ما حصل جاء من ناحية الوزراء الذين اهتموا بأمور المسلمين أكثر من عرش سيدهم وقد تحققت غايتهم ودارت موقعة بين نادر شاه وجيش المغول بمدينة كارناك ، ولم يقبل نظام الملك تأييد الامبراطور بل بقى بعيدا بجيشه ينتظر الحوادث ، ولم يطل أمد القتال وكانت الخسائر طفيفة من الطرفين ولكن قتل القائد المغولى داوران خان وأسر القائد الآخر سعادات خان ، وعلى أثر ذلك انهزم جيش المغول وفر من القتال وقد فكر نادر شاه فى أن يكتفى بهذه الموقعة ويرجع الى بلاده بعد عقد محالفة ودون التوجه الى دلهى وذلك بسبب ما قاساه الجيش من طبيعة البلاد الهندية المرهقة لجنده ، ولكن سعادات خان القائد المغولى نهاه عن عزمه وأظهر له ضرورة دخول دلهى حفظا لمركز المسلمين هناك وسهل له الأمر وكانت المسئلة مغرية لأنه اذا نجح فيها يصبح

لا يعدله فى الشرق ملك آخر من حيث فتوحاته وسعة ملكه فاندفع فى طريقه نحو العاصمة واذا بالأمبراطور يحضر راجيا منه عقد الصلح فأفهمه نادر شاه أنه لا يمانع فى ذلك ولكن يجب اتمامه فى مدينة دلهى ليمكن جيشه من الاستراحة بعد العناء الذى قاساه فدخل الامبراطور المقهور ومعه الشاه المنصور الى المدينة .

وكان الهدوء شاملا ، ولكن قامت اشاعة بأن نادر شاه قد مات ، و بعضهم يرويها بأن الموت كان عاديا والآخر يقول أن امرأة (دخلت عليه فطعنته فسقط قتيلا وقامت على أثر هذه الاشاعة الأضطرابات فى المدينة ، وصار الهنود كلما وجدوا جنديا أو شرذمة صغيرة من الفرس فتكوا بها فأثار ذلك المسلك غضب نادر شاه فأمر جنده فورا باخضاع الحركة دون رحمة وكانت فرصة ثمينة يتمناها أغلب الجند فانبروا لتنفيذ هذه الأوامر وأمعنوا فى السكان ذبحا ولم يكتفوا بمن كانوا فى الشوارع بل صاروا يقتحمون الأماكن التجارية على أصحابها والبيوت على سكانها فيقتلونهم و يسلبون منهم كل ثمين وساءت الحال وانتشرت النار تلتهم البيوت وغيرها واشتد هول المصاب حتى أن بعض السكان كان يقذف بنفسه فى النيران فرارا من الشقاء الذى وقع عليهم وذهبت المدينة فريسة للقتل والسلب والحرق فأعاد لها نادر بذلك عهد تيمور الذى كان مضى عليه ثلاثة قرون ونصف بل ربما كان ما عمله نادر أشد وقعا على هذه المدينة وقد ذهبت ثروتها وانكمشت عظمتها المادية حتى أن جيوش الانجليز لما احتلتها على أثر انقراض الحكم المغولى لم ترث من دلهى غير اسمها التاريخى ولم يخرج منها نادر شاه حتى أخذ كل مكنوز بها من ذهب وفضة وجواهر ومن بين أسلابه عرش الطاووس الذى تقدر قيمته بستة ملايين من الجنيهات وجوهرة كوهن نور التى تزين الآن تاج ملك انجلترا و بالاختصار فكل ثمين جمع من عهد تيمور الى غزوة نادر جمع كله فى أمد قصير ونقله الى فارس . ولم يبرح المدينة قبل



المسجد الكبير بدلهى

أن تتم تصفيتها من كل ثمين وزاد على ذلك أنه زوج ابنه بأميرة من سلالة شاه جهان ولم يعزل نادر الامبراطور محمد شـاه عن عرشه بل أبقاه عليه تحت حمايته و بقى حا كما بالاسم على الولايات المجاورة لدلهى و يكاد من هذا التاريخ يعتبر المغول اسما على غير مسمى إذ صار كل جنوب الهند فى قبضة نظام الملك والماهراتا ، وأما شمال الهند فقد كان عبارة عن ولايات وممالك يتبع أصحابها المغول اسما . والواقع أنهم صاروا الحـكام الحقيقيين ، و بعد مضى ثلاثين عاما على هـذا التاريخ أى دخول نادر الهند وكان فى سنة ١٧٣٩ أمراء المغول تحت ما يشبه الوصـاية عند شركة الهند الشرقية التى حصلت على اعترافات رسمية بأحقيتها فى ادارة عدة حكومات أهمها البنغال و بهار وأوريسا وقد أتى وقت قصير بعد ذلك صار المغول فيه تحت وصاية رعاياه السابقين وهم طائفة الماهراتا و بعد انقضاء عشرين سنة على دخول نادر شاه الهند غزاها ثانية أحمد شاه العبدلى

الأفغانى . ولم تـكن غزوة هذه المدة موجهة ضد المغول بل كانت ضد قاهريهم أى الماهراتا ، وقد وقعت بينهما موقعة عنيفة فى سنة ١٧٦١

وكان يتوقف عليها كل مستقبل الهنـد وفيها تمزقت قوى الماهراتا ولو أنهم لم ينـكبوا بجيش عبدلى لاحتلوا عرش دلهي ، وقد سهلت هـذه النتيجة للانجليز دخول الهند . ولو أن الماهراتا لم تقهر لتغير التاريخ هذه البلاد بل وتأثر به تاريخ العالم اذ لو لم تملك انجلترا هذه المستعمرة لما صارت فى مركزها الحالى بين الدول ولـكانت خلقت مدنية أسيوية على يد أمة الماهراتا

عهد الانحلال والفوضى

بعد عودة نادر شاه الى بلاده دبت الفوضى وانتشرت الحروب الداخليه فى كل مكان ولم يكن الحكم للاصلح بل صار الحـكم للأقوى ولما صار امبراطور الهند ضعيفا أصبح يتقاسم تركته الأقوياء من أمراء المسلمين وغيرهم من الماهراتا ، وان عدم جلوس امبراطور قوى بعد عالم جير مهد السبيل الى الماهراتا أن تتقوى شيئا فشيئا ، ولم يكن للحكام فى كل الهند تقريبا سلطة إلا بالاسم ، فالامبراطورية لم يبق لها سلطان على الممالك والممالك كانت مقسمة الى ولايات وفى كل ولاية حاكم يكاد يكون مستقلا عن ملـكه وبذلك صارت الامبراطورية ليست مجزأة الى عشرة أقسام أو مئة فقط بل لهذا الشكل صارت مجزأة الى ألف جزء كل جزء منها يتولى أمره حاكم يحكم فيه لصالح نفسه وشبت عائلات فى هذا العهد كبيرة وقوية مثل بشوا وهولـكار وجايكوار وحـيدر على والنظام ولقد عاش محمد شاه تسع سنين بعد أن قهره نادر شاه . وتولى بعده امبراطوران ضعيفان حكم أولهما ست سنوات وحكم ثانيهما خمسة سنوات وقد قتله نظام الملك وحكم بعده شاه عالم الثانى وكانت مدة حـكمه سبعة وأربعون سنة أى لغاية

سنة ١٨٠٦ وقد عاش الى أن رأى للانجليز السيادة على دلهى ولم يكن لهذا الامبراطور الأخير أى سلطة حقيقية على أى جزء من الامبراطورية التى تولى على عرشها ووقعت فى أوائل حكمه حرب الماهراتا التى قهروا فيها سنة ١٧٦١ كما ذكر من قبل وقد أثبتت الحروب التى دارت على مدى القرون المتعددة بين الهنود والشعوب التى جاءت من وراء الهملايا كالترك والأفغان والتتار والفرس أن الهنود أضعف فى الحروب من هذه الأجناس الشمالية ، التى كان جندهم أقوى أبدانا وأشجع جنانا ، والحرب التى دارت رحاها بين الماهراتا والعبدلى قضت على أحلام الماهراتيين الذين اتسعت مطامعهم حتى صاروا يتطلعون الى حكم الهند بأسرها ابتداء من رأس كومورين فى الجنوب الى حصن أركوت عند جبال هملايا وبعد ذلك لم يبق أمام الانجليز إلا فريق عاطل من أمراء المغول الذين أفسدتهم الرفاهية والانغماس فى الشهوات والذين ادبرت أيامهم واندثرت قوتهم ولولا هذا الظرف لما استطاع الانجليز بمثل القوة الضئيلة التى كانت تحت يدهم والتى كان أكثرها من عناصر هندية مأجورة أن يتغلبوا على الهند فيمتلكوها ولقد كان أكبر مساعد لهم على تحقيق هذا الحلم الاستعمارى استمرار الحروب الداخلية الكثيرة فى كل مكان . وهى التى جعلت الهنود يسفكون دم الهنود فزادتهم ضعفا اذ لم تكن سيوفهم مصلتة على أعداء الهند الأجانب بل على أبناء الهند أنفسهم .

وقد سطا الانجليز على هذه البلاد الواسعة وصارت فى حوزتهم غنيمة باردة لم يدفعوا ثمنها بل دفعه أصحاب الهند أنفسهم بسبب انغماسهم فى الشهوات والخلافات الطائفية التى قضت على أخلاقهم فجعلتهم لايصلحون لحكم ولا يحتفظون بملك ، وصاروا عبيدا لشهواتهم فاصبحوا فريسة لغيرهم .

مبدأ الاستعمار الأوروبي

كانت موجات غزو الهند تأتى تباعا من الشمال الغربى يقوم بها المسلمون مرة بعد أخرى ولـكن الأورو بيين الذين غزوا الهند وأقاموا بها بعد المسلمين جاءوها من ناحية البحر وعلى الأخص من ناحية الجنوب وكان أول من أذاع شيئا عنها فى أوروبا وذكر الـكثير عن حاصلاتها وخيراتها فاسكودى جاما البرتغالى الذى استصحب معه بعثة ووصل الى مدينة كاليـكوت فى سنة ١٤٩٨ وأقام هناك ستة شهور وقابله بالعداوة العرب الذين كانوا يحتـكرون تجارة البحار الهندية وقابل جاما الراجا الهندوسى الذى يحكم فى جايانا جار وقد أعطاه كتابا الى ملك البرتغال مضمونه كالآتى :

(أخى . . .

رأيت رجلا شريفا من أقاربك وسرتنى رؤياه كثيرا ، و يوجد فى بلادى كميات وافرة من القرفة والزنجبيل والفلفل والأحجار الثمينة وكل ما يلزم لنا مقابلها من بلدك هو الذهب والفضة والمرجان)

ولما عاد جاما الى بلاده قو بل باحتفال عظيم فانه اذا كانت اسبانيا كشفت الهند الغربية فقد اكتشف جاما للبرتغال الهند الشرقية وقد أثار هـذا العمل العظيم حماس البرتغاليين لفـكرة تملك مستعمرات جديدة فى الشرق وفتح أسواق تجارية ، يضاف الى ذلك ما كان لديهم من الرغبة الصحيحة فى التبشير بالدين المسيحى فأوفدوا مع جاما ثلاثة عشر مركبا واثنا عشر ألف جندى ، وكذلك أرسلوا مع قائد آخر ألف وخمسمئة جندى وطلب منهم أن يحاولوا الدخول فى الهند بالحسنى فاذا لم يستطيعوا فبالسيف ، ووصلت أخيرا هذه القوة الى كاليـكوت

وأنشأت بها فاوريقات ثم توسعت فى خطتها وأنشأت مصانع أخرى فى كوشين رغما عما قوبلوا به من العداوة التى أبداها لهم سكان هذه الجهات ، وقد حصل ملك البرتغال على فرمان من البابا رسمه فيه سيدا لبحار العرب والعجم والهند والحبشة ، وفى ثانى مرة عاد جاما الى الهند بعشرين سفينة وعقد محالفة مع بعض الراجات الهندوس ضد صديقه الأول راجا فيجايا ناجار وفى سـنة ١٥٠٩ وصل البوكرك البرتغالى وفرنسيسكو الميدا واحتلا ثغرجووا ، واتسعت أملاكهما بالهند . وفى خلال قرن واحد يبدأ من حوالى سنة ١٥٠٠ الى سنة ١٦٠٠ ميلادية تقريبا تمتع البرتغال باحتكار التجارات الشرقية ولـكن فى أواسط هـذه المدة بدأت ولايات كثيرة تسقط فى يد المسلمين ، وبدأت أيضا تجارة البرتغال فى الهبوط والمدة الأخيرة التى مضاها البرتغال كان يتخللها نضال مستمر مع المسلمين ولهذا السبب اشتد العداء بين المسيحية والاسلام ولم تطق البرتغال الصغيرة رغم قوتها أن تثبت فى نضالها أمام مسلمى الهند خصوصا وقد ساعدهم الهولنديون والانجليز الذين بدأوا فى الظهور وانهزمت البرتغال على يد هولندا فى أواسط القرن السابع عشر وشـيد الهولنديون لأنفسهم مراكز تجارية فى أرخبيل الهند الشرقية وصـارت لهم محطات فى جزائر جاوه وسومطرا واشتدت سطوتهم هناك حتى خافها الانجليز واكتفوا بالهند الأصلية خصوصا بعد موقعة أمبوينا سنة ١٦٢٣ وذلك مما ساعد الانجليز فيما بعد فى التغلب على الهند والاستئثار بها ، ودامت المواقع البحرية بينهم وبين خصومهم الهولندين لغاية سنة ١٦٨٩ ولم يستطع الانجليز التغلب عليهم الا فى سنة ١٧٥٨ بواسطة « كليف » ، كذلك تم تغلب الانجليز أيضا على البرتغال قبل ذلك بمدة طويلة ، ورضخت الأخيرة لفتح موانيها بالشرق الى الانجليز وقد كانوا يطمعون فى الاستيلاء على بومباى ولـكن لم يستطيعوا ذلك بالقوة الا أن الظروف ساقتها اليهم حيث قدمت لهم كمهر لأميرة براجنزا التى تزوجت شارل الثانى ملك انجلترا

حركة قومية ضعيفة

حاول الهنود أن يثبتوا عرش المغول الذى كان يتداعى الى السقوط فقامت لهم حركة ضد الانجليز على يد أمير يرتبط تاريخه بأيام عالم جير اذ كان الأمير الحاكم على ولايات البنغال سنة ١٧٠٧ يسمى مرشد كولى خان وظل حاكما عليها بنجاح لمدة احدى وعشرين سنة ، وكان للانجليز والفرنسيين والهولنديين فاوريقات على سواحل ولايته وابتدأ من هذا الحين يظهر شأن شركة الهند الانجليزية الشرقية وقد ذهب أعضاء هذه الشركة الى الهند تدفعهم رغبة الاتجار لا الاستعمار ولكن فشت ثروة الشركة ونمت مصالحها واتسعت سلطتها وكثر عدد عمالها فصارت صاحبة السلطان لما بها من الأموال والرجال وكان كثيرا ما يقع بينها وبين الهنود منازعات دعت الشركة فى آخر الأمر الى تنظيم هيئات عسكرية للمحافظة على مصالحها وأموالها ، فاستخدمت لهذا الغرض بضعة آلاف من الجنود الانجليزية والهنود المأجورة وكانت لها عدة محطات من أهمها مدراس وبمباى وكلكوتا ، وفى سنة ١٧٥٦ صار حكم البنغال فى يد سراج الدولة وهو من نسل مرشد كولى خان المشار اليه سابقا ، وقد اختلف سراج مع الانجليز حينما علم أنهم ينشؤون حصونا واستحكامات حول مدينة كلكوتا ، ولأنهم آووا لديهم خصما من خصومه ، فاعد سراج الدولة جيشا يبلغ خمسين ألفا وهاجم به حصون كلكوتا الجديدة واقتحمها بعد دفاع لم يطل أمده وفر فريق من الحامية وأسر من بقى من كلكوتا من الانجليز وكان يبلغ عددهم ١٤٦ وأودعوا فى سجن كلكوتا الأسود الى أن ينظر فى شأنهم وكان هذا السجن ضيقا تبلغ مساحته ١٨ قدما × ١٦ قدما فحشروا به جميعا وعلى ضيق هذا المكان كان الوقت صيفا فاختنق كثير من الانجليز ولم ينج منهم فى ثانى يوم من سجنهم غير

ثلاثة وعشرين شخصا أطلق سراج الدولة سراحهم ويظهر أن ما وقع لهم من النكبة لم يكن عن رغبة منه بل ان فريقا من ضباطه كانوا يكرهون الانجليز فانتهزوا فرصة القبض عليهم وقسوا فى معاملتهم حتى وقعت لهم هذه الكارثة التى ترتب عليها أن وضع الانجليز نظاما عسكريا وسياسياً استطاعوا به أن يحكموا الهند وقد اهتموا بتدريب عسكرهم وصاروا يتداخلون بين الحكام الهنود ويثيرون بينهم العداوة والبغضاء فاحتلوا بهذه الوسيلة ولايات الهند شيئا فشيئا خصوصا وقد خلا لهم الجو من منافسة الفرنسيين الذين كانوا يزاحمونهم فى امتلاك هذه الامبراطورية الواسعة ولكن بمهارة اللورد كليف فى الشؤون الحربية وبسبب دهائه السياسى صارت الغلبة للانجليز ، وهو الذى انتصر على خصومه فى سنة ١٧٥٧ فى موقعة بلاسى وكان جيش سراج الدولة يبلغ ستين الف جندى بينما كان جيش كليف يتكون من الف جندى انجليزى وألفين من الجنود المأجوره ، الا أن انتصار الانجليز لم يتحقق الا بسبب خيانة أحد الأمراء وهو مير جعفر الذى انتقض على سراج الدولة فى أثناء الموقعة ومما يدعو الى الدهشة أن لا تتجاوز خسائر اللورد كليف اثنين وعشرين قتيلا وخمسين جريحا

تمرد الهنود على الشركة (سنة ١٧٥٨)

وعلى أثر هذا الانتصار بدأت صولة الانجليز تدخل فى دور شديد الخطر على استقلال الهند فان موقعة بلاسى أعقبتها عدة مواقع بين جيش الشركة والأمراء الهنود وعلى توالى السنين صارت الامارات تدخل تباعا مرغمة أو مخدوعة تحت سلطان الحكم الانجليزى ومن أجل هذا نشأت روح جديدة من الاستياء بسبب تسلط الانجليز على حرية الهنود خصوصا وأن الشركة فى كثير من الأحوال كانت تقوم بعزل الأمراء من هندوس ومسلمين وتعين فريقا آخر

غيرهم من منافسيهم فتكونت حركة معارضة زكاها الامراء والوزراء المفصولون عن العمل وكل من كان يلوذ بهم و يستفيد من نفوذهم ، يضاف الى هذا أيضا أن الكثير من موظفى شركة الهند الشرقية الانجليزية كانوا تحت سلطان المطامع الشخصية يجورون فى معاملاتهم مع الهنود و يستغلونهم استغلالا مرهقا ، وقد نمت حركة الاستياء والانتقاض هذه وترعرت تحت رعاية بهادر شاه الثانى وهو الوالى الشرعى ووارث عرش المغول بدلهى والذى لم يكن له وقتئذ من السلطة إلا اسمها ومن القوة إلا شبحها ولم يكن ينتظر من بهادر أن يحرك ساكنا أو أن يفكر فى أن يسترد نفوذه المسلوب وسلطته المغتصبة وقد اكتفى بمعاش كبير كان يتقاضاه من الشركة ورضى بالعيش فى هدوء ، وا كتفى بالانغماس فى أنواع الترف والملاذ التى كانت أسبابها متوفرة لديه ، الا أنه فى أواخر أيامه تزوج بأميرة هندية فرزق منها بولد واتفق أن أكبر اخوته من أم أخرى كان ولى عهد لأبيه الا أنه مات فى حياة والده فانتهزت الزوجة الجديدة هذه الفرصة وأرادت ان تعين ابنها ولياً للعهد فقبل والده ذلك الا أن الانجليز وقد أصبحت لهم الكلمة العليا فى الهند لم يوافقوا على تعيين ابن بهادر شاه ولياً للعهد فامتلأت أمه غيظا من الانجليز وزجت بنفسها فى تيار المعارضة الذى خلقته ظروف حكم الشركة السيىء وقد عملت الأميرة على بث روح الاستياء واشعال نار الثورة ضد الانجليز فصادفت كثيرا من النجاح خصوصا وأن جيش الشركة كان أغلبه من الجنود المأجورين السيبوى والذين تمردوا على الانجليز و بدأ تمردهم يأخذ شكلا خطرا فى الاسبوع الأول من شهر يونيو سنة ١٨٥٧ ، واندلعت نار الفتنة وتمرد الجيش فى عدة أماكن وانضمت اليه الجماهير وابتدأ أثر الاعتداء يقع على حياة الانجليز وأملاكهم فى أنحاء متعددة أهمها لكناو وفاروق أباد وأجرا ودلهى وكاونبور وهى التى رفع بها الأمير نانا صاحب الهندوسى علم الثورة ، وقتل

كثيرا من الانجليز الذين وقعوا فى قبضة يده ، وظل نطاق الثورة يتسع حتى نودى ببهادر شاه ملكا على الهند بواسطة (الباراتوبى) (أى مجلس الاثنا عشر رأس) وهو الذى كان يدير حركة الثورة ولكن ثبات الانجليز وتفرق كلمة الهنود وتناقض مصالح رؤساءهم وطوائفهم الدينية كانت السبب الأكبر فى اخفاق هذه الثورة التى انتهت بالفشل وانهزام بهادر شاه الذى قبض عليه حيث وجد مختفيا فى مدفن همايون شاه وحاكمه الانجليز واتهموه بالثورة وقتل الأوروبيين وظلت محاكمته شهران وحكموا بادانته الا أنهم خففوا الحكم عنه حيث اتضح لهم أنه كان تحت ضغط الباراتوبى واستبدلوا اعدامه بالسجن طول حياته ونفى فى مدينة رانجون حيث مات هناك سنة ١٨٦٢ ، وكان من أشد ما يثير الألم والحزن أن هذا الأمير حينما أسر جاء الضابط الانجليزى هدسون بأبنائه الثلاثة وأعدمهم أمام والدهم و بذلك انقرض أيضا حكم المغول وأصبح الانجليز يتحكمون فى أشخاص الهنود وأوطانهم و يتصرفون فيهم تصرف السيد فى العبيد قبل إلغاء نظام الرق وقد انتقلت سلطة الحكم من يد الشركة الى التاج البريطانى حيث أعلن ذلك رسمياً فى سنة ١٨٥٧ ، ولا زالت الهند ترزح تحت سلطان الانجليز وتقاسى الأهوال والعذاب ، وقد توطد الحكم للانجليز ودانت البلاد لهم وخضعت الجماهير تحت ظلمهم المنظم واستعبادهم المجسم ولكن بوادر الخطر على نفوذهم ابتدأت تتجمع و يبدو منها أن حكم الانجليز أصبح مهدداً و يأتى هذا الخطر من ناحية اليابان فهذه الدولة الفتية نفضت عنها الجمود الذى استخور على الأمم الشرقية واقتبست من النظم الأجنبية ما يلائم نهضتها وقطعت شوطا عظيما فى سبيل التقدم سبقت به من معها وفازت على من سبقها وصارت فى مقدمة الدول القوية الممتازة وظهرت عظمتها فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ حيث قهرت حكومة القيصر واحتلت مملكة كوريا ولم يمض زمن طويل على ذلك

حتى وقعت الحرب الأوروبية العامة التى أنهكت أوروبا وشتتت كلمتها وحولتها مؤقتاً عن الاهتمام بالشرق فوجدت اليابان الفرصة سانحة فى أن تقوم بمجهود أكبر واحتلت منشوريا وأعلنت الحرب أخيرا على الصين ويدل سير الأمور هناك على أن النصر صار محققاً لليابان وهى التى أصبح شعارها الآن (آسيا للأسويين)، والذى يدرك المجهود الذى بذلته أمة الميكادو والانتصارات التى حازتها فى وقتنا هذا يحكم أن شعارهم سيتحقق عمليا خصوصاً وأن الانجليز بما طبعوا عليه من شدة الطمع يضعون العراقيل فى وجه اليابان فيما يتعلق بتجارتها فى البلاد الراضخة للنفوذ البريطانى، واليابان وهى بلاد كثيرة السكان ضيقة المساحة ستدفعها الحاجة حتما إلى توجيه ضربة قاضية الى النفوذ البريطانى فى الشرق، ومن الآن لا يمكن أن تعيش اليابان راضخة الى التحكم البريطانى وستجد نفسها مضطرة الى مناوأة، الهند.

وأما الخطر الثانى الذى يستهدف له الحكم البريطانى فى الهند فهو من ناحية البلاشفة فالثورة البلشفية ليست ثورة قومية يراد بها تحرير الأمة الروسية بل هى ثورة عالميه يراد بها تحرير العمال من الحكم الرأسمالى وهم يوقنون أن الرأسمالية والبلشفية نظامان متنافران لا يمكن أن يعيشا بجانب بعضهما طويلا، لذلك سعت الروسيا أولا فى بث دعايتها بأوربا فوجدت فى الوقت الحاضر ألمانيا وايطاليا حائلا قويا دون تحقيق غرضها لذلك لجأت الى جبهة أخرى وهى آسيا وصارت تبث فيها دعايتها وبنوع أخص فى بلاد الهند والصين، وهذه مسئلة أثبتتها وقائع رسمية إذ أن البوليس الانجليزى حاصر «أركوس هاوس» حيث يوجد مقر الوكالة البلشفية فى لندرة فوجد به وثائق تثبت صراحة عظم المجهود الذى يبذله البلاشفية فى إيجاد ثورات شيوعية وتشكيلات بلشفية فى كل من الهند والصين إلا أن الدعاية الخطرة التى تقوم بها الروسيا الآن ابتعدت مؤقتاً لأن

التعاليم الشيوعية التى كانت تغلغلت فى الصين لم تمهلها اليابان بل ضربتها ضربة تكاد تكون قاضية فأجلت الخطر على النفوذ البريطانى مؤقتاً من ناحية البلشفية فى الهند .

أما الخطر الثالث فيأتى من شمال الهند وقد يظن البعض أن هذا الخطر يعد من الأوهام لأن الأمم المجاورة للهند من الناحية الشمالية ليست بذات قوة تسمح لها أن تغتصب الهند من يد انجلترا إلا أن من يدرس المسألة الهندية بتوسع يتضح له أن الخطر من هذه الناحية على النفوذ البريطانى أكثر احتمالا ، بل يعتبر حقيقة لا وهماً إذ أن سكان الهند يبلغ عددهم كما جاء بدائرة المعارف البريطانى طبقا لتعداد سنة ١٩٠١ يبلغ نحو (٢٩٤٣٦١٠٥٦) نسمة و يبلغ عدد المسلمين منهم (٦٢٤٥٨٠٧٧) وقد جاء فى نفس دائرة المعارف البريطانية أن الدين الاسلامى يزداد انتشاراً بنسبة أكبر من غيره من الأديان ، و إذا لاحظنا أن هذه الملايين من المسلمين يكاد يكون أغلبهم أى أربعة أخماسهم على الأقل ينحصر فى الولايات المتاخمة للممالك الاسلامية المستقلة وهى الأفغان و إيران ثم إن جانبا كبيراً من هؤلاء المسلمين المقيمين بالهند هم نفسهم من أصل أفغانى و إيرانى و بناء على ذلك فاذا جاءت غزوة من الشمال فستجد لها دعاة مخلصين بل أعوانا من الهنود أنفسهم يقاتلون فى صفوفهم إذ لا يخفى أن ولاية الهند الشمالية الغربية تبلغ نسبة المسلمين بها ٩٢ ٪ من سكانها بينما فى كشمير و بلاد السند تبلغ نسبة المسلمين ٧٥ ٪ من السكان وفى البنغال الشرقية وولايات أسام تبلغ نسبتهم ٥٨ ٪ وفى البنجاب تبلغ النسبة ٤٩ ٪ وهذه الولايات متلاصقة بل تعد بلادا واحدة قسمتها فقط الخرائط الجغرافية ومن يدرك عظم النهضة القومية الحديثة فى الأفغان وايران يستخلص منها أنها لازالت ترنو الى الهند . ومما يدل على مقدار تعلق المسلمين خارج الهند باخوانهم فيها زيارة حبيب الله خان ملك الأفغان سابقا

ووالد أمان الله خان (الذى زار مصر من مدة قريبة) والذى كان حين زيارته يبث روح الوفاق والمحبة بين الهنود والمسلمين ومواطنيهم الهندوس و بين المسلمين السنيين و بين الشيعيين ، فان هذا الملك قبل أن يصل الى مدينة دلهى علم أن المسلمين هناك سيحتفلون بمقدمه واظهارا لفرحهم سيذبحون مئة من الأبقار لتوزيعها على الفقراء فلما عرف أن هذا العمل سيؤدى حتما الى وقوع النفور بين المسلمين والهندوس الذين يعتبرون الأبقار من الحيوانات المقدسة التى لايجوز ذبحها ففى الحال أرسل لهم على عدم موافقته لهذا التصرف الذى ينشأ منه اساءة لاحساس مواطنيهم الهندوس وأفهمهم أنه جاء لزيارة كل سكان الهند لاالمسلمين خاصة وهو لايميز بين دين وآخر أو جيش وجيش ، لذلك فهو لا يوافق على أى عمل يثير بين طوائف الهنود النفور والشقاق ، وطلب منهم استبدال الأبقار بالماعز فكان هذا العمل موضع استحسان الجميع ، ولما توجه حبيب الله خان الى كلية عليكرة الاسلامية لزيارتها أخذه موظفوها الى « كتبخانتها » ليراها وأطلعوه على نسخ من القرآن و بعض كتب الشريعة الاسلامية فقال لهم فى رفق « إنى ما حضرت لأرى الكتب بل حضرت لأرى الطلبة الذين وجدت الكتب من أجلهم » وأبدى لهم الملحوظة الآتية قائلا « هل اذا وجدت فى دولاب أحد من الناس نسخة من رباعيات عمر الخيام فهل تحكم لمقتنيها بأنه من شعراء الفرس ؟ وأننى أعرف جيدا ما تحتوى عليه صحائف هذه الكتب التى أطلعتمونى عليها والآن أريد أن أعرف ما فى رؤوس من يقرأ هذه الكتب . » ولما فهمت حاشية المدرسة أنه يريد الاتصال بالطلبة لم يجدوا مفراً من ذلك فأخذوه الى بعض الفصول و بعد استئذانه من رئيس المدرسة فى أن يوجه بنفسه بعض الأسئلة للطلاب و بطبيعة الحال وافق المدير على ارادة الملك الذى سأل أحد الطلبة ما هى قواعد الاسلام الخمس ثم انتقل بعد ذلك الى عدة أسئلة

ثم طلب من أحد الطلبة أن يتلو شيئا من القرآن قائلا له أتل أى شىء تعرفه ، فتلا سورة بصوت جميل فسالت الدموع من عينى حبيب الله خان وجرت على خده فابتعد قليلا الى أن حبس دموعه ، ولما أدرك أن الطلبه فيهم شيعة خاطبهم قائلا « أنا شخصيا رجل سنى وأريدكم أن تصغوا إلى وأن لاتنسوا ما أقوله لكم اذا تقدم بكم السن ووصلتم الى الشيخوخة — انى سمعت أن البعض يقول عنى ان أمير أفغانستان من السنيين المتعصبين فهل تظنون أننى من أجل مذهبى حتما أكون متعصبا ضد الشيعة فقالوا « لا » ، فقال لهم دعونى أسألكم هل أنتم أيها الشيعيون تفضلون الهندوس على السنيين فقالوا لا ، فقال لهم هذا حسن ولعلكم قرأتم فى الصحف أننى منعت المسلمين من ذبح الأبقار استبقاء لمودة الهندوس ومحافظة على احساسهم فهل من يكون شعوره نحو الهندوس مثل شعورى يكون شعوره نحوكم أقل مودة من شعوره نحو الهندوس لهذا أطالبكم أن لا تظنوا بى الظنون فلا تعتبرونى من السنيين المتعصبين وأنا فى أفغانستان يوجد بين رعاياى من هو سنى ومن هو شيعى ومن هو هندوسى وهم يتمتعون جميعا بتمام حريتهم الدينية فهل تعدون ذلك تعصبا ؟ واذا كان هذا شأنى فاننى من أجل ميلى الى الحرية لا أصرح للشيعة بسب الخلفاء الثلاث فاذا قدر واعتبرتم هذا تعصبا فلأكن متعصبا اذن وانتقل الملك من كلامه عن الدين والتعصب الدينى الى شئون الكلية الأخرى فقال انى سمعت كثيرا من المدح والذم عن هذه الكلية ولكن ما سمعته عن ذمها كان أكثر لذلك جئت بنفسى لأقف على حقيقة الأمر فانى قليل الثقة فى التقارير التى ترفع الى وقد بحثت اليوم مسئلة هذه الكلية وقد ثبت لى بعد بحث دقيق أن ما سمعته من الذم فى كليتكم كان كذبا وانى أحمد» الله كثيرا اذ أن معلوماتكم الدينية صحيحة وصفاتكم كاملة ومن الآن فصاعد سأسكت كل لسان يتكلم بسوء عن كليتكم

وقد لاحظت أن كثيرا من مسلمى الهند يسيئون الظن بالتعليم الحديث أو ما يسمونه الأوروبى فما أشد غفلتهم وأرجوكم أن تصغوا الى وقال « انى أقف موقفى هذا لأروح للتعليم الأوروبى وعلاوة على أنى لا أجد فيه أى ضرر فقد أنشأت فى نفس بلادى كلية على النمط الأوروبى غير أنى لم أهمل مع ذلك التعليم الدينى بل جعلت اهتمامى به عظيما وأنا ممن لا ينكر أن التعليم الشرقى له قيمته بل أعترف به غير أنى فى الوقت نفسه لا أهمل التعليم الأوروبى تمشيا من روح العصر

و بمناسبة هذه الزيارة اكتتب حبيب الله للكلية بما قيمته ١٣٣٣ جنيها وأوقف عليها أملاكا ايرادها السنوى أربعمئة جنيها ومثل هذه الزيارة وما بدا فيها من الشعور الفياض بالعطف والاخاء لدليل قاطع على ما فى قلوب المسلمين خارج الهند من تمسك بالهند و بمسلميها وحنان الى تاريخهم المجيد بها وأنه اذا قدر وسارت نهضة الشعوب الاسلامية فى شمال الهند فى سيرها الحالى نحو التقدم والرقى فسيكون لهم شأن مع الانجليز وليس ببعيد أن يعيد أفغانى مجد الغزنوى أو نادر شاه خصوصا وأن العقيدة الاسلامية والاخاء الاسلامى هما من أنجع الوسائل التى تربط الامم ببعضها فتجعلها أمة واحدة فيوما من أيام الغزنوى أو بابر ياشعب فارس و ياشعب الأفغان .

و ياليت المسلمين يأخذون درسا نافعا مما حل بهم بسبب تفرق كلمتهم وتوزع قوتهم حتى استعبدتهم الأمم الأوروبية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهل هناك مثل يضرب على تفرق كلمتهم أوضح مما هو حاصل بجزيرة العرب التى لا يتجاوز سكانها اثنا عشر مليونا من الأنفس ، وبالرغم عن هذا فقد انقسمت وتفرقت شيعا وقبائل وصارت ممالك وامارات وهى فى عدد أهلها لا تعد شيئا اذا قيست باحدى الأمم الأوروبية كالمانيا أو ايطاليا أو فرنسا :

فنسمع عن أمارة فى شرق الأردن ومملكة العراق والحجاز ونجد واليمن وسلطنة مسقط وامارة الكويت ثم نعود فنسمع عن السنيين والشيعيين والوهابيين والزيديين . فمالهم انقسموا ومالهم اختلفوا فرقا ملوك العرب وأمراءهم بأمة كان لها تاريخ بلغ مجده عنان السماء ثم أصبحت فريسة لأحقر طوائف الأرض — ألم تر فلسطين وما حل بها وهل يموت أبناؤها وأنتم أحياء وهل يحصل كل هذا من أجل تفرق كلمة الملوك والأمراء . وليت السماء انطبقت على الأرض ولم نسمع أن الصهيونية بنت عشها بفلسطين وباضت فيه وأفرخت ، ونشأت فيها دولة للمرابين الذين أصبحوا يستعبدون أبناء الصحراء وهى منبع الرجولة بل الوطن الذى أخرج أكبر غزاة العالم وعظماءهم وهل يصبح أبناء الغزاة الذين دانت لكلمتهم الأمم ورفعت راياتهم فى ربوع الهند وأفريقيا — هل يصبحون مكتوفى الأيدى أذلاء ؟ والله لئن اجتمعت كلمتكم وتوحدت مجهوداتكم لتقذفن الصهيونية ومؤيديها فى اليم . وما للمسلمين وهم اخوان فى الدين وشركاء فى الحق لا يعملون على ايجاد خلافة محمدية أو تكوين عصبة أمم اسلامية يسود بين أصحابها السلام والاخاء والتضامن والولاء — والفرصة سانحة ويالها من فرصة عظيمة اذا اغتنمتموها — وهذه انجلترا التى استخدمت مئات الألوف من المسلمين الهنود وغيرهم نسيت دماءهم البريئة التى أريقت فى الحرب الأوروبية الأخيرة ، والآن تطارد طائفة صغيرة من المسلمين من أجل أمة المرابين الذين أنذرهم الله بالمحق اذ قال فى كتابه العزيز « يمحق الله الربا »

إن سماء انجلترا السياسى فيه سحب متقطعة ونذر متجمعة فالخطر محدق بها واليابان واقفة لها والروسيا تبث دعايتها وقد نفذت كلمة ألمانيا وايطاليا عليها بعد ما كانت تخضع لها وقد أصبحت هذه الامبراطورية المستعمرة لخمس العالم تتخبط فى سياستها وهى التى غررت بالشعوب الضعيفة وطنطنت بديموقراطيتها

وأصبح حاضرها شراً من ماضيها ، ولقد كان فى ماضيها بعض الحسنات فهي التى ساعدت على الغاء الرق وحررت منه السود فى أفريقيا وأمريكا فمالها الآن تريد أن تستعبد العرب وهم من أعرق الشعوب حرية ومالها تخرج شعباً من وطنه وتهدم منازل السكان فتخدم بذلك مآرب الصهيونيين وهم الذين نشروا الشر فى الدنيا فأصبحت الأمم تطردهم والحكومات تلفظهم ، وهلا وسع اليهود جزء من أملاك الانجليز وهم أصحاب كندا وأستراليا الخالية من السكان ولعل اليهود يدركون فى آخر لحظة ما زجهم فيه الانجليز من ورطة ، ولعلهم يرجعون عن غيهم وانى لأحذرهم بأن آية المرابين سيتم تفسيرها فى تل أبيب .

أيها التل الأخضر ستصير أسود قاتما .

قد يدهش القراء اذ يرون فى بعض صحائف هذا الكتاب شرودا لا يتعلق بالهند بل بالعرب والدعوة الى ائتلافهم وتجمع كلمتهم ، ولكن المسلم أخو المسلم يشعر بشعوره فما يؤلم الهند يؤثر فى مصر وفى صنعاء و بغداد ونجد فكلما ذكرت فلسطين غلبت على نزعة الغضب فلم أستطع مقاومته بل كتبت ما كتبت رغما عنى وضد واجبى كمصرى ، ومصر حليفة لانجلترا ، من أجل هذا اعتقدت أن فى مقدمة الأخطار التى تهدد مركز انجلترا فى الهند معاملتها السيئة للعرب فى فلسطين وفى جهات عدن ، وانى أؤكد لحضرات القراء أن من الواجبات المقدسة علينا كأمة أن نحفظ عهد الانجليز كحلفاء فنحارب حربهم ونسالم سلمهم ولكن لا زال فى الشرق للنزعة الدينية سلطان قوى ، يسيطر على مشاعرنا جميعا والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، من أجل هذا صار منبع الخطر الذى يأتى من ناحية المسلمين ليس ببعيد الوقوع بل كثير الاحتمال ، وأن شرر فلسطين ربما أشعل الشرق الأدنى

والأوسط و ياليت انجلترا أحبت السلام و ياليتها راعته فى فلسطين كما « احترمته فى برلين فى مسئلة تشيكوسلوفاكيا »

بقيت مسئلة أخرى خاصة بمسلمى الهند فهذا الفريق من المسلمين كان فى الماضى يلازم سياسة العزلة عن باقى اخوانه المسلمين فى الممالك الأخرى فلا يتصل بهم ولا يتصلون به حتى انتهت الحرب الأوروبية فتغيرت أطوار مسلمى الهند وتألفت بينهم جمعية الخلافة الاسلاميـة التى قام بها الأخوان محمد على وشوكت على بالهند وهى من العلامات التى تدل دلالة قاطعة على تيقظ الشعور الاسلامى فى الهند . ومما يجعل مركز الانجليز بالهند مزعزعا ما يسلـكه بعض الموظفين البريطانيين مع السكان و يرتكبونه من قسوة وظلم ولا يغيب عن البال حوادث الجنرال داير فى مدينة أمرتسار بالبنجاب إذ بلغت اجتماعاً كانت تلقى به خطب سياسية فبدلا من أن يأمرهم أو ينذرهم أولا بالتفرق أمر بتسليط المدافع الرشاشة عليهم واستشهد فى هذه الحادثة ثلثمئة وستين من الهنود و بلغ عدد الجرحى منهم ألفاً ومئتين ، ولم يكن بينهم من يحمل سلاحا فلم تكن حادثة دنشواى التى ولدت فى قلوب المصريين كرها ومقتاً للانجليز الا امراً بسيطا بالنسبة لحوادث الهند ومع ما كانت عليه حادثة الجنرال دير من الفظاعة والقسوة فقد قال عنه القـاضى الانجليزى « ما كاردى » « أنه لا غبار عليه » وأمة تستخف بالأرواح وتهرق الدماء وتكثر من الشهداء بين الشعوب التى تحـكمها فبشرها بأن دماء هؤلاد الشهداء والأبرياء لن تضيع أبداً . وأذكر عبـارة تاريخية لا بأس من سردها :

لما نكب هارون الرشيد وزراءه البرامـكة ذهب أحد أعوانهم وأخبر يحيى بن خالد البرمـكي وهو يقاسى أهوال السجن فى أواخر أيام حياته وقال له : « لقد قتل الرشيد ابنك » فقال له : « كذلك يقتل ابنه » وعاد الرجل وقال له :

« لقد هدم هارون منازلك » فقال : « كـذلك تهدم منازله » وهاهم الانجليز يرتكبون الجرمين وسيجزون بمثل ما يعملون .

بقى الخطر الرابع وهو داخلى يتعلق بنفس الهنود والذى له إلمام بشؤون الهند يستنتج من حالتها أنها لا يمكن أن تكون أمة واحدة وحكومة واحدة فالأديان فيها متعددة إذ فيها الهندوس والمسلمون والسيك والباراسى والمسيحيون وغيرهم ، علاوة على ذلك ففيها تعدد اللغـات ، ففيها الهندستانى والراجبوتانى والأوردو والتاميل والبنغالى والجواجيراتى وكل هذه تقف كموانع تحول بين تكوين أمة هندية مؤتلفة لذلك كانت الأخطار الداخلية ليست ذات شأن عظيم فهى لا تهدد انجلترا اللهم إلا اذا استطاع زعماء الأديان أن يأتلفوا فيما بينهم وأن يحترم كل فريق منهم الاستقلال الداخلى للفريق الآخر فاذا أمكن التغلب على الخلافات الطائفية والدينية واللغوية فلن يصبح الخطر الداخلى من الأمور التى يستهان بها .

كلمة المؤلف

كنت أسمع أن فى الهند شعوبا إسلاميـة يزيد عددها عن مجموع سكان تركيا والعرب وفارس والأفغان فتصفحت كتب الكامل لابن الأثير وتاريخ الطبرى وابن خلدون وابن إياس ومروج الذهب للمسعودى وغيرها من كتب التاريخ المكتوبة بلغتنا العربية فلم أجد بها ما أستطيع أن أستفيد منه شيئـاً تاريخياً عن الهنود المسلمين ؛ لذلك لجأت إلى كثير من المؤلفات باللغـة الانجليزية منها :

الهند فى القرون الوسطى (للمؤلف لنبول)
تاريخ المغول العظـام (« كندى)
دائرة المعارف البريطانية
الهنـــد (« السير فالنتين تشيرول)
وكتاب آخر عن الهند الحديثه (للأستاذ وليم مدرس التاريخ سابقاً بجامعـة الله أباد)

وغيره من المراجع

وكتبت هذا التاريخ راجياً أن أسد به نقصاً فى كتبنا التاريخيـة إذ يجب على من يريد الالمام بتاريخ المسلمين وثقافتهم أن يلم بهذا القسم الغير عربى والذى بدونه لا تكون معلومات المؤرخ الاسلامى كاملة ، ولقد شجعنى ودفعنى الى الاقدام على اختيار هذا الموضوع ما وجدت فيه من عبر ومواعظ ينتفع بها الحاكم والمحكوم .

محمد عبد المجيد العبد
عضو مجلس الشيوخ